

التفسير الكبير

للإمام

أبي عبد الله محمد بن جرير الطبري

الجزء الثالث عشر

الطبعة الأولى

يطلب من ملتزم طبعه

عبد الرحمن محمد بن عبد

ملتزم طبع المصحف الشريف بمكة المكرمة

حقوق الطبع والنقل محفوظة ملتزمه

طبع بالمطبعة البهية المصرية

١٣٥٧ هجرية — ١٩٣٨ ميلادية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ
الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ «٥٤»

قوله تعالى «وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم»
في الآية مسائل :

(المسألة الأولى) اختلفوا في قوله (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا) فقال بعضهم هو على
اطلاقه في كل من هذه صفته . وقال آخرون : بل نزل في أهل الصفة الذين سأل المشركون الرسول
عليه السلام طردهم وابعادهم ، فأكرمهم الله بهذا الاكرام . وذلك لأنه تعالى نهى الرسول عليه
السلام أولاً عن طردهم ، ثم أمره بأن يكرمهم بهذا النوع من الاكرام . قال عكرمة : كان النبي
صلى الله عليه وسلم إذا رآهم بدأهم بالسلام ويقول «الحمد لله الذي جعل في أمي من أمرني أن أبدأه
بالسلام» وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن عمر لما اعتذر من مقاته واستغفر الله منها . وقال
لرسول عليه السلام ، ما أردت بذلك إلا الخير نزلت هذه الآية . وقال بعضهم : بل نزلت في قوم
أقدموا على ذنوب ، ثم جاؤه صلى الله عليه وسلم مظهرين للندامة والأسف ، فنزلت هذه الآية فيهم
والأقرب من هذه الأقاويل أن تحمل هذه الآية على عمومها ، فكل من آمن بالله دخل تحت
هذا التشريف .

ولى ههنا اشكال ، وهو : أن الناس اتفقوا على أن هذه السورة نزلت دفعة واحدة ، وإذا

كان الأمر كذلك . فكيف يمكن أن يقال في كل واحدة من آيات السورة ان سبب نزولها هو الأمر الفلاني بعينه ؟

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا) مشتمل على أسرار عالية . وذلك لأن مأسوى الله تعالى فهو آيات وجود الله تعالى ، وآيات صفات جلاله وأكرامه وكبريائه . وآيات وحدانيته ، وما سوى الله فلا نهاية له ، وما لا نهاية له فلا سبيل للعقل في الوقوف عليه على التفصيل التام ، إلا أن الممكن هو أن يطلع على بعض الآيات ويتوسل بمعرفتها إلى معرفة الله تعالى ثم يؤمن بالبقية على سبيل الاجمال ثم إنه يكون مدة حياته كالسائح في تلك القفار ، وكالسائح في تلك البحار . ولما كان لا نهاية لها فكذلك لانهاية لترقى العبد في معارج تلك الآيات . وهذا مشروع جملي لانهاية لتفاصيله . ثم إن العبد إذا صار موصوفا بهذه الصفة فعند هذا أمر الله محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم (سلام عليكم) فيكون هذا التسليم بشارة لحصول السلامة . وقوله (كتب ربكم على نفسه الرحمة) بشارة لحصول الرحمة عقيب تلك السلامة . أما السلامة فالنجاة من بحر عالم الظلمات ومركز الجسمانيات ومعادن الآفات والمخالفات وموضع التغييرات ، والتبديلات . وأما الكرامات فبالوصول إلى الباقيات الصالحات والمجردات المقدسات . والوصول إلى فسحة عالم الأنوار والترقى الى معارج سرادقات الجلال .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذكر الزجاج عن المبرد . أن السلامة في اللغة أربعة أشياء . فمنها سلمت سلاما وهو معنى الدعاء ، ومنها أنه اسم من أسماء الله تعالى ، ومنها الاسلام . ومنها اسم للشجر العظيم . أحسبه سمي بذلك لسلامته من الآفات ، وهو أيضاً اسم للحجارة الصلبة . وذلك أيضاً لسلامتها من الرخاوة . ثم قال الزجاج : قوله (سلام عليكم) السلام ههنا يحتمل تأويلين : أحدهما : أن يكون مصدر سلمت تسليماً وسلاماً مثل السراح من التمريح . ومعنى سلمت عليه سلاماً . دعوت له بأن يسلم من الآفات في دينه ونفسه . فالسلام بمعنى التسليم . والثاني : أن يكون السلام جمع السلامة . فعنى قولك السلام عليكم ، السلامة عليكم . وقال أبو بكر بن الأنباري : قال قوم السلام هو الله تعالى فعنى السلام عليكم يعنى الله عليكم أى على حفظكم وهذا بعيد في هذه الآية لتكبير السلام في قوله (فقل سلام عليكم) ولو كان معرفاً لصح هذا الوجه . وأقول كتبت فصولاً مشبعة كاملة في قولنا سلام عليكم وكتبها في سورة التوبة . وهى أجنبية عن هذا الموضوع فاذا نقلته إلى هذا الموضوع كمل البحث والله أعلم .

أما قوله ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ ففيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قوله كتب كذا على فلان يفيد الإيجاب . وكلمة «على» أيضاً تفيد الإيجاب ومجموعهما مبالغة في الإيجاب . فهذا يقتضى كونه سبحانه راحماً لعباده رحيماً بهم على سبيل الوجوب واختلاف العقلاء في سبب ذلك الوجوب فقال أصحابنا: له سبحانه أن يتصرف في عييده كيف شاء وأراد ، إلا أنه أوجب الرحمة على نفسه على سبيل الفضل والكرم . وقالت المعتزلة : إن كونه عالماً بقبائح القبائح وعالماً بكونه غنياً عنها ، يمنعه من الاقدام على القبائح ولو فعله كان ظلماً ، والظلم قبيح ، والقبیح منه محال . وهذه المسألة من المسائل الجليلة في علم الأصول .

﴿المسألة الثانية﴾ دلت هذه الآية على أنه لا يتمتع تسمية ذات الله تعالى بالنفس وأيضاً قوله تعالى (تعلم ما في نفسى ولا أعلم ما في نفسك) يدل عليه ، والنفس ههنا بمعنى الذات والحقيقة ، وأما بمعنى الجسم والدم فالله سبحانه وتعالى مقدس عنه . لأنه لو كان جسماً لكان مركباً والمركب يمكن أيضاً أنه أحد ، والأحد لا يكون مركباً . وما لا يكون مركباً لا يكون جسماً وأيضاً أنه غنى كما قال (والله الغنى) والغنى لا يكون مركباً وما لا يكون مركباً لا يكون جسماً وأيضاً الأجسام متماثلة في تمام الماهية . فلو كان جسماً لحصل له مثل ، وذلك باطل لقوله (ليس كمثل شيء) فأما الدلائل العقلية فكثيرة ظاهرة باهرة قوية جليلة والحمد لله عليه .

﴿المسألة الثالثة﴾ قالت المعتزلة قوله (كتب ربكم على نفسه الرحمة) يناقئ أن يقال : إنه تعالى يخلق الكفوف في الكافر ، ثم يعذبه عليه أبد الآباد ، ويناقئ أن يقال : إنه يمنعه عن الإيمان ، ثم يأمره حال ذلك المنع بالإيمان ، ثم يعذبه على ترك ذلك الإيمان . وجواب أصحابنا : أنه ضار نافع محي يميت ، فهو تعالى فعل تلك الرحمة البالغة وفعل هذا القهر البالغ ولا منافاة بين الأمرين .

﴿المسألة الرابعة﴾ من الناس من قال : إنه تعالى لما أمر الرسول بأن يقول لهم (سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة) كان هذا من قول الله تعالى ومن كلامه ، فهذا يدل على أنه سبحانه وتعالى قال لهم في الدنيا (سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة) وتحقيق هذا الكلام أنه تعالى وعد أقواماً بأنه يقول لهم بعد الموت (سلام قولاً من رب رحيم) ثم إن أقواماً أفنوا أعمارهم في العبودية حتى صاروا في حياتهم الدنيوية كأنهم انتقلوا إلى عالم القيامة . لاجرم صار التسليم الموعود به بعد الموت في حق هؤلاء حال كونهم في الدنيا ، ومنهم من قال : لا ، بل هذا كلام الرسول عليه الصلاة والسلام . وقوله : وعلى التقديرين فهو درجة عالية .

ثم قال تعالى ﴿أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح﴾ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن هذا لا يتناول التوبة من الكفر . لأن هذا الكلام خطاب مع الذين

وصفهم بقوله (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا) فثبت أن المراد منه توبة المسلم عن المعصية .
والمراد من قوله (بجهالة) ليس هو الخطأ والغلط ، لأن ذلك لا حاجة به إلى التوبة . بل المراد منه ،
أن تقدم على المعصية بسبب الشهوة ، فكان المراد منه بيان أن المسلم إذا أقدم على الذنب مع العلم
بكونه ذنباً ثم تاب منه توبة حقيقية فإن الله تعالى يقبل توبته .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ نافع (أنه من عمل منكم) بفتح الالف (فأنه غفور) بكسر الالف . وقرأ
عاصم وابن عامر بالفتح فيهما ، والباقون بالكسر فيهما . أما فتح الأولى فعلى التفسير للرحمة . كأنه
قيل : كتب ربكم على نفسه أنه من عمل منكم . وأما فتح الثانية فعلى أن يجعله بدلا من الأولى كقوله
(أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون) وقوله (كتب عليه أنه من تولاه فأنه
يضله) وقوله (ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فإن له نار جهنم) قال أبو علي الفارسي : من فتح
الأولى فقد جعلها بدلا من الرحمة ، وأما التي بعد الفاء فعلى أنه أضمر له خبرا تقديره . فله أنه غفور
رحيم ، أي فله غفرانه ، أو أضمر مبتدأ يكون «أن» خبره كأنه قيل : فأمره أنه غفور رحيم . وأما
من كسرهما جميعا فلأنه لما قال (كتب ربكم على نفسه الرحمة) فقد تم هذا الكلام . ثم ابتداء وقال
(إنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم) فدخلت الفاء جوابا
للجزاء ، وكسرت إن لأنها دخلت على مبتدأ وخبر كأنك قلت فهو غفور رحيم . إلا أن الكلام
بأن أو كد هذا قول الزجاج . وقرأ نافع الأولى بالفتح والثانية بالكسر ، لأنه أبدل الأولى من الرحمة .
واستأنف ما بعد الفاء . والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (من عمل منكم سوءاً بجهالة) قال الحسن : كل من عمل معصية فهو جاهل ،
ثم اختلفوا فقيل : إنه جاهل بمقدار مافاته من الثواب وما استحققه من العقاب . وقيل : إنه وإن
علم أن عاقبة ذلك الفعل مذمومة ، إلا أنه آثر اللذة العاجلة على الخير الكثير الآجل . ومن آثر
القليل على الكثير قيل في العرف أنه جاهل .

وحاصل الكلام أنه وإن لم يكن جاهلا إلا أنه لما فعل ما يابق بالجهال أطلق عليه لفظ الجاهل .
وقيل نزلت هذه الآية في عمر حين أشار باجابة الكفرة إلى ما اقترحوه . ولم يعلم بأنها مفسدة ونظير
هذه الآية قوله (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة)

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله تعالى (ثم تاب من بعده وأصلح) فقوله (تاب) إشارة إلى الندم على
الماضي وقوله (وأصلح) إشارة إلى كونه آتياً بالأعمال الصالحة في الزمان المستقبل . ثم قال (فأنه
غفور رحيم) فهو غفور بسبب إزالة العقاب . رحيم بسبب إيصال الثواب الذي هو النهاية في
الرحمة . والله أعلم .

وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِمَنْ يُرِيدُ وَاللَّهُ يَسْمَعُ الْوَهْوَاهُ مِنَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِي الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى ﴿وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين﴾

المراد كما فصلنا لك في هذه السورة دلالتنا على صحة التوحيد والنبوة والقضاء والقدر ، فكذلك نميز ونفصل لك دلالتنا وحججنا في تقرير كل حق ينكره أهل الباطل وقوله (ولتستبين سبيل المجرمين) عطف على المعنى كأنه قيل ليظهر الحق وليستبين ، وحسن هذا الحذف لكونه معلوماً واختلاف القراء في قوله (ليستبين) فقرأ نافع (لتستبين) بالتاء (وسبيل) بالنصب والمعنى لتستبين يا محمد سبيل هؤلاء المجرمين . وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم (ليستبين) بالياء (سبيل) بالرفع والباقون بالتاء (وسبيل) بالرفع على تأنيث سبيل . وأهل الحجاز يؤثنون السبيل ، وبنو تميم يذكرونه . وقد نطق القرآن بهما فقال سبحانه (وإن يروا سبيل الرشيد لا يتخذوه سبيلاً) وقال (ويصدون عن سبيل الله ويغونها عوجاً)

فان قيل : لم قال (ليستبين سبيل المجرمين) ولم يذكر سبيل المؤمنين .

قلنا : ذكر أحد القسمين يدل على الثاني . كقوله (سراويل تقيمكم الحر) ولم يذكر البرد . وأيضاً فالضدان إذا كانا بحيث لا يحصل بينهما واسطة ، فتي بانة خاصة أحد القسمين بانة خاصة القسم الآخر والحق والباطل لا واسطة بينهما ، فتي استبانة طريقة المجرمين فقد استبانة طريقة المحقين أيضاً لا محالة .

قوله تعالى ﴿قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين قل إنى على بينة من ربي وكذبتم به ما عندي ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر في الآية المتقدمة ما يدل على أنه يفصل الآيات ليظهر الحق وليستبين سبيل المجرمين ، ذكر في هذه الآية أنه تعالى نهى عن سلوك سبيلهم . فقال (قل إنى نهيت أن أعبد الذين

تدعون من دون الله وبين أن الذين يعبدونها إنما يعبدونها بناء على محض الهوى والتقليد . لا على سبيل الحجة والدليل ، لأنها جمادات وأحجار وهي أخس مرتبة من الإنسان بكثير . وكون الأشرف مشتملاً بعبادة الأخس أمر يذمّه صريح العقل . وأيضاً أن القوم كانوا ينتحون تلك الأصنام ويركعونها . ومن المعلوم بالبدية أنه يقبح من هذا العامل الصانع أن يعبد معه وله ودهنوعه . فثبت أن عبادة أممية على الهوى . ومضادة للهدي . وهذا هو المراد من قوله (قل لا أتبع أهواءكم) ثم قال (قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين) أى ان اتبعت أهواءكم فأنا ضال وما أنا من المهتدين فى شيء . والمقصود كأنه يقول لهم أتمم كذلك . ولما نفى أن يكون الهوى متبعاً ، به على ما يجب اتباعه بقوله (قل انى على بينة من ربى) أى فى أنه لا معبود سواه . وكذبتم أتمم حيث أشركتم به غيره .

واعلم أنه عليه الصلاة والسلام ، كان يخوفهم بنزول "عذاب عليهم بسبب هذا الشرك . والقوم لاصرارهم على الكفر كانوا يستعجلون نزول ذلك العذاب . فقال تعالى قل يا محمد : (ما عندى ما تستعجلون به) يعنى قولهم (اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم) والمراد أن ذلك العذاب ينزله الله فى الوقت الذى أراد انزاله فيه . ولا قدرة لى على تقديمه أو تأخيره . ثم قال (إن الحكم إلا لله) وهذا مطلق يتناول الكل . والمراد ههنا ان الحكم الا لله فقط فى تأخير عذابهم (يقضى الحق) أى القضاء الحق فى كل ما يقتضى من التأخير والتعجيل (وهو خير الفاصلين) أى القاضين . وفيه مسئلان :

﴿المسألة الأولى﴾ احتج أصحابنا بقوله (إن الحكم إلا لله) على أنه لا يقدر العبد على أمر من الأمور إلا إذا قضى الله به . فيمتنع منه فعل الكفر إلا إذا قضى الله به وحكم به . وكذلك فى جميع الافعال . والدليل عليه أنه تعالى قال (إن الحكم إلا لله) وهذا يفيد الحصر . بمعنى أنه لا حكم إلا لله . واحتج المعتزلة بقوله (يقضى الحق) ومعناه أن كل ما قضى به فهو الحق . وهذا يقتضى أن لا يريد الكفر من الكافر . ولا المعصية من العاصى لأن ذلك ليس الحق . والله أعلم .

﴿المسألة الثانية﴾ قرأ ابن كثير ونافع وعاصم (يقض الحق) بالصاد من "قصص" . يعنى ان كل ما أنبأ الله به وأمر به فهو من أقاصيص الحق . كقوله (نحن نقص عليك أحسن القصص) وقرأ الباقون (يقض الحق) والمكتوب فى المصاحف «يقض» بغير ياء لأنها سقطت فى اللفظ لالتقاء الساكنين كما كتبوا (سندع الزبانية فما تغن النذر) وقوله (يقض الحق) قال الزجاج : فيه وجهان : جازئ أن يكون (الحق) صفة المصدر والتقدير : يقض القضاء الحق . ويجوز أن يكون (يقض الحق) يصنع الحق ، لأن كل شيء صنعه الله فهو حق . وعلى هذا التقدير (الحق) يكون مفعولاً به وقضى

قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ
بِالظَّالِمِينَ «٥٨» وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا
تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ
إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ «٥٩»

بمعنى صنع . قال الهذلي :

وعليهما مسرودتان قضاهما داود أو صنع السوابغ تبع

أى صنعهما داود واحتج أبو عمرو على هذه القراءة بقوله (وهو خير الفاصلين) قال والفصل
يكون في القضاء ، لا في القصص .

أجاب أبو علي الفارسي فقال القصص ههنا بمعنى القول . وقد جاء الفصل في القول قال تعالى
(انه لقول فصل) وقال (أحكمت آياته ثم فصلت) وقال (نفصل الآيات) .

قوله تعالى ﴿ قل لو أن عندى ما تستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم والله أعلم بالظالمين ﴾
اعلم أن المعنى (لو أن عندى) أى فى قدرتى وامكانى (ما تستعجلون به) من العذاب (لقضى الأمر
بينى وبينكم) لأهلكتكم عاجلا غضبا لربى ، واقتصاصا من تكذيبكم به . ولتخلصت سرىعا (والله
أعلم بالظالمين) وبما يجب فى الحكمة من وقت عقابهم ومقداره ، والمعنى : انى لا أعلم وقت عقوبة
الظالمين . والله تعالى يعلم ذلك فهو يؤخره الى وقته ، والله أعلم

قوله تعالى ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة
إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾

اعلم أنه تعالى قال فى الآية الأولى (والله أعلم بالظالمين) يعنى أنه سبحانه هو العالم بكل شىء فهو
يعجل ما تعجيله أصلح ويؤخر ما تأخيره أصلح . وفى الآية مسائل :

المسألة الأولى ﴿ المفاتيح جمع مفتاح . ومفتاح ، والمفتاح بالكسر المفتاح الذى يفتح به والمفتاح
بفتح الميم الخزانة وكل خزانة كانت لصنف من الاشياء فهو مفتاح . قال الفراء فى قوله تعالى (ما إن
مفتاحه لتنوء بالعصبة) يعنى خزانته فلفظ المفاتيح يمكن أن يكون المراد منه المفاتيح ويمكن أن يراد

منه الخزائن ، أما على التقدير الأول . فقد جعل للغيب مفاتيح على طريق الاستعارة لأن المفاتيح يتوصل بها إلى مافي الخزائن المستوثق منها بالأغلاق والأقفال فالعلم بتلك المفاتيح وكيفية استعمالها في فتح تلك الأغلاق والأقفال يمكنه أن يتوصل بتلك المفاتيح إلى مافي تلك الخزائن فكذلك ههنا الحق سبحانه لما كان عالما بجميع المعلومات عبر عن هذا المعنى بالعبارة المذكورة . وقرىء (مفاتيح) وأما على التقدير الثاني فالمعنى وعنده خزائن الغيب . فعلى التقدير الأول يكون المراد العلم بالغيب ، وعلى التقدير الثاني المراد منه القدرة على كل الممكنات كما في قوله (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) وللحكمة في تفسير هذه الآية كلام عجيب مفرع على أصولهم فانهم قالوا : ثبت أن العلم بالعلة علة للعلم بالمعلول وأن العلم بالمعلول لا يكون علة للعلم بالعلة . قالوا : وإذا ثبت هذا فنقول : الموجود إما أن يكون واجبا لذاته . وإما أن يكون ممكنا لذاته . والواجب لذاته ليس إلا الله سبحانه وتعالى . وكل ما سواه فهو ممكن لذاته . والممكن لذاته لا يوجد إلا بتأثير الواجب لذاته وكل ما سوى الحق سبحانه فهو موجود بإيجاده كائن بتكوينه واقع بايقاعه . إما بغير واسطة وإما بواسطة واحدة وإما بوسائط كثيرة على الترتيب النازل من عنده طولا وعرضا . إذا ثبت هذا فنقول : علمه بذاته يوجب عمله بالأثر الأول الصادر منه . ثم علمه بذلك الأثر الأول يوجب عمله بالأثر الثاني لأن الأثر الأول علة قريبة للأثر الثاني . وقد ذكرنا أن العلم بالعلة يوجب العلم بالمعلول فهذا علم الغيب ليس إلا علم الحق بذاته المخصوصة ثم يحصل له من علمه بذاته علمه بالآثار الصادرة عنه على ترتيبها المعتبر ، ولما كان علمه بذاته لم يحصل إلا لذاته لا جرم صح أن يقال (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو) فهذا هو طريقة هؤلاء الفرقة الذين فسروا هذه الآية بناء على هذه الطريقة .

ثم اعلم أن ههنا دقيقة أخرى ، وهى : أن القضايا العقلية المحضة يصعب تحصيل العلم بها على سبيل النمام والكمال إلا للعقلاء الكاملين الذين تعودوا الاعراض عن قضايا الحس والخيال وانفوا استحضار المعقولات المجردة . ومثل هذا الانسان يكون كالنادر وقوله (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو) قضية عقلية محضة مجردة فالانسان الذى يقوى عقله على الاحاطة بمعنى هذه القضية نادر جدا . والقرآن انما أنزل ليتنفع به جميع الخلق . فههنا طريق آخر وهو أن من ذكر القضية العقلية المحضة المجردة ، فاذا أراد إيصالها إلى عقل كل أحد ذكر لها مثلا من الأمور المحسوسة الداخلة تحت القضية العقلية الكلية ليصير ذلك المعقول بمعاونة هذا المثال المحسوس مفهوما لكل أحد . والأمر فى هذه الآية ورد على هذا القانون ، لأنه قال أولا (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها

إلا هو) ثم أكد هذا المعقول الكلي المجرد بجزئي محسوس فقال (ويعلم ما في البر والبحر) وذلك لأن أحد أقسام معلومات الله هو جميع دواب البر، والبحر، والحس، والخيال قد وقف على عظمة أحوال البر والبحر، فذكر هذا المحسوس يكشف عن حقيقة عظمة ذلك المعقول.

وفيه دققة أخرى وهي: أنه تعالى قدم ذكر البر، لأن الإنسان قد شاهد أحوال البر، وكثرة ما فيه من المدن والقرى والمفاوز والجبال والتلال، وكثرة ما فيها من الحيوان والنبات والمعادن. وأما البحر فاحاطة العقل بأحواله أقل إلا أن الحس يدل على أن عجائب البحار في الجملة أكثر وطولها وعرضها أعظم وما فيها من الحيوانات وأجناس المخلوقات أعجب. فاذا استحضرت الخيال صورة البحر والبر على هذه الوجود. ثم عرف أن مجموعها قسم حقير من الأقسام الداخلة تحت قوله (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو) فيصير هذا المثال المحسوس مقويا ومكملا للعظمة الحاصلة تحت قوله (وعنده مفاتيح الغيب) بذكر البر والبحر كشف عن عظمة البر والبحر بقوله (وماتسقط من ورقة إلا يعلمها) وذلك لأن العقل يستحضر جميع ما في وجه الأرض من المدن والقرى والمفاوز والجبال والتلال، ثم يستحضر كم فيها من النجم والشجر ثم يستحضر أنه لا يتغير حال ورقة إلا والحق سبحانه يعلمها ثم يتجاوز من هذا المثال إلى مثال آخر أشد هيئة منه وهو قوله (ولا حبة في ظلمات الأرض) وذلك لأن الحبة في غاية الصغر وظلمات الأرض موضع يبقى أكبر الاجسام وأعظمها مخفيا فيها فاذا سمع أن تلك الحبة الصغيرة الملقاة في ظلمات الأرض على اتساعها وعظمتها لا تخرج عن علم الله تعالى البتة، صارت هذه الامثلة منبهة على عظمة عظيمة وجلالة عالية من المعنى المشار اليه بقوله (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو) بحيث تتحير العقول فيها وتتقاصر الأفكار والألباب عن الوصول إلى مبادئها، ثم إنه تعالى لما قوى أمر ذلك المعقول المحض المجرد بذكر هذه الجزئيات المحسوسة فبعد ذكرها عاد إلى ذكر تلك القضية العقلية المحضة المجردة بعبارة أخرى فقال (ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) وهو عين المذكور في قوله (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو) فهذا ما عقلناه في تفسير هذه الآية الشريفة العالمة. ومن الله التوفيق.

(المسألة الثانية) المتكلمون قالوا إنه تعالى فاعل العالم بجواهره وأعراضه على سبيل الاحكام والاتقان، ومن كان كذلك كان عالما بها فوجب كونه تعالى عالما بها والحكماء قالوا: أنه تعالى مبدأ لجميع الممكنات، والعلم بالمبدأ يوجب العلم بالآثر فوجب كونه تعالى عالما بكلها: واعلم أن هذا الكلام من أدل الدلائل على كونه تعالى عالما بجميع الجزئيات الزمانية وذلك

لأنه لما ثبت أنه تعالى مبدء لكل ماسواه وجب كونه مبدءاً لهذه الجزئيات بالأثر . فوجب كونه تعالى عالماً بهذه التغيرات والزمانيات من حيث أنها متغيرة وزمانية وذلك هو المطلوب .

﴿المسألة الثالثة﴾ قوله تعالى (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو) يدل على كونه تعالى منزهاً عن الضد والند وتقريره : أن قوله (وعنده مفاتيح الغيب) يفيد الحصر . أى عنده لا عند غيره . ولو حصل موجود آخر واجب الوجود لكان مفاتيح الغيب حاصلة أيضاً عند ذلك الآخر . وحينئذ يبطل الحصر . وأيضاً فكما أن لفظ الآية يدل على هذا التوحيد ، فكذلك البرهان العقلي يساعد عليه . وتقريره : أن المبدء لحصول العلم بالآثار والتأثير والصنائع هو العلم بالمؤثر والمؤثر الأول في كل الممكنات هو الحق سبحانه . فالفتح الأول للعلم بجميع المعلومات هو العلم به سبحانه لكن العلم به ليس إلا له لأن ماسواه أثر والعلم بالأثر لا يفيد العلم بالمؤثر . فظهر بهذا البرهان أن مفاتيح الغيب ليست إلا عند الحق سبحانه . والله أعلم .

﴿المسألة الرابعة﴾ قرىء (ولا حبة ولا رطب ولا يابس) بالرفع وفيه وجهان : الأول : أن يكون عطفاً على محل من ورقة وأن يكون رفعا على الابتداء وخبره (إلا في كتاب مبين) كقولك : لا رجل منهم ولا امرأة إلا في الدار .

﴿المسألة الخامسة﴾ قوله (إلا في كتاب مبين) فيه قولان : الأول : أن ذلك الكتاب المبين هو علم الله تعالى لا غير . وهذا هو الصواب . والثاني : قال الزجاج : يجوز أن يكون الله جل ثناؤه أثبت كيفية المعلومات في كتاب من قبل أن يخلق الخلق كما قال عز وجل (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها) وفائدة هذا الكتاب أمور : أحدها : أنه تعالى إنما كتب هذه الأحوال في اللوح المحفوظ لتقف الملائكة على نفاذ علم الله تعالى في المعلومات وأنه لا يغيب عنهم ما في السموات والأرض شيء . فيكون في ذلك عبرة تامة كاملة للملائكة الموكلين باللوح المحفوظ لأنهم يقابلون به ما يحدث في صحيفة هذا العالم فيجدونه موافقاً له . وثانيها : يجوز أن يقال إنه تعالى ذكر ما ذكر من الورقة والحبة تليها للمكلفين على أمر الحساب وإعلاماً بأنه لا يفوته من كل ما يصنعون في الدنيا شيء : لأنه إذا كان لا يهمل الأحوال التي ليس فيها ثواب ولا عقاب ولا تكليف فبأن لا يهمل الأحوال المشتملة على الثواب والعقاب أولى . وثالثها : أنه تعالى علم أحوال جميع الموجودات فيمتنع تغييرها عن مقتضى ذلك العلم ، وإلزام الجهل . فإذا كتب أحوال جميع الموجودات في ذلك الكتاب على التفصيل التام امتنع أيضاً تغييرها وإلزام الكذب فتصير كتابة جملة الأحوال في ذلك الكتاب موجبا تاما وسببا كاملا في أنه يمتنع تقدم ما تأخر وتأخر

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَّ حَتْمُ النَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ يُرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾

ما تقدم كما قال صلوات الله عليه «جف القلم بما هو كائن الى يوم القيامة» والله أعلم .

قوله تعالى ﴿وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جر حتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم اليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾

اعلم أنه تعالى لما بين كمال علمه بالآية الأولى بين كمال قدرته بهذه الآية وهو كونه قادرا على نقل الذوات من الموت الى الحياة ومن النوم الى اليقظة واستقلاله بحفظها في جميع الأحوال وتديرها على أحسن الوجوه حالة النوم واليقظة

فأما قوله ﴿الذى يتوفاكم بالليل﴾ فالمعنى أنه تعالى ينيمكم فيتوفى أنفسكم التي بها تقدرون على الإدراك والتمييز كما قال جل جلاله (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) ، فالله جل جلاله يقبض الأرواح عن التصرف بالنوم كما يقبضها بالموت . وههنا بحث : وهو أن النائم لا شك أنه حي ومتى كان حيا لم تكن روحه مقبوضة البتة ، وإذا كان كذلك لم يصح أن يقال ان الله توفاه فلا بد ههنا من تأويل وهو أن حال النوم تغور الأرواح الحساسة من الظاهر فى الباطن فصارت الحواس الظاهرة معطلة عن أعمالها ، فعند النوم صار ظاهر الجسد معطلا عن بعض الأعمال ، وعند الموت صارت جملة البدن معطلة عن كل الأعمال ، فحصل بين النوم وبين الموت مشابهة من هذا الاعتبار ، فصح إطلاق لفظ الوفاة والموت على النوم من هذا الوجه . ثم قال (ويعلم ما جر حتم بالنهار) يريد ما كسبتم من العمل بالنهار قال تعالى (وما علمتم من الجوارح) والمراد منها الكواكب من الطير والسباع واحداً منها جارحة . وقال تعالى (والذين اجتروا السيئات) أى اكتسبوا . وبالجملة فالمراد منه أعمال الجوارح

ثم قال تعالى ﴿ثم يبعثكم فيه﴾ أى يرد اليكم أرواحكم فى النهار ، والبعث ههنا اليقظة . ثم قال (ليقضى أجل مسمى) أى أعماركم المكتوبة ، وهى قوله (وأجل مسمى عنده) والمعنى يبعثكم من نومكم إلى أن تبلغوا آجالكم ، ومعنى القضاء فصل الأمر على سبيل التمام ، ومعنى قضاء الأجل فصل مدة العمر من غيرها بالموت

وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ
 الْمَوْتَ تُوَفَّقْتَهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرَطُونَ «٦١» ثُمَّ رَدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقِّ الْإِلَهِ
 الْحَكِيمِ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ «٦٢»

واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه ينمهم أولا ثم يوقظهم ثانيا كان ذلك جاريا مجرى الأحياء بعد
 الاماتة، لاجرم استدل بذلك على صحة البعث والقيامة. فقال (ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما
 كنتم تعملون) في ليالكم ونهاركم وفي جميع أحوالكم وأعمالكم
 قوله تعالى ﴿وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته
 رسلنا وهم لا يفرطون ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق الأله الحكيم وهو أسرع الحاسبين﴾
 اعلم أن هذا نوع آخر من الدلائل الدالة على كمال قدرة الله تعالى وكمال حكمته. وتقريره
 انا بينا فيما سبق أنه لا يجوز أن يكون المراد من هذه الآية الفوقية بالمكان والجهة بل يجب أن
 يكون المراد منها الفوقية بالقهر والقدرة، كما يقال أمر فلان فوق أمر فلان بمعنى أنه أعلى وانفذ
 ومنه قوله تعالى (يد الله فوق أيديهم) وما يؤكد أن المراد ذلك أن قوله (وهو القاهر فوق عباده)
 مشعر بأن هذا القهر إنما حصل بسبب هذه الفوقية. والفوقية المفيدة لصفة القهر هي الفوقية
 بالقدرة لا الفوقية بالجهة، إذ المعلوم أن المرتفع في المكان قد يكون مقهورا. وتقرير هذا القهر
 من وجوه: الأول: أنه قهار للعدم بالتكوين والايجاد، والثاني: أنه قهار للوجود بالافناء والافساد
 فانه تعالى هو الذي ينقل الممكن من العدم إلى الوجود تارة ومن الوجود إلى العدم أخرى. فلا
 وجود إلا بايجاده ولا عدم إلا باعدامه في الممكنات. والثالث: أنه قهار لكل ضد بضده فيقهر
 النور بالظلمة والظلمة بالنور، والنهار بالليل والليل بالنهار. وتسام تقريره في قوله (قل اللهم مالك
 الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء)
 وإذا عرفت منهج الكلام. فاعلم أنه بحر لا ساحل له لأن كل مخلوق فله ضد. فالفوق ضده
 التحت، والماضي ضده المستقبل، والنور ضده الظلمة، والحياة ضدها الموت، والقدرة ضدها
 العجز. وتأمل في سائر الأحوال والصفات لتعرف أن حصول التضاد بينها يقضى عليها بالمقهورية
 والعجز والنقصان. وحصول هذه الصفات في الممكنات يدل على أن لها مدبرا قادرا قاهرا «نزهها
 عن الضد والند، مقدسا عن الشبيه والشكل. كما قال (وهو القاهر فوق عباده) والرابع: أن هذا

البدن مؤلف من الطبائع الأربع . وهي متنافرة متباغضة متباعدة بالطبع والخاصة فاجتماعها لا بد وان يكون بقسر قاسر وأخطأ من قال ان ذلك القاسر هو النفس الانسانية ، وهو الذى ذكره ابن سينا فى الاشارات لأن تعلق النفس بالبدن انما يكون بعد حصول المزاج واعتدال الامشاج ، والقاهر لهذه الطبائع على الاجتماع سابق على هذا الاجتماع . والسابق على حصول الاجتماع مغاير للمتأخر عن حصول الاجتماع . فثبت أن القاهر لهذه الطبائع على الاجتماع ليس إلا الله تعالى ، كما قال (وهو القاهر فوق عباده) وأيضا فالجسد كثيف سفلى ظالماني فاسد عفن . والروح لطيف علوى نورانى مشرق باق طاهر نظيف . فبينهما أشد المنافرة والمباعدة . ثم انه سبحانه جمع بينهما على سبيل القهر والقدرة ، وجعل كل واحد منهما مستكماً لصاحبه منتفعاً بالآخر . فالروح تصون البدن عن العفونة والفساد والتفريق . والبدن يصير آلة للروح فى تحصيل السعادات الأبدية ، والمعارف الالهية . فهذا الاجتماع وهذا الانتفاع ليس الا بقهر الله تعالى لهذه الطبائع ، كما قال (وهو القاهر فوق عباده) وأيضا فعند دخول الروح فى الجسد أعطى الروح قدرة على فعل الضدين ، وممكنة من الطرفين إلا أنه يمتنع رجحان الفعل على الترك تارة والترك على الفعل أخرى إلا عند حصول الداعية الجازمة الحالية عن المعارض . فلما لم تحصل تلك الداعية امتنع الفعل والترك فكان إقدام الفاعل على الفعل تارة وعلى الترك أخرى بسبب حصول تلك الداعية فى قلبه من الله يجرى مجرى القهر فكان قاهراً لعباده من هذه الجهة ، واذا تأملت هذه الأبواب علمت ان الممكنات والمبدعات والعلويات والسفليات والذوات والصفات كلها مقهورة تحت قهر الله مسخرة تحت تسخير الله تعالى . كما قال (وهو القاهر فوق عباده)

وأما قوله تعالى ﴿ويرسل عليكم حفظة﴾ فالمراد أن من جملة قهره لعباده ارسال الحفظة عليهم وهؤلاء الحفظة هم المشار اليهم بقوله تعالى (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) وقوله (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) وقوله (وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين) واتفقوا على أن المقصود من حضور هؤلاء الحفظة ضبط الأعمال . ثم اختلفوا فمنهم من يقول : إنهم يكتبون الطاعات والمعاصى والمباحات بأسرها بدليل قوله تعالى (ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن مع كل إنسان ملكين : أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، فاذا تكلم الانسان بحسنة كتبها من على اليمين ، واذا تكلم بسئنة قال من على اليمين لمن على اليسار انتظره لعله يتوب منها ، فان لم يتب كتب عليه . والقول الأول : أقوى لأن قوله تعالى (ويرسل عليكم حفظة) يفيد حفظة الكل من غير تخصيص

﴿والبحث الثاني﴾ أن ظاهر هذه الآيات يدل على أن اطلاع هؤلاء الحفظة على الأقوال والأفعال ، أما على صفات القلوب وهى العلم والجهل فليس فى هذه الآيات ما يدل على اطلاعهم عليها . أما فى الأقوال ، فلقوله تعالى (ما يلفظ من قوله إلا لده رقيب عتيد) وأما فى الأعمال فلقوله تعالى (وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون) فأما الايمان والكفر والاخلاص والاشراك فلم يدل الدليل على اطلاع الملائكة عليها .

﴿البحث الثالث﴾ ذكروا فى فائدة جعل الملائكة موكلين على بنى آدم وجوها : الأول : أن المكلف إذا علم أن الملائكة موكلون به يحصون عليه أعماله ويكتبونها فى صحائف تعرض على رؤس الأشهاد فى مواقف القيامة كان ذلك أزرجه عن القبائح . الثانى : يَحْتَمَلُ فى الكتابة أن يكون الفائدة فيها أن توزن تلك الصحائف يوم القيامة لأن وزن الأعمال غير ممكن . أما وزن الصحائف فممكن الثالث : يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد . ويجب علينا الايمان بكل ماورد به "الشرع سواء عقننا الوجه فيه أولم نعقل ، فهذا حاصل ما قاله أهل الشريعة وأما أهل الحكمة فقد اختلفت أقوالهم فى هذا الباب على وجوه :

﴿الوجه الأول﴾ قال المتأخرون منهم (وهو القاهر فوق عباده) ومن جملة ذلك القهر أنه خلط الطبائع المتضادة ومزج بين العناصر المتنافرة . فلما حصل بينها امتزاج استعد ذلك الممتزج بسبب ذلك الامتزاج لقبول النفس المدبرة والقوى الحسية والحركية والنطقية فقالوا المراد من قوله (ويرسل عليكم حفظة) تلك النفوس والقوى . فانها هى التى تحفظ تلك الطبائع المقهورة على امتزاجاتها .

﴿والوجه الثانى﴾ وهو قول بعض القدماء أن هذه النفوس البشرية والارواح الانسانية مختلفة بجواهرها متباينة بما هيئاتها ، فبعضها خيرة وبعضها شريرة وكذا القول فى الذكاء و"بلادة والحرية والندالة والشرف والدناءة وغيرها من الصفات ولكل طائفة من هذه الأرواح السفلية روح سماوى هو لها كالأب الشفيق والسيد الرحيم يعينها على مهماتها فى يقظاتها ومناماتها تارة على سبيل الرؤيا ، وأخرى على سبيل الالهامات فالأرواح الشريرة لها مبادئ من عالم الأفلاك . وكذا الأرواح الخيرة وتلك المبادئ تسمى فى مصطلحهم بالطباع التام يعنى تلك الأرواح الفلكية فى تلك الطبائع والأخلاق تامة كاملة . وهذه الأرواح السفلية المتولدة منها أضعف منها لأن المعلول فى كل باب أضعف من علته ولأصحاب الطلسمات والعزائم الروحانية فى هذا الباب كلام كثير .

﴿والقول الثالث﴾ النفس المتعلقة بهذا الجسد . لاشك فى أن النفوس المفارقة عن الأجساد

لما كانت مساوية لهذه في الطبيعة والماهية فتلك النفوس المفارقة تميل إلى هذه النفس بسبب ما بينهما من المشاكلة والموافقة وهي أيضاً تتعلق بوجه ما بهذا البدن وتصير معاونة لهذه النفس على مقتضيات طبيعتها فثبت بهذه الوجوه الثلاثة أن الذي جاءت الشريعة الحقة به ليس للفلاسفة أن يمتنعوا عنها لأن كلهم قد أقروا بما يقرب منه وإذا كان الأمر كذلك كان إصرار الجهال منهم على التكذيب باطلا والله أعلم .

أما قوله تعالى ﴿ حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا ﴾ فهنا بحثان :

﴿ البحث الأول ﴾ أنه تعالى قال (الله يتوفى الأنفس حين موتها) وقال (الذي خلق الموت والحياة) فهذان النصان يدلان على أن توفى الأرواح ليس إلا من الله تعالى . ثم قال (قل يتوفاكم ملك الموت) وهذا يقتضى أن الوفاة لا تحصل إلا من ملك الموت . ثم قال في هذه الآية (توفته رسلنا) فهذه النصوص الثلاثة كالمتنافضة .

والجواب : أن التوفى في الحقيقة يحصل بقدره الله تعالى ، وهو في عالم الظاهر مفوض إلى ملك الموت ، وهو الرئيس المطاق في هذا الباب ، وله أعوان وخدم وأنصار ، فحسنت إضافة التوفى إلى هذه الثلاثة بحسب الاعتبار الثلاثة والله أعلم .

﴿ البحث الثاني ﴾ من الناس من قال : هؤلاء الرسل الذين بهم تحصل الوفاة ، وهم أعيان أولئك الحفظة فهم في مدة الحياة يحفظونهم من أمر الله ، وعند مجيء الموت يتوفونهم ، والأكثر أن الذين يتولون الحفظ غير الذين يتولون أمر الوفاة ، ولا دلالة في لفظ الآية تدل على الفرق ، إلا أن الذي مال إليه الأكثر هو القول الثاني ، وأيضا فقد ثبت بالمقاييس العقلية أن الملائكة الذين هم معادن الرحمة والخير والراحة معايرون للذين هم أصول الحزن والغم فطائفة من الملائكة هم المسمون بالروحانيين لافادتهم الروح والراحة والريحان ، وبعضهم يسمون بالكرويين لكونهم مبادئ الكرب والغم والأحزان .

﴿ البحث الثالث ﴾ الظاهر من قوله تعالى (قل يتوفاكم ملك الموت) أنه ملك واحد هو رئيس الملائكة الموكلين بقبض الأرواح ، والمراد بالحفظة المذكورين في هذه الآية : أتباعه ، وأشياعه عن مجاهد : جعل الأرض مثل الطست لملك الموت يتناول من يتناوله ، وما من أهل بيت إلا ويطوف عليهم في كل يوم مرتين ، وجاء في الأخبار من صفات ملك الموت ومن كيفية موته عند فناء الدنيا وانقضائها أحوال عجيبة .

﴿ والبحث الرابع ﴾ قرأ حمزة : توفاه بالالف ممالة والباقون بالتاء ، فالأول لتقديم الفعل ،

ولأن الجمع قد يذكر . والثاني على تأنيث الجمع .

أما قوله تعالى ﴿وهم لا يفرطون﴾ أى لا يقصرون فيما أمرهم الله تعالى به ، وهذا يدل على أن الملائكة الموكلين بقبض الأرواح لا يقصرون فيما أمروا به . وقوله فى صفة ملائكة النار (لا يعصون الله ما أمرهم) يدل على أن ملائكة العذاب لا يقصرون فى تلك التكليف . وكل من أثبت عصمة الملائكة فى هذه الأحوال أثبت عصمتهم على الإطلاق . فدلّت هذه الآية على ثبوت عصمة الملائكة على الإطلاق . أما قوله تعالى (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق) ففيه مباحث : الأول : قيل المرادون هم الملائكة يعنى كما يموت بنو آدم يموت أئمتنا أولئك الملائكة . وقيل : بل المرادون البشر ، يعنى أنهم بعد موتهم يردون إلى الله . واعلم أن هذه الآية من أدلّ الدلائل على أن الانسان ليس عبارة عن مجرد هذه البنية . لأن صريح هذه الآية يدل على حصول الموت للعبد ويدل على أنه بعد الموت يرد إلى الله . والميت مع كونه ميتا لا يمكن أن يرد إلى الله لأن ذلك الرد ليس بالمكان والجهة ، لكونه تعالى متعاليا عن المكان والجهة . بل يجب أن يكون ذلك الرد مفسرا بكونه منقادا لحكم الله مطيعا لقضاء الله . وما لم يكن حيا لم يصح هذا المعنى فيه . فثبت انه حصل ههنا موت وحياتا اما الموت ، فنصيب البدن : فبقى أن تكون الحياة نصيبا للنفس والروح ولما قال تعالى (ثم ردوا إلى الله) وثبت ان المراد وهو النفس والروح . ثبت ان الانسان ليس إلا النفس والروح ، وهو المطلوب .

واعلم أن قوله (ثم ردوا إلى الله) يشعر بكون الروح موجودة قبل البدن . لأن الرد من هذا العالم إلى حضرة الجلال : إنما يكون لو أنها كانت موجودة قبل التعلق بالبدن ، ونظيره قوله تعالى (ارجعنى إلى ربك) وقوله (اليه مرجعكم جميعا) ونقل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «خاق الله الأرواح قبل الاجساد بألفى عام» وحجة الفلاسفة على اثبات ان النفوس البشرية غير موجودة قبل وجود البدن . حجة ضعيفة يدنا ضعفها فى الكتب العقلية .

﴿البحث الثانى﴾ كلمة «إلى» تفيد انتهاء الغاية فقوله إلى الله يشعر باثبات المكان والجهة لله تعالى وذلك باطل فوجب حمله على أنهم ردوا إلى حيث لا مالك ولا حاكم سواه .

﴿البحث الثالث﴾ انه تعالى سمي نفسه فى هذه الآية باسمين : أحدهما المولى : وقد عرفت ان لفظ المولى ، ولفظ المولى مشتقان من المولى : أى القرب . وهو سبحانه القريب البعيد الظاهر الباطن لقوله تعالى (ونحن أقرب اليه من حبل الوريد) وقوله (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) وأيضا المعتق يسمى بالمولى ، وذلك كالمشعر بأنه أعتقهم من العذاب . وهو المراد من قوله (سبقت

رحمتي غضبي) وأيضا أضاف نفسه إلى العبد فقال (مولاهم الحق) وما أضافهم إلى نفسه وذلك نهاية الرحمة ، وأيضا قال : مولاهم الحق ، والمعنى أنهم كانوا في الدنيا تحت تصرفات المولى الباطلة وهى النفس والشهوة والغضب كما قال (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) فلما مات الانسان تخلص من تصرفات المولى الباطلة ، وانتقل إلى تصرفات المولى الحق .

﴿والاسم الثانى الحق﴾ واختلفوا هل هو من أسماء الله تعالى . فقيل : الحق مصدر . وهو تمييز الباطل ، وأسماء المصادر لا تجرى على الفاعلين إلا مجازا كقولنا فلان عدل ورجاء وغيث وكرم وفضل ، ويمكن أن يقال : الحق هو الموجود وأحق الأشياء بالموجودية هو الله سبحانه لكونه واجبا لذاته ، فكان أحق الأشياء بكونه حقا هو هو ، واعلم أنه قرىء الحق بالنصب على المدح كقولك الحمد لله الحق .

أما قوله ﴿ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾ ففيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قوله (ألا له الحكم) معناه أنه لا حكم إلا لله . ويتأكد ذلك بقوله (إن الحكم إلا لله ، وذلك يوجب أنه لا حكم لأحد على شيء إلا الله ، وذلك يوجب أن الخير والشر كله بحكم الله وقضائه ، فلولا أن الله حكم للسعيد بالسعادة والشقي بالشقاوة ، والألما حصل ذلك

﴿المسألة الثانية﴾ قال أصحابنا هذه الآية تدل على أن الطاعة لا توجب الثواب والمعصية لا توجب العقاب ، إذ لو ثبت ذلك لثبت للمطيع على الله حكم ، وهو أخذ الثواب ، وذلك ينافى مادلت الآية عليه أنه لا حكم إلا لله .

﴿المسألة الثالثة﴾ احتج الجبائى بهذه الآية على حدوث كلام الله تعالى . قال لو كان كلامه قديما لوجب أن يكون متكلما بالحاسبة . الآن : وقبل خلقه ، وذلك محال لأن المحاسبة تقتضى حكاية عمل تقدم وأصحابنا عارضوه بالعلم ، فانه تعالى كان قبل الخلق عالما بأنه سيوجد ، وبعد وجوده صار عالما بأنه قبل ذلك وجد ، فلم يلزم منه تغير العلم . فلم لا يجوز مثله فى الكلام . والله أعلم

﴿المسألة الرابعة﴾ اختلفوا فى كيفية هذا الحساب ، فمنهم من قال : انه تعالى يحاسب الخلق بنفسه دفعة واحدة ، لا يشغله كلام عن كلام ، ومنهم من قال بل يأمر الملائكة حتى إن كل واحد من الملائكة يحاسب واحدا من العباد . لأنه تعالى لو حاسب الكفار بنفسه لتكلم معهم ، وذلك باطل لقوله تعالى فى صفة الكفار ، ولا يكلمهم . وأما الحكماء فلهم كلام فى تفسير هذا الحساب ، وهو انه إنما يتخلص بتقديم مقدمتين .

﴿فالمقدمة الأولى﴾ ان كثرة الافعال وتكررها توجب حدوث الملكات الراسخة القوية الثابتة والاستقراء التام يكشف عن صحة ما ذكرناه . ألا ترى أن كل من كانت مواظبته على عمل من

الأعمال أكثر كان رسوخ الملكة التامة على ذلك العمل منه فيه أقوى
 ﴿المقدمة الثانية﴾ انه لما كان تكرر العمل يوجب حصول الملكة الراضحة ، ووجب أن يكون
 لكل واحد من تلك الأعمال أثر في حصول تلك الملكة ، بل كان يجب أن يكون لكل جزء من أجزاء
 العمل الواحد أثر بوجه ما في حصول تلك الملكة ، والعقلاء ضربوا لهذا الباب أمثلة
 ﴿المثال الأول﴾ انالو فرضنا سفينة عظيمة بحيث لو ألقى فيها مائة ألف من فانها تغوص في
 الماء بقدر شبر واحد ، فلو لم يلق فيها الاحبة واحدة من الحنطة ، فهذا القدر من القاء الجسم الثقيل
 في تلك السفينة يوجب غوصها في الماء بمقدار قليل ، وان قلت وبلغت في القلة إلى حيث لا يدركها
 الحس ولا يضبطها الخيال

﴿المثال الثاني﴾ أنه ثبت عند الحكماء أن البسائط اشكالها الطبيعية كرات فسطح الماء يجب
 أن يكون كرة والقسي المشابهة من الدوائر المحيطة بالمركز الواحد متفاوتة ، فان تحذب القوس
 الحاصل من الدائرة العظمى يكون أقل من تحذب القوس المشابهة للأولى من الدائرة الصغرى
 وإذا كان الأمر كذلك فالكوز إذا ملئ من الماء ، ووضع تحت الجبل كانت حذبة سطح ذلك
 الماء أعظم من حذبه عند ما يوضع الكوز فوق الجبل ، ومتى كانت الحذبة أعظم وأكثر كان احتمال
 الماء بالكوز أكثر ، فهذا يوجب أن احتمال الكوز للماء حال كونه تحت الجبل أكثر من احتمال
 للماء حال كونه فوق الجبل ، إلا أن هذا القدر من التفاوت بحيث لا يفي بأدراكه الحس والخيال
 لكونه في غاية القلة

﴿والمثال الثالث﴾ ان الانسانين اللذين يقف أحدهما بالقرب من الآخر ، فان رجلاه ما يكونان
 أقرب إلى مركز العالم من رأسيهما ، لأن الاجرام الثقيلة تنزل من فضاء المحيط إلى ضيق المركز ، إلا أن
 ذلك القدر من التفاوت لا يفي بأدراكه الحس والخيال

فاذا عرفت هذه الأمثلة : وعرفت أن كثرة الأفعال توجب حصول الملكات فنقول : لا فعل
 من أفعال الخير والشر بقليل ولا كثير ، إلا ويفيد حصول أثر في النفس . إما في السعادة ، وإما في
 الشقاوة ، وعند هذا ينكشف بهذا البرهان القاطع صحة قوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره
 ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) ولما ثبت أن الأفعال توجب حصول الملكات والأفعال الصادرة
 من اليد ، فهي المؤثرة في حصول الملكة المخصوصة ، وكذلك الأفعال الصادرة من الرجل ، فلا جرم
 تكون الأيدي والأرجل شاهدة يوم القيامة على الانسان ، بمعنى أن تلك الآثار النفسانية ، إنما
 حصلت في جواهر النفوس بواسطة هذه الأفعال الصادرة عن هذه الجوارح ، فكان صدور تلك

قُلْ مَنْ يَنْجِيكُمْ مِنَ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَأَنَّا بِنَا
 مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ «٦٣» قُلِ اللَّهُ يَنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمَنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ
 أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ «٦٤»

الأفعال من تلك الجارحة المخصوصة جارياً مجرى الشهادة لحصول تلك الآثار المخصوصة في جوهر النفس ، وأما الحساب : فالمقصود منه معرفة ما بقى من الدخل والخرج ، ولما بينا أن لكل ذرة من أعمال الخير والشر أثراً في حصول هيئة من هذه الهيئات في جوهر النفس ، إما من الهيئات الزاكية الطاهرة أو من الهيئات المذمومة الخسيسة ، ولا شك أن تلك الأعمال كانت مخلقة . فلا جرم كان بعضها يتعارض بالبعض ، وبعده حصول تلك المعارضات بقى في النفس قدر مخصوص من الخلق الحميد ، وقدر آخر من الخلق الذميمة ، فإذا مات الجسد ظهر مقدار ذلك الخلق الحميد ، ومقدار ذلك الخلق الذميمة ، وذلك الظهور إنما يحصل في الآن الذي لا ينقسم ، وهو الآن الذي فيه ينقطع تعلق النفس من البدن ، فعبّر عن هذه الحالة بسرعة الحساب . فهذه أقوال ذكرت في تطبيق الحكمة النبوية على الحكمة الفلسفية ، والله العالم بحقائق الأمور .

قوله تعالى ﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون ﴾
 اعلم أن هذا نوع آخر من الدلائل الدالة على كمال القدرة الإلهية ، وكمال الرحمة والفضل والاحسان . وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ عاصم وحمة والكسائي (قل من ينجيكم) بالشديد في الكلمتين ، والباقون بالتخفيف . قال الواحدي : والشديد والتخفيف لغتان منقولتان من نجا ، فإن شئت نقلت بالهمزة ، وإن شئت نقلت بتضعيف العين : مثل : أفرحته وفرحته ، وأغرمته وغرمته ، وفي القرآن (فأنجيناهم والذين معه) وفي آية أخرى (ونجيناهم الذين آمنوا) ولما جاء التنزيل باللغتين معا ظهر استواء القراءتين في الحسن ، غير أن الاختيار بالشديد . لأن ذلك من الله كان غير مرة ، وأيضاً قرأ عاصم في رواية أبي بكر خفية بكسر الخاء والباقون بالضم ، وهما لغتان ، وعلى هذا الاختلاف في سورة الأعراف ، وعن الأخص في خفية وخفية أنهما لغتان ، وأيضاً الخفية من الإخفاء ،

والخيفة من الرهب ، وأيضاً (لئن أنجيتنا) من هذه . قرأ عاصم وحمزة والكسائي (لئن أنجانا) على
على المغايبة ، والباقون (لئن أنجيتنا) على الخطاب . فأما الأولون : وهم الذين قرؤوا على المغايبة ،
فقد اختلفوا . قرأ عاصم بالتفخيم ، والباقون بالأمانة . وحجة من قرأ على المغايبة أن ما قبل هذا
اللفظ ، وما بعده مذكور بلفظ المغايبة . فأما ما قبله فقوله (تدعونه) وأما ما بعده فقوله (قل الله
ينجيكم منها) وأيضاً فالقراءة بلفظ الخطاب توجب الاضمار ، والتقدير : يقولون لئن أنجيتنا ،
والاضمار خلاف الاصل . وحجة من قرأ على المخاطبة قوله تعالى في آية أخرى (لئن أنجيتنا من
هذه لنكونن من الشاكرين)

﴿المسألة الثانية﴾ (ظلمات البر والبحر) مجاز عن مخاوفهما وأهوالهما . يقال : لليوم الشديد يوم
مظلم . ويوم ذو كواكب أى اشتدت ظلمته حتى عادت كالليل . وحقيقة الكلام فيه أنه يشتد الأمر
عليه ، ويشدبه عليه كيفية الخروج ، ويظلم عليه طريق الخلاص . ومنهم من حملة على حقيقة فقال :
أما ظلمات البحر فهى أن تجتمع ظلمة الليل . وظلمة البحر وظلمة السحاب ، ويضاف الرياح الصعبة
والأمواج الهائلة إليها . فلم يعرفوا كيفية الخلاص وعظم الخوف . وأما ظلمات البر فهى ظلمة
الليل وظلمة السحاب والخوف الشديد من هجوم الأعداء ، والخوف الشديد من عدم الاهتداء إلى
طريق الصواب ، والمقصود أن عند اجتماع هذه الأسباب الموجبة للخوف الشديد لا يرجع الانسان
إلا إلى الله تعالى . وهذا الرجوع يحصل ظاهراً وباطناً . لأن الانسان فى هذه الحالة يعظم إخلاصه
فى حضرة الله تعالى ، وينقطع رجأؤه عن كل ماسوى الله تعالى ، وهو المراد من قوله (تضرعا
وخفية) فبين تعالى أنه إذا شهدت الفطرة السليمة والحلقة الأصلية فى هذه الحالة أنه لا ملجأ
إلا إلى الله ، ولا تعويل إلا على فضل الله . ووجب أن يبقى هذا الاخلاص عند كل الأحوال
والأوقات ، لكنه ليس كذلك ، فان الانسان بعد الفوز بالسلامة والنجاة . يحيل تلك السلامة إلى
الأسباب الجسمانية ، ويقدم على الشرك ، ومن المفسرين من يقول : المقصود من هذه الآية الطعن
فى إلهية الأصنام والأوثان ، وأنا أقول : التعلق بشئ مما سوى الله فى طريق العبودية يقرب من
أن يكون تعلقاً بالوثن ، فان أهل التحقيق يسمونه بالشرك الخفى . ولفظ الآية يدل على أن عند
حصول هذه الشدائد يأتى الانسان بأمر : أحدها : الدعاء . وثانيها : التضرع . وثالثها : الاخلاص
بالقلب ، وهو المراد من قوله (وخفية) ورابعها : التزام الاشتغال بالشكر . وهو المراد من قوله
(لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين) ثم بين تعالى أنه ينجيهم من تلك المخاوف . ومن
سائر موجبات الخوف والكرب . ثم إن ذلك الانسان يقدم على الشرك ، ونظير هذه الآية قوله

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ
 أَرْجَالِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ
 الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ «٦٥»

(ضل من تدعون إلا إياه) وقوله (وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين) وبالجملة فعادة أكثر الخلق ذلك . إذا شاهدوا الأمر الهائل أخلصوا ، وإذا انتقلوا إلى الأمن والرفاهية أشر كوا به .

قوله تعالى ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون﴾
 في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن هذا نوع آخر من دلائل التوحيد وهو مزوج بنوع من التخويف فبين كونه تعالى قادراً على إيصال العذاب إليهم من هذه الطرق المختلفة ، وأما إرسال العذاب عليهم تارة من فوقهم ، وتارة من تحت أرجلهم ففيه قولان : الأول : حمل اللفظ على حقيقته فنقول : العذاب النازل عليهم من فوق مثل المطر النازل عليهم من فوق . كما في قصة نوح والصاعقة النازلة عليهم من فوق . وكذا الصيحة النازلة عليهم من فوق . كما حصب قوم لوط . وكما رمى أصحاب القيل ، وأما العذاب الذي ظهر من تحت أرجلهم . فمثل الرجفة ، ومثل خسف قارون . وقيل : هو حبس المطر والنبات وبالجملة فهذه الآية تتناول جميع أنواع العذاب التي يمكن نزولها من فوق ، وظهورها من أسفل .

﴿القول الثاني﴾ أن يحمل هذا اللفظ على مجازة . قال ابن عباس : في رواية عن عكرمة عذاباً من فوقكم أي من الامراء . ومن تحت أرجلكم من العبيد والسفلة . أما قوله (أو يلبسكم شيعاً) فاعلم أن الشيع جمع الشيعة . وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة والجمع شيع وأشباع . قال تعالى (كما فعل بأشباعهم من قبل) وأصله من الشيع وهو التبعية ، ومعنى الشيعة الذين يتبع بعضهم بعضاً . قال الزجاج قوله (يلبسكم شيعاً) يخلط امرئكم خلط اضطراب لا خلط اتفاق ، فيجعلكم فرقا ولا تكونون فرقة واحدة . فاذا كنتم مختلفين قاتل بعضكم بعضاً وهو معنى قوله (ويذيق بعضكم بأس بعض) عن ابن عباس رضي الله عنهما : لما نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية شق ذلك على الرسول عليه

وَكَذَّبَ بِهٖ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ «٦٦» لِكُلِّ نَبَأٍ

مُسْتَقَرٍّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ «٦٧»

الصلاة والسلام وقال «ما بقاء أمتي إن عوملوا بذلك» فقال له جبريل : إنما أنا عبد مثلك فادع ربك لأمتك ، فسأل ربه أن لا يفعل بهم ذلك . فقال جبريل : ان الله قد امنهم من خصلتين أن لا يبعث عليهم عذابا من فوقهم كما بعثه على قوم نوح ولوط . ولا من تحت أرجلهم كما خسف بقارون ولم يجرم من أن يلبسهم شيئا بالاهواء المختلفة ويذيق بعضهم بأس بعض بالسيف . وعن النبي صلى الله عليه وسلم «إن أمتي ستفترق على ثنتين وسبعين فرقة الناجية فرقة» وفي رواية أخرى كلهم في الجنة إلا الزنادقة .

﴿المسألة الثانية﴾ ظاهر قوله (أو يلبسكم شيئا) هو أنه تعالى يحملهم على الاهواء المختلفة والمذاهب المتنافية . وظاهر أن الحق منها ليس إلا الواحد . وما سواه فهو باطل فهذا يقتضى أنه تعالى قد يحمل المكلف على الاعتقاد الباطل وقوله (ويذيق بعضكم بأس بعض) لا شك أن أكثرها ظلم ومعصية ، فهذا يدل على كونه تعالى خالقا للخير والشر . أجاب الخصم عنه بأن الآية تدل على أن الله تعالى قادر عليه وعندنا الله قادر على القبيح . إنما النزاع في أنه تعالى هل يفعل ذلك أم لا ؟ والجواب : أن وجه التمسك بالآية شيء آخر فانه قال (هو القادر) على ذلك وهذا يفيد أحصر فوجب أن يكون غير الله غير قادر على ذلك وهذا الاختلاف بين الناس حاصل وثبت بمقتضى الحصر المذكور أن لا يكون ذلك صادرا عن غير الله فوجب أن يكون صادرا عن الله وذلك يفيد المطلوب .

﴿المسألة الثالثة﴾ قالت المقلدة والحشوية : هذه الآية من أدل الدلائل على المنع من النظر والاستدلال ، وذلك لأن فتح تلك الابواب يفيد وقوع الاختلاف والمنازعة في الأديان وتفرق الخلق الى المذاهب والأديان وذلك مذموم بحكم هذه الآية . والمفضى الى المذموم مذموم . فوجب أن يكون فتح باب النظر والاستدلال في الدين مذموما وجوابه سهل والله أعلم .

ثم قال تعالى في آخر الآية (انظر كيف نصرف الآيات لعلمهم يفقهون) قال القاضي : هذا يدل على أنه تعالى أراد بتصريف هذه الآيات وتقرير هذه البيئات . أن يفهم الكل تلك الدلائل ويفقه الكل تلك البيئات . وجوابنا : بل ظاهر الآية يدل على أنه تعالى ما صرف هذه الآيات إلا لمن فقه وفهم ، فأما من أعرض وتمرد فهو تعالى ما صرف هذه الآيات لهم والله أعلم .

قوله تعالى «وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل لكل نأ مستقر وسوف تعلمون»

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ «٦٨»

الضمير في قوله (وكذب به) إلى ماذا يرجع فيه أقوال : الأول : أنه راجع إلى العذاب المذكور في الآية السابقة (وهو الحق) أى لا بد وأن ينزل بهم . الثانى : الضمير فى «به» للقرآن وهو الحق أى فى كونه كتاباً منزلاً من عند الله . الثالث : يعود إلى تصريح الآيات وهو الحق لأنهم كذبوا كون هذه الأشياء دلالات ، ثم قال (قل لست عليكم بوكيل) أى لست عليكم بحافظ حتى أجازيكم على تكذيبكم واعراضكم عن قبول الدلائل . انما أنا منذر والله هو المجازى لكم بأعمالكم قال ابن عباس والمفسرون : نسخها آية القتال وهو بعيد ، ثم قال تعالى (لكل نبأ مستقر) والمستقر يجوز أن يكون موضع الاستقرار ، ويجوز أن يكون نفس الاستقرار لأن ما زاد على الثلاثى كان المصدر منه على زنة اسم المفعول نحو المدخل والمخرج ، بمعنى الإدخال والإخراج ، والمعنى : أن لكل خبر يخبره الله تعالى وقتاً أو مكاناً يحصل فيه من غير خلف ولا تأخير وان جعلت المستقر بمعنى الاستقرار ، كان المعنى لكل وعد ووعد من الله تعالى استقرار ولا بد أن يعلموا أن الأمر كما أخبر الله تعالى عنه عند ظهوره ونزوله . وهذا الذى خوف الكفار به ، يجوز أن يكون المراد منه عذاب الآخرة ، ويجوز أن يكون المراد منه استيلاء المسلمين على الكفار بالحرب والقتل والقهر فى الدنيا .

قوله تعالى «وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين»

اعلم أنه تعالى قال فى الآية الأولى (وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل) فبين به أن الذين يكذبون بهذا الدين فانه لا يجب على الرسول أن يلازمهم وأن يكون حفيظاً عليهم ثم بين فى هذه الآية أن أولئك المكذبين إن ضموا إلى كفرهم وتكذيبهم الاستهزاء بالدين والطعن فى الرسول فانه يجب الاحتراز عن مقارنتهم وترك مجالستهم ، وفى الآية مسائل :

«المسألة الأولى» قوله (وإذا رأيت) قيل إنه خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره ،

وقيل: الخطاب لغيره أي إذا رأيت أيها السامع الذين يخوضون في آياتنا. ونقل الواحدى أن المشركين كانوا إذا جالسوا المؤمنين وقعوا في رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن. فشتوا واستهزؤا فأمرهم أن لا يقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره. ولفظ الخوض في اللغة عبارة عن المفاوضة على وجه العبث واللعب. قال تعالى حكاية عن الكفار (وكنا نخوض مع الخائضين) وإذا سئل الرجل عن قوم فقال: تركتهم يخوضون أفاد ذلك أنهم شرعوا في كلمات لا ينبغي ذكرها ومن الحشوية من تمسك بهذه الآية في النهي عن الاستدلال والمناظرة في ذات الله تعالى وصفاته. قال: لأن ذلك خوض في آيات الله، والخوض في آيات الله حرام بدليل هذه الآية، والجواب عنه: انا نقلنا عن المفسرين أن المراد من «الخوض» الشروع في آيات الله تعالى على سبيل الطعن والاستهزاء. وبينا أيضا أن لفظ «الخوض» وضع في أصل اللغة لهذا المعنى فسقط هذا الاستدلال والله أعلم

﴿المسألة الثانية﴾ قرأ ابن عامر (بنسبك) بالتشديد وفعل وأفعل بجران مجرى واحد كما بينا ذلك في مواضع. وفي التنزيل (فمهل الكافرين أمهلهم رويدا) والاختيار قراءة العامة لقوله تعالى (وما أنسانيه إلا الشيطان) ومعنى الآية: إن نسيت وقعدت فلا تقعد بعد الذكري. وقم إذا ذكرت. والذكري اسم للتذكرة قاله الليث. وقال الفراء: الذكري يكون بمعنى الذكر. وقوله (مع القوم الظالمين) يعنى مع المشركين.

﴿المسألة الثالثة﴾ قوله تعالى (فأعرض عنهم) وهذا الاعراض يحتمل أن يحصل بالقيام عنهم ويحتمل بغيره. فلما قال بعد ذلك (فلا تقعد بعد الذكري) صار ذلك دليلا على أن المراد أن يعرض عنهم بالقيام من عندهم وههنا سوالات:

﴿السؤال الأول﴾ هل يجوز هذا الاعراض بطريق آخر سوى القيام عنهم؟ والجواب: الذين يتمسكوا بظواهر الألفاظ ويزعمون وجوب إجرائها على ظواهرها لا يجوزون ذلك، والذين يقولون المعنى هو المعتبر جوزوا ذلك قالوا: لأن المطلوب إظهار الإنكار. فبكل طريق أفاد هذا المقصود فانه يجوز المصير إليه.

﴿السؤال الثاني﴾ لو خاف الرسول من القيام عنهم. هل يجب عليه القيام مع ذلك؟ الجواب: كل ما أوجب على الرسول فعله وجب عليه ذلك سواء ظهر أثر الخوف أو لم يظهر فانا إن جوزنا منه ترك الواجب بسبب الخوف. سقط الاعتماد عن التكليف التي بلغها لنا أما غير الرسول فانه عند شدة الخوف قد يسقط عنه الفرض، لأن إقدامه على الترك لا يفضى إلى المحذور المذكور.

وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حَسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذَكَرْتُمْ لَعَلَّهُمْ
يَتَّقُونَ «٦٩» وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِ
أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَلَ كُلُّ
عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ
أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ «٧٠»

﴿المسألة الرابعة﴾ قوله (وإما ينسبك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى) يفسد أن التكليف
ساقط عن الناسى قال الجبائى : إذا كان عدم العلم بالشىء يوجب سقوط التكليف . فعدم القدرة على
الشيء أولى بأن يوجب سقوط التكليف . وهذا يدل على أن تكليف ما لا يطاق لا يقع ، ويدل على أن
الاستطاعة حاصلة قبل الفعل لأنها لو لم تحصل لإماع الفعل لما كانت حاصلة قبل الفعل . فوجب
أن لا يكون الكافر قادرا على الايمان فوجب أن لا يتوجه عليه الأمر بالايمان . واعلم أن هذه
الكلمات كثر ذكرها فى هذا الكتاب مع الجواب فلا تطول الكلام بذكر الجواب . والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلمهم يتقون ﴾
قال ابن عباس : قال المسلمون لئن كنا كلما استهزأ المشركون بالقرآن وخاضوا فيه قمنا عنهم
لما قدرنا على أن نجلس فى المسجد الحرام وأن نظوف بالبیت ، فنزلت هذه الآية وحصلت الرخصة
فيها للمؤمنين بأن يقعدوا معهم ويذكروهم ويفهمونهم . قال ومعنى الآية (وما على الذين يتقون)
الشرك والكبائر والفواحش (من حسابهم) من آثامهم (من شيء ولكن ذكرى) قال الزجاج : قوله
(ذكرى) يجوز أن يكون فى موضع رفع ، وأن يكون فى موضع نصب . أما كونه فى موضع رفع
فن وجهين : الأول : ولكن عليكم ذكرى أى أن تذكروهم وجائز أن يكون ولكن الذى تأمروهم
به ذكرى ، فعلى الوجه الأول الذكرى بمعنى التذكير ، وعلى الوجه الثانى الذكرى تكون بمعنى الذكر
وأما كونه فى موضع نصب ، فالتقدير ذكروهم ذكرى لعلمهم يتقون . والمعنى لعل ذلك الذكرى يمنعهم
من الخوض فى ذلك الفضول .

قوله تعالى ﴿ وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس

بما كسبت ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أفسدوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴿

اعلم أن هؤلاء هم المذكورون بقوله (الذين يخوضون في آياتنا) ومعنى (ذرحم) أعرض عنهم وليس المراد أن يترك إندارهم لأنه تعالى قال بعده (وذكر به) ونظيره قوله تعالى (أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم) والمراد ترك معاشرتهم وملاطفتهم ولا يترك إندارهم وتخويفهم. واعلم أنه تعالى أمر الرسول بأن يترك من كان موصوفاً بصفيتين :

﴿الصفة الأولى﴾ أن يكون من صفتهم أنهم اتخذوا دينهم لعباً ولهوا وفي تفسيره وجود : الأول : المراد أنهم اتخذوا دينهم الذى كلفوه ودعوا اليه وهودين الاسلام لعباً ولهوا حيث خنروا به واستهزؤا به . الثانى : اتخذوا ماهو لعب ولهو من عبادة الأصنام وغيرها ديناً لهم . الثالث : أن الكفار كانوا يحكمون فى دين الله بمجرد التشبهى والتمنى ، مثل تحريم السواائب والبجائر وما كانوا يحتاطون فى أمر الدين البتة ، ويكتفون فيه بمجرد التقليد فعبّر الله تعالى عنهم بأنهم اتخذوا دينهم لعباً ولهوا . والرابع : قال ابن عباس جعل الله لكل قوم عيداً يعظمونه ويصاون فيه ويعمرونه بذكر الله تعالى . ثم إن الناس أكثرهم من المشركين ، وأهل الكتاب اتخذوا عيدهم لهواً ولعباً غير المسلمين فانهم اتخذوا عيدهم كما شرعه الله تعالى . والخامس : وهو الأقرب . أن المحقق فى الدين هو الذى ينصر الدين لأجل أنه قام الدليل على أنه حق وصدق وصواب . فأما الذين ينصرونه ليتوسلوا به إلى أخذ المناصب والرياسة وغلبة الخصم وجمع الأموال فهم نصروا الدين للدنيا . وقد حكم الله على الدنيا فى سائر الآيات بأنها لعب ولهو . فالمراد من قوله (وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهوا) هو الإشارة إلى من يتوسل بدينه إلى دنياه . وإذا تأملت فى حال أكثر الخلق وجدتهم موصوفين بهذه الصفة وداخلين تحت هذه الحالة . والله أعلم .

﴿الصفة الثانية﴾ قوله تعالى (وغرتهم الحياة الدنيا) وهذا يؤكد الوجه الخامس الذى ذكرناه كأنه تعالى يقول إنما اتخذوا دينهم لعباً ولهوا لأجل أنهم غرتهم الحياة الدنيا . فلأجل استيلاء حب الدنيا على قلوبهم أعرضوا عن حقيقة الدين واقتصروا على تزيين الظواهر ليتوسلوا بها إلى حطام الدنيا .

إذا عرفت هذا ، فقوله (وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهوا) معناه أعرض عنهم ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم ولا تقم لهم فى نظرك وزنا (وذكر به) واختلفوا فى أن الضمير فى قوله (به) إلى ماذا يعود؟ قيل وذكر بالقرآن وقيل أنه تعالى قال (وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهوا)

قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ

والمراد الذين الذي يجب عليهم أن يتدينوا به ويعتقدوا صحته. فقوله (وذكر به) أى بذلك الدين لأن الضمير يجب عوده إلى أقرب المذكور . والدين أقرب المذكور ، فوجب عود الضمير إليه . أما قوله (أن تبسل نفس بما كسبت) فقال صاحب الكشاف: أصل الابسال المنع ومنه ، هذا عليك بسل أى حرام محظور ، والباسل الشجاع لامتناعه من خصمه ، وأولآنه شديد البسور ، يقال بسر الرجل إذا اشتد عبوسه ، وإذا زاد قالوا بسل ، والعباس منقبض الوجه .

إذا عرفت هذا فنقول : قال ابن عباس (تبسل نفس بما كسبت) أى ترتهن فى جهنم بما كسبت فى الدنيا . وقال الحسن ومجاهد : تسلم للمهلكة أى تمنع عن مرادها وتخذل . وقال قتادة : تحبس فى جهنم ، وعن ابن عباس (تبسل) تفضح و(أبسلاوا) فضحوا ، ومعنى الآية وذكرهم بالقرآن ، ومقتضى الدين مخافة احتباسهم فى نار جهنم بسبب جنائياتهم لعلمهم بخافون فيتقون . ثم قال تعالى (ليس لها) أى ليس للنفس (من دون الله ولى ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها) أى وإن تعد كل فداء ، والعدل الفدية لا يؤخذ ذلك العدل وتلك الفدية منها . قال صاحب الكشاف : فاعل يؤخذ ليس هو قوله (عدل) لأن العدل ههنا مصدر ، فلا يسند إليه الأخذ . وأما فى قوله (ولا يؤخذ منها عدل) فبمعنى المفسدى به ، فصح إسناده إليه . فنقول : الأخذ بمعنى القبول وارد . قال تعالى (ويأخذ الصدقات) أى يقبلها . وإذا ثبت هذا فيحمل الأخذ ههنا على القبول ، ويزول السؤال . والله أعلم .

والمقصود من هذه الآية : بيان أن وجوه الخلاص على تلك النفس منسدة ، فلا ولى يتولى دفع ذلك المحذور ، ولا شفيع يشفع فيها ، ولا فدية تقبل ليحصل الخلاص بسبب قبولها حتى لو جعلت الدنيا بأسرها فدية من عذاب الله لم تنفع . فإذا كانت وجوه الخلاص هى هذه الثلاثة فى الدنيا ، وثبت أنها لا تفيد فى الآخرة البتة ، وظهر أنه ليس هناك إلا الابسال الذى هو الارتهان والانغلاق والاستسلام ، فليس لها البتة دافع من عذاب الله تعالى ، وإذا تصور المرء كيفية العقاب على هذا الوجه يكاد يردد إذا أقدم على معاصى الله تعالى . ثم إنه تعالى بين ما به صاروا مرتهنين وعليه محبوسين ، فقال (لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) وذلك هو النهاية فى صفة الابلام . والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله

هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى
الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ فَمَا لَبَسَ اللَّهُ هُدًى وَهُوَ الْهُدَى وَأَمْرًا لِلنَّاسِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ «٧١» وَأَنْ أَقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَاتَّقُوا وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ «٧٢»

كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا للناس لرب العالمين وأن أقيموا الصلاة واتقوه وهو الذي إليه تحشرون ﴿٧١﴾
اعلم أن المقصود من هذه الآية الرد على عبدة الأصنام وهي مؤكدة لقوله تعالى قبل ذلك (قل إني نهيته أن أعبد الذين تدعون من دون الله) فقال (قل أدعوا من دون الله) أي أعبد من دون الله النافع الضار مالا يقدر على نفعنا ولا على ضررنا، ونزد على أعقابنا راجعين إلى الشرك بعد أن أنقذنا الله منه وهدانا للإسلام؟ ويقال لكل من أعرض عن الحق إلى الباطل أنه رجع إل خلف، ورجع على عقبه ورجع القهقري، والسبب فيه أن الأصل في الإنسان هو الجهل، ثم اذا ترقى وتكامل حصل له العلم. قال تعالى (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) فاذا رجع من العلم إلى الجهل مرة أخرى فكأنه رجع إلى أول مرة، فلماذا السبب يقال: فلان رد على عقبه.

وأما قوله ﴿كالذي استهوته الشياطين في الأرض﴾ فاعلم أنه تعالى وصف هذا الانسان بثلاثة أنواع من الصفات:

﴿الصفة الأولى﴾ قوله (استهوته الشياطين) وفيه مسألتان:

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ حمزة (استهواه) بألف مماله على التذكير والباقون بالتاء. لأن الجمع

يصلح أن يذكر على معنى الجمع. ويصلح أن يؤنث على معنى الجماعة.

﴿المسألة الثانية﴾ اختلفوا في اشتقاق (استهوته) على قولين:

﴿القول الأول﴾ أنه مشتق من الهوى في الأرض، وهو النزول من الموضع العالي إلى الوهدة

السافلة العميقة في قعر الأرض، فنسبه الله تعالى حال هذا الضال به وهو قوله (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء) ولاشك أن حال هذا الانسان عند هويته من المكان العالي إلى الوهدة العميقة المظلمة يكون في غاية الاضطراب والضعف والدهشة.

﴿والقول الثاني﴾ أنه مشتق من اتباع الهوى والميل، فإن من كان كذلك فإنه ربما بلغ

النهاية في الحيرة ، والقول الأول أولى ، لأنه أكمل في الدلالة على الدهشة والضعف .

﴿الصفة الثانية﴾ قوله (حيران) قال الأصمعي : يقال حار يحار حيرة وحيرا ، وزاد الفراء حيرانا وحيرورة ، ومعنى الحيرة هي التردد في الأمر بحيث لا يهتدى إلى مخرجه . ومنه يقال : الماء يتحير في الغيم أى يتردد ، وتحيرت الروضة بالماء اذا متلأت فتردد فيها الماء . واعلم أن هذا المثل في غاية الحسن ، وذلك لأن الذى يهوى من المكان العالى إلى الوهدة العميقة يهوى اليها مع الاستدارة على نفسه ، لأن الحجر حال نزوله من الأعلى إلى الأسفل ينزل على الاستدارة ، وذلك يوجب كمال التردد والتحير ، وأيضاً فعند نزوله لا يعرف أنه يسقط على موضع يزداد بلاؤه بسبب سقوطه عليه أو يقل ، فاذا اعتبرت مجموع هذه الأحوال علمت أنك لا تجد مثالا للمتحير المتردد الخائف أحسن ولا أكمل من هذا المثال .

﴿الصفة الثالثة﴾ قوله تعالى (له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا) قالوا نزلت هذه الآية في عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه فإنه كان يدعو أباه إلى الكفر وأبوه كان يدعو إلى الايمان ويأمره بأن يرجع من طريق الجهالة إلى الهداية ومن ظلمة الكفر إلى نور الايمان . وقيل : المراد أن لذلك الكافر الضال أصحابا يدعونه إلى ذلك الضلال ويسمون به بأنه هو الهدى وهذا بعيد . والقول الصحيح هو الأول .

ثم قال تعالى ﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾ يعنى هو الهدى الكامل النافع الشريف كما اذا قلت علم زيد هو العلم وملك عمرو هو الملك كان معناه ما ذكرناه من تقرير أمر الكمال والشرف . ثم قال تعالى ﴿وأمرنا لنسلم لرب العالمين﴾ واعلم أن قوله (إن هدى الله هو الهدى) دخل فيه جميع أقدام المأمورات والاحتراز عن كل المنهيات ، وتقرير الكلام أن كل ما تعلق أمر الله به ، فاما أن يكون من باب الأفعال ، وإما أن يكون من باب التروك .

أما القسم الأول : فاما أن يكون من باب أعمال القلوب وإما أن يكون من باب أفعال الجوارح ، ورئيس أعمال القلوب الايمان بالله والاسلام له ، ورئيس أعمال الجوارح الصلاة ، وأما الذى يكون من باب التروك فهو التقوى وهو عبارة عن الاتقاء عن كل ما لا ينبغي ، والله سبحانه لما بين أولاً أن الهدى النافع هو هدى الله ، أردف ذلك الكلام الكلى بذكر أشرف أقسامه على الترتيب وهو الاسلام الذى هو رئيس الطاعات الروحانية ، والصلاة التى هى رئيسة الطاعات الجسمانية ، والتقوى التى هى رئيسة لباب التروك والاحتراز عن كل ما لا ينبغي ، ثم بين منافع هذه الأعمال فقال (وهو الذى اليه تحشرون) يعنى أن منافع هذه الأعمال انما تظهر في يوم الحشر والبعث والقيامة

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ
الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ
الْخَبِيرُ «٧٣»

فان قيل : كيف حسن عطف قوله (وأن أقيموا الصلاة) على قوله (وأمرنا لنسلم لرب العالمين)؟
قلنا : ذكر الزجاج فيه وجهين : الأول : أن يكون التقدير ، وأمرنا فقيل لنا أسلموا لرب
العالمين وأقيموا الصلاة .

فان قيل : هب أن المراد ما ذكرتم . لكن ما الحكمة في العدول عن هذا اللفظ الظاهر والتركيب
الموافق للعقل إلى ذلك اللفظ الذي لا يهتدى العقل إلى معناه إلا بالتأويل؟

قلنا : وذلك لأن الكافر ما دام يبقى على كفره ، كان كالثابت الأجنبي فلا جرم يخاطب بخطاب
الغائبين ، فيقال له (وأمرنا لنسلم لرب العالمين) وإذا أسلم وآمن ودخل في الإيمان صار كالقريب
الحاضر ، فلا جرم يخاطب بخطاب الحاضرين . ويقال له (وأن أقيموا الصلاة واتقوا وهو الذي
إليه تحشرون) فالقصد من ذكر هذين النوعين من الخطاب التنبيه على الفرق بين حالتي الكافر
والإيمان . وتقريره أن الكافر بعيد غائب والمؤمن قريب حاضر . والله أعلم

قوله تعالى ﴿وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق
وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير﴾

اعلم أنه تعالى لما بين في الآيات المتقدمة فساد طريقة عبدة الأصنام . ذكر ههنا ما يدل على
أنه لا معبود إلا الله وحده وهو هذه الآية ، وذكر فيها أنواعا كثيرة من الدلائل . أولها : قوله
(وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق) أما كونه خالقا للسموات والأرض . فقد شرحنا
في قوله (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض) وأما أنه تعالى خلقهما بالحق فهو نظير لقوله
تعالى في سورة آل عمران (ربنا ما خلقت هذا باطلا) وقوله (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما
للاعبين ما خلقناهما إلا بالحق) وفيه قولان .

﴿القول الأول﴾ وهو قول أهل السنة أنه تعالى مالك لجميع المحدثات مالك لكل الكائنات
وتصرف للمالك في ملكه حسن وصواب على الإطلاق . فكان ذلك التصرف حسنا على الإطلاق
وحقا على الإطلاق

﴿والقول الثانى﴾ وهو قول المعتزلة أن معنى كونه حقا أنه واقع على وفق مصالح المكلفين مطابق لمنافعهم . قال القاضى : ويدخل فى هذه الآية أنه خلق المكلف أولا حتى يمكنه الانتفاع بخالق السموات والأرض ، ولحكاء الاسلام فى هذا الباب طريقة أخرى ، وهى أنه يقال : أودع فى هذه الاجرام العظيمة قوى وخواص يصدر بسببها عنها آثار وحركات مطابقة لمصالح هذا العالم ومنافعه . وثانيها : قوله (ويوم يقول كن فيكون) فى تأويل هذه الآية قولان . الأول : التقدير وهو الذى خالق السموات والأرض وخلق يوم يقول كن فيكون . والمراد من هذا اليوم يوم القيامة ، والمعنى أنه تعالى هو الخالق للعالم ولكل ما فيها من الأفلاك والطبائع والعناصر والخالق ليوم القيامة والبعث وورد الأرواح إلى الاجساد على سبيل كن فيكون .

﴿والوجه الثانى﴾ فى التأويل أن نقول قوله (الحق) مبتدا و (يوم يقول كن فيكون) ظرف دال على الخبر ، والتقدير : قوله (الحق) واقع (يوم يقول كن فيكون) كقولك يوم الجمعة القتال ، ومعناه القتال واقع يوم الجمعة . والمراد من كون قوله حقا فى ذلك اليوم أنه سبحانه لا يقضى إلا بالحق والصدق ، لأن أفضيته منزهة عن الجور والعبث . وثالثها : قوله (وله الملك يوم ينفخ فى الصور) فقوله (وله الملك) يفيد الحصر ، والمعنى : أنه لا ملك فى يوم ينفخ فى الصور إلا الحق سبحانه وتعالى ، فالمراد بالكلام الثانى تقريرا لحكم الحق المبرأ عن العبث والباطل ، والمراد بهذا الكلام تقرير القدرة التامة الكاملة التى لا دافع لها ولا معارض

فان قال قائل : قول الله حق فى كل وقت ، وقدرته كاملة فى كل وقت ، فما الفائدة فى تخصيص

هذا اليوم بهذين الوصفين ؟

قلنا : لأن هذا اليوم هو اليوم الذى لا يظهر فيه من أحد نفع ولا ضرر ، فكان الأمر كما قال سبحانه (والأمر يومئذ لله) فلهذا السبب حسن هذا التخصيص ، ورابعها : قوله (عالم الغيب والشهادة) تقديره ، وهو عالم الغيب والشهادة

واعلم انا ذكرنا فى هذا الكتاب الكامل أنه سبحانه ما ذكر أحوال البعث فى القيامة إلا وقرر فيه أصليين : أحدهما : كونه قادرا على كل الممكنات ، والثانى : كونه عالما بكل المعلومات لأن بتقدير أن لا يكون قادرا على كل الممكنات لم يقدر على البعث والحشر وورد الأرواح إلى الاجساد وبتقدير أن لا يكون عالما بجميع الجزئيات لم يصح ذلك أيضا منه لأنه ربما اشتبه عليه المطيع بالعاصى . والمؤمن بالكافر ، والصديق بالزنديق ، فلا يحصل المقصود الأصلي من البعث والقيامة . أما إذا ثبت بالدليل حصول هاتين الصفتين كمل الغرض والمقصود ، فقوله (وله الملك يوم ينفخ فى الصور)

يدل على كمال القدرة ، وقوله (عالم الغيب والشهادة) يدل على كمال العلم فلا جرم لزم من مجموعهما أن يكون قوله حقا ، وأن يكون حكمه صدقا . وأن تكون قضاياه مبرأة عن الجور و«عبث و«باطل ثم قال ﴿وهو الحكيم الخبير﴾ والمراد من كونه حكيما أن يكون مصيبا في أفعاله . ومن كونه خبيرا ، كونه عالما بحقائقها من غير اشتباه ومن غير التباس . والله أعلم

﴿المسألة الثانية﴾ قد ذكرنا في كثير من هذا الكتاب أنه ليس المراد بقوله (كن فيكون) خطابا وأمر الان ذلك الأمر ان كان للمعدوم فهو محال . وان كان للموجود فهو أمر بأن يصير الموجود موجودا وهو محال . بل المراد منه التنبيه على نفاذ قدرته ومشيبته في تكوين الكائنات وإيجاد الموجودات

﴿المسألة الثالثة﴾ قوله (يوم ينفخ في الصور) ولا شبهة أن المراد منه يوم الحشر ، ولا شبهة عند أهل الاسلام أن الله سبحانه خلق قرنا ينفخ فيه ملك من الملائكة وذلك القرن يسمى بالصور عل ما ذكر الله تعالى هذا المعنى في مواضع من الكتاب الكريم ولكنهم اختلفوا في المراد بالصور في هذه الآية على قولين :

﴿القول الأول﴾ أن المراد منه ذلك القرن الذي ينفخ فيه وصفته المذكورة في سائر السور
 ﴿والقول الثاني﴾ ان الصور جمع صورة والنفخ في الصور عبارة عن النفخ في صور الموتى ، وقال أبو عبيدة : الصور جمع صورة مثل صوف وصوفة . قال الواحدى رحمه الله : أخبرني أبو الفضل العروضى عن الأزهرى عن المنذرى عن أبي الهيثم : انه قال ادعى قوم ان الصور جمع الصورة كما ان الصوف جمع الصوفة والثوم جمع الثومة ، وروى ذلك عن أبي عبيدة قال أبو الهيثم . وهذا خطأ فاحش لأن الله تعالى قال (وصوركم فأحسن صوركم) وقال (ونفخ في الصور) فمن قرأ ونفخ في الصور . وقرأ (فأحسن صوركم) فقد افتى بالكذب . وبدل كتاب الله . وكان أبو عبيدة صاحب اخبار وغرائب ، ولم يكن له معرفة بالنحو . قال الفراء : كل جمع على لفظ الواحد المذكور سبق جمعه واحده ، فواحد بزيادة هاء فيه ، وذلك مثل الصوف والوبر و«شعر والقطن والعشب فكل واحد من هذه الأسماء اسم لجمع جنسه ، وإذا أفردت واحده زيدت فيها هاء لأن جمع هذا الباب سبق واحده . ولو أن الصوفة كانت سابقة للصوف لقالوا صوفة وصوف وبسرة وبسركا قالوا غرفة وغرف ، وزلفة وزلف ، وأما الصور القرن فهو واحد لا يجوز أن يقال واحده صورة وإنما تجمع صورة الانسان صور الان الآن واحده سبقت جمعه . قال الأزهرى : فدأحسن أبو الهيثم في هذا الكلام ، ولا يجوز عندي غير ماذهب اليه . وأقول : ومما يقوى هذا الوجه انه لو كان

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرْزَأْتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَأَيْتَكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ

مُبِينٍ «٧٤»

المراد نفخ الروح في تلك الصور لأضاف تعالى ذلك النفخ إلى نفسه لأن نفخ الأرواح في الصور يضيفه الله إلى نفسه ، كما قال (فاذا سويته ونفخت فيه من روحي) وقال (ففنخننا فيها من روحنا) وقال (ثم أنشأناه خلقا آخر) وأما نفخ الصور بمعنى النفخ في القرن ، فإنه تعالى يضيفه لا إلى نفسه كما قال (فاذا نقر في الناقور) وقال (ونفخ في الصور بصعق من في السموات ومن في الأرض ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون) فهذا تمام القول في هذا البحث ، والله أعلم بالصواب .

قوله تعالى ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه أزرأتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين﴾ في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنه سبحانه كثيرا يحتج على مشركي العرب بأحوال إبراهيم عليه السلام وذلك لأنه يعترف بفضله جميع الطوائف والملل فالمشركون كانوا معترفين بفضله مقرين بأنهم من أولاده واليهود والنصارى والمسلمون كلهم معظمون له معترفون بجلالة قدره . فلا جرم ذكر الله حكاية حاله في معرض الاحتجاج على المشركين

واعلم أن هذا المنصب العظيم وهو اعتراف أكثر أهل العالم بفضله وعلو مرتبته لم يتفق لأحد كما اتفق للخليل عليه السلام . والسبب فيه أنه حصل بين الرب وبين العبد معاهدة كما قال (أوفوا بعهدى أوف بعهدكم) فإبراهيم وفي بعهد العبودية ، والله تعالى شهد بذلك على سبيل الاجمال تارة وعلى سبيل التفصيل أخرى . أما الاجمال ففي آيتين احدهما قوله (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمن) وهذا شهادة من الله تعالى بأنه تم عهد العبودية . والثانية قوله تعالى (إذا قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالين) وأما التفصيل : فهو أنه عليه السلام ناظر في اثبات التوحيد وابطال القول بالشركاء والانداد في مقامات كثيرة .

﴿فالمقام الأول﴾ في هذا الباب مناظرته مع أبيه حيث قال له (ياأبت لم تعبدما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا)

﴿والمقام الثاني﴾ مناظرته مع قومه . وهو قوله (فلبا جن عليه الليل)

﴿والمقام الثالث﴾ مناظرته مع ملك زمانه . فقال (ربى الذى يحى ويميت)

﴿والمقام الرابع﴾ مناظرته مع الكفارة بالفعل . وهو قوله تعالى (جعلهم جنذاً إلا كبيراً لهم) ثم ان القوم قالوا (حرقوه وانصروا آلهتكم) ثم انه عليه السلام بعد هذه الواقعة بذل ولده فقال (انى أرى فى المنام أنى أذبحك) فعند هذا ثبت أن ابراهيم عليه السلام كان من الفتيان . لأنه سلم قلبه للعرفان ولسانه للبرهان وبدنه للنيران وولده للقربان وماله للضيغان . ثم انه عليه السلام سأل ربه فقال (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) فوجب فى كرم الله تعالى أنه يجيب دعاه ويحقق مطلوبه فى هذا السؤال . فلا جرم أجاب دعاه . وقبل نداءه وجعله مقبولاً لجميع الفرق والطوائف إلى قيام القيامة . ولما كان العرب معترفين بفضل لاجرم جعل الله تعالى مناظرته مع قومه حجة على مشركى العرب

﴿المسألة الثانية﴾ اعلم انه ليس فى العالم أحد يثبت لله تعالى شريكاً يساويه فى الوجود والقدرة والعلم والحكمة ، لكن الثنوية يثبتون إلهين ، أحدهما حكيم يفعل الخير ، والثانى سفیه يفعل الشر . وأما الاشتغال بعبادة غير الله . فى الذاهبين اليه كثرة . فمنهم عبدة الكواكب . وهم فريقان منهم من يقول انه سبحانه خالق هذه الكواكب . وفوض تدبير هذا العالم السفلى اليها . فهذه الكواكب هى المدبرات لهذا العالم ، قالوا : فيجب علينا أن نعبد هذه الكواكب . ثم ان هذه الافلاك والكواكب تعبد الله وتطبعه . ومنهم قوم غلاة ينكرون الصانع . ويقولون هذه الافلاك والكواكب أجسام واجبة الوجود لذواتها ويمتنع عليها العدم والفناء . وهى المدبرة لأحوال هذا العالم الأسفل . وهؤلاء هم الدهرية الخالصة . ومن يعبد غير الله النصارى الذين يعبدون المسيح ومنهم أيضاً عبدة الاصنام

واعلم أن هنا بحثاً لا بد منه . وهو انه لا دين أقدم من دين عبدة الاصنام . والدليل عليه أن أقدم الأنبياء الذين وصل الينا تواريخهم على سبيل التفصيل هو نوح عليه السلام . وهو إنما جاء بالرد على عبدة الاصنام كما قال تعالى حكاية عن قومه أنهم قالوا (لا تذرنا ودا ولا سواع ولا يغوث ويعوق ونسرا) وذلك يدل على ان دين عبدة الاصنام قد كان موجوداً قبل نوح عليه السلام وقد بقى ذلك الدين إلى هذا الزمان فان أكثر سكان أطراف الأرض مستمرون على هذا الدين والمذهب الذى هذا شأنه يمتنع أن يكون معلوم البطلان فى بديهة العقل . لكن العلم بأن هذا الحجر المنحوت فى هذه الساعة ليس هو الذى خلقنى وخلق السماء والأرض علم ضرورى ، والعلم الضرورى يمتنع اطلاق الخلق الكثير على انكاره ، فظهر أنه ليس دين عبدة الاصنام كون الصنم

خالقاً للسماء والأرض . بل لا بد وأن يكون لهم فيه تأويل . والعلماء ذكروا فيه وجوها كثيرة وقد ذكرنا هذا البحث في أول سورة البقرة ، ولا بأس بأن نعيده ههنا تكثيراً للفوائد

(فالتأويل الأول) وهو الأقوى أن الناس رأوا تغيرات أحوال هذا العالم الأسفل سربوطه بتغيرات أحوال الكواكب ، فان بحسب قرب الشمس وبعدها من سمت الرأس تحدث الفصول الأربعة ، وبسبب حدوث الفصول الأربعة تحدث الأحوال المختلفة في هذا العالم ، ثم ان الناس ترصدوا أحوال سائر الكواكب فاعتقدوا ارتباط السعادات والنحوسات بكيفية وقوعها في طوابع الناس على أحوال مختلفة فلما اعتقدوا ذلك غلب على ظنون أكثر الخلق أن مبدأ حدوث الحوادث في هذا العالم هو الاتصالات الفلكية والمناسبات الكوكبية فلما اعتقدوا ذلك بالغوا في تعظيمها ثم منهم من اعتقد أنها واجبة الوجود لذواتها ومنهم من اعتقد حدوثها وكونها مخلوقة لئلا اله الأكبر ، إلا أنهم قالوا إنها وإن كانت مخلوقة للاله الأكبر ، إلا أنها هي المدبرة لأحوال هذا العالم وهؤلاء هم الذين أثبتوا الوسائط بين الاله الأكبر ، وبين أحوال هذا العالم . وعلى كلا التقديرين فالقوم اشتغلوا بعبادتها وتعظيمها ثم إنهم لما رأوا أن هذه الكواكب قد تغيب عن الأبصار في أكثر الأوقات اتخذوا لكل كوكب صنما من الجوهر المنسوب اليه واتخذوا صنم الشمس من الذهب وزينوه بالأحجار المنسوبة إلى الشمس وهي الياقوت والألماس واتخذوا صنم القمر من الفضة وعلى هذا القياس ثم أقبلوا على عبادة هذه الأصنام وغرضهم من عبادة هذه الأصنام هو عبادة تلك الكواكب والتقرب إليها وعند هذا البحث يظهر أن المقصود الأصلي من عبادة هذه الأصنام هو عبادة الكواكب . وأما الأنبياء صلوات الله عليهم فلهم ههنا مقامان : أحدهما : إقامة الدلائل على أن هذه الكواكب لا تأثير لها البتة في أحوال هذا العالم كما قال الله تعالى (ألله الخلق والأمر) بعد أن بين في الكواكب أنها مسخرة . والثاني : أنها بتقدير أنها تفعل شيئاً ويصدر عنها تأثيرات في هذا العالم إلا أن دلائل الحدوث حاصله فيها فوجب كونها مخلوقة والاشتغال بعبادة الأصل أولى من الاشتغال بعبادة الفرع ، والدليل على أن حاصل دين عبدة الأصنام ما ذكرناه . أنه تعالى لما حكى عن الخليل صلوات الله عليه أنه قال لأبيه أزرأت اتخذ أصناماً آلهة؟ إني أراك وقومك في ضلال مبين فأفقي بهذا الكلام أن عبادة الأصنام جهل ، ثم لما اشتغل بذكر الدليل أقام الدليل على أن الكواكب والقمر والشمس لا يصلح شيء منها للالهية وهذا يدل على أن دين عبدة الأصنام حاصله يرجع إلى القول بالهية هذه الكواكب وإلا لصارت هذه الآية متنافية متنافرة . وإذا عرفت هذا ظهر أنه لا طريقي إلى إبطال القول بعبادة الأصنام إلا بإبطال كون الشمس والقمر

وسائر الكواكب آلهة لهذا العالم مدبرته .

﴿الوجه الثاني﴾ في شرح حقيقة مذهب عبدة الأصنام ما ذكره أبو معشر جعفر بن محمد المنجم البلخي رحمه الله فقال في بعض كتبه : إن كثيرا من أهل الصين والهند كانوا يثبتون الآله والملائكة إلا أنهم يعتقدون أنه تعالى جسم وذو صورة كأحسن ما يكون من الصور وللملائكة أيضا صور حسنة إلا أنهم كلهم محتجبون عنا بالسموات . فلا جرم اتخذوا صوراً وتمثيل أنيقة المنظر حسنة الرؤيا والهيكل فيتخذون صورة في غاية الحسن ويقولون أنها هيكل الآله . وصورة أخرى دون الصورة الأولى ويجمعونها على صورة الملائكة ، ثم يواظبون على عبادتها قاصدين بتلك العبادة طلب الزلفى من الله تعالى ومن الملائكة . فان صح ما ذكره أبو معشر فالسبب في عبادة الأوثان اعتقاد أن الله تعالى جسم وفي مكان .

﴿الوجه الثالث﴾ في هذا الباب أن القوم يعتقدون أن الله تعالى فوض تدبير كل واحد من الأقاليم إلى ملك بعينه . وفوض تدبير كل قسم من أقسام ملك العالم إلى روح سماوى بعينه فيقولون مدبر البحار ملك ، ومدبر الجبال ملك آخر . ومدبر الغيوم والأمطار ملك . ومدبر الأرزاق ملك ، ومدبر الحروب والمقاتلات ملك آخر . فلما اعتقدوا ذلك اتخذوا لكل واحد من أولئك الملائكة صنما مخصوصا وهيكل مخصوصا ويطلبون من كل صنم ما يليق بذلك الروح الفلسكى من الآثار والتدبيرات ، وللقوم تأويلات أخرى سوى هذه الثلاثة ذكرناها في أول سورة البقرة . ولنكتف ههنا بهذا القدر من البيان . والله أعلم

﴿المسألة الثالثة﴾ ظاهر هذه الآية يدل على أن اسم والد إبراهيم هو آزر . ومنهم من قال اسمه تارح . قال الزجاج : لا خلاف بين النسابين ان اسمه تارح ، ومن الملحدة من جعل هذا طعنا في القرآن . وقال هذا النسب خطأ وليس بصواب . وللملء ههنا مقامان :

﴿المقام الأول﴾ أن اسم والد إبراهيم عليه السلام هو آزر ، وأما قولهم أجمع النسابون على أن اسمه كان تارح . فقول هذا ضعيف لأن ذلك الإجماع إنما حصل لأن بعضهم يقلد بعضا . وبالأخرة يرجع ذلك الإجماع إلى قول الواحد والاثنين مثل قول وهب وكعب وغيرهما وربما تعلقوا بما يجذونه من أخبار اليهود والنصارى . ولا عبرة بذلك في مقابلة صريح القرآن

﴿المقام الثانى﴾ سلمنا أن اسمه كان تارح ثم لنا ههنا وجوه :

﴿الوجه الأول﴾ لعلى والد إبراهيم كان مسمى بهذين الاسمين . فيحتمل أن يقال ان اسمه الأصيل كان آزر وجعل تارح لقباً له ، فاشتهر بهذا اللقب وخفى الاسم . فالله تعالى ذكره بالاسم ،

ويحتمل أن يكون بالعكس . وهو أن تارح كان اسما أصليا وآزر كان لقباً غالباً . فذكره الله تعالى بهذا اللقب الغالب

﴿الوجه الثاني﴾ أن يكون لفظه آزر صفة مخصوصة في لغتهم ، فقيل إن آزر اسم ذم في لغتهم وهو المخطيء كأنه قيل ، وإذ قال إبراهيم لأبيه المخطيء كأنه عابه بزيغته وكفره وانحرافه عن الحق ، وقيل آزر هو الشيخ الهرم بالخوارزمية . وهو أيضا فارسية أصلية
واعلم أن هذين الوجهين إنما يجوز المصير إليهما عند من يقول بجواز اشتغال القرآن على ألفاظ قليلة من غير لغة العرب

﴿والوجه الثالث﴾ أن آزر كان اسم صنم يعبده والد إبراهيم ، وإنما سماه الله بهذا الاسم لوجهين : أحدهما : أنه جعل نفسه مختصا بعبادته ومن بالغ في محبة أحد فقد يجعل اسم المحبوب اسما لله جب . قال الله تعالى (يوم ندعو كل أناس بأمامهم) وثانيها : أن يكون المراد عابد آزر فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه

﴿الوجه الرابع﴾ أن والد إبراهيم عليه السلام كان تارح وآزر كان عماله ، والعم تديطلق عليه اسم الأب . كما حكى الله تعالى عن أولاد يعقوب أنهم قالوا (نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق) ومعلوم أن اسمعيل كان عماء يعقوب . وقد أطلقوا عليه لفظ الأب فكذا ههنا . واعلم أن هذه التكلفات إنما يجب المصير إليها لودل دليل باهر على أن والد إبراهيم ما كان اسمه آزر وهذا الدليل لم يوجد البتة ، فأى حاجة تحملنا على هذه التأويلات ، والدليل القوي على صحة أن الأمر على ما يدل عليه ظاهر هذه الآية ، أن اليهود والنصارى والمشركين كانوا في غاية الحرص على تكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام وإظهار بغضه ، فلو كان هذا النسب كذبا لامتنع في العادة سكوتهم عن تكذيبه وحيث لم يكذبوه علمنا أن هذا النسب صحيح والله أعلم .

﴿المسألة الرابعة﴾ قالت الشيعة : إن أحدا من آباء الرسول عليه الصلاة والسلام وأجداده ما كان كافرا وأنكروا أن يقال أن والد إبراهيم كان كافرا وذكروا أن آزر كان عم إبراهيم عليه السلام . وما كان والداه واحتجوا على قولهم بوجوه :

﴿الحجة الأولى﴾ أن آباء الأنبياء ما كانوا كفارا ويدل عليه وجوه : منها قوله تعالى (الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين)

قيل معناه : أنه كان ينقل روحه من ساجد الى ساجد وبهذا التقدير : فالآية دالة على أن جميع آباء محمد عليه السلام كانوا مسلمين . وحيث يجب القطع بأن والد إبراهيم عليه السلام كان مسلما . فإن قيل : قرأه (وتقلبك في الساجدين) يحتمل وجوهاً آخر : أحدها : أنه لما نسخ فرض

قيام الليل طاف الرسول صلى الله عليه وسلم تلك الليلة على بيوت الصحابة لينظر ماذا يصنعون لشدة حرصه على ما يظهر منهم من الطاعات فوجدها كبيوت الزنابير لكثرة ما سمع من أصوات قراءتهم وتسبيحهم وتهليلهم . فالمراد من قوله (وتقلبك في الساجدين) طوافه بصوات الله عابدين الليلة على الساجدين . وثانها : المراد أنه عليه السلام كان يصلي بالجماعة فتقلبه في الساجدين معناه : كونه فيما بينهم ومختلطا بهم حال القيام والركوع والسجود . وثالثها : أن يكون المراد أنه ما يخفى حالك على الله كلما فت وتقلبت مع الساجدين في الاشتغال بأمر الدين . ورابعها : المراد تقلب بصره فيمن يصلي خلفه ، والدليل عليه قوله عليه السلام «أتموا الركوع والسجود فاني أراكم من وراء ظهري» فهذه الوجوه الأربعة مما يحتملها ظاهر الآية . فسقط ما ذكرتم .

والجواب : لفظ الآية محتمل للكل ، فليس حمل الآية على البعض أولى من حملها على الباقي . فوجب أن نحملها على الكل وحينئذ يحصل المقصود . وما يدل أيضا على أن أحدا من آباء محمد عليه السلام ما كان من المشركين قوله عليه السلام «لم أزل أنقل من أصلاب الظاهرين إلى أرحام الظاهرات» وقال تعالى (إنما المشركون نجس) وذلك يوجب أن يقال : أن أحدا من أجداده ما كان من المشركين .

إذا ثبت هذا فنقول : ثبت بما ذكرنا أن والد إبراهيم عليه السلام ما كان مشركا . وثبت أن أزر كان مشركا . فوجب انقطع بأن والد إبراهيم كان انسانا آحر غير أزر .

(الحجة الثانية) على أن أزر ما كان والد إبراهيم عليه السلام . أن هذه الآية دالة على أن إبراهيم عليه السلام شافه أزر بالغلظة والجفاء . ومشافهة الأب بالجفاء لا تجوز . وهذا يدل على أن أزر ما كان والد إبراهيم . إنما قلنا : أن إبراهيم شافه أزر بالغلظة والجفاء في هذه الآية لوجهين : الأول : أنه قرىء (وإذ قال إبراهيم لأبيه أزر) بضم أزر وهذا يكون محمولا على النداء ونداء الأب بالاسم الأصلي من أعظم أنواع الجفاء . الثاني : أنه قال لأزر (إني أراك وقودك في ضلال مبين) وهذا من أعظم أنواع الجفاء والايذاء . فثبت أنه عليه السلام شافه أزر بالجفاء . وإنما قلنا : أن مشافهة الأب بالجفاء لا تجوز لوجوه : الأول : قوله تعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) وهذا عام في حق الأب الكافر والمسلم . قال تعالى (ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما) وهذا أيضا عام . الثاني : أنه تعالى لما بعث موسى عليه السلام إلى فرعون أمره بالرفق معه فقال (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) والسبب فيه أن يصير ذلك رعاية لحق تربية فرعون . فههنا الوالد أولى بالرفق . الثالث : أن الدعوة مع الرفق أكثر تأثيرا في القلب . أما التغليظ فإنه يوجب

التفسير والبعد عن القبول . ولهذا المعنى قال تعالى لمحمد عليه السلام (وجادلهم بالتى هى أحسن) فكيف يليق بإبراهيم عليه السلام مثل هذه الخشونة مع أبيه فى الدعوة؟ الرابع: أنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام الحلم، فقال (ان إبراهيم لحليم أواه) وكيف يليق بالرجل الحليم مثل هذا الجفاء مع الأب؟ فثبت بهذه الوجود أن آزر ما كان والد إبراهيم عليه السلام بل كان عماله، فأما والده فهو تارح والعم قد يسمى بالأب على ما ذكرنا أن أولاد يعقوب سموا اسمعيل بكونه أباً ليعقوب مع أنه كان عماله . وقال عليه السلام «ردوا على أبى» يعنى العم العباس وأيضاً يحتمل أن آزر كان والد أم إبراهيم عليه السلام وهذا قد يقال له الأب . والدليل عليه قوله تعالى (ومن ذريته داود وسليمان) إلى قوله (وعيسى) فجعل عيسى من ذرية إبراهيم مع أن إبراهيم عليه السلام كان جدا لعيسى من قبل الأم . وأما أصحابنا فقد زعموا أن والدرسول الله كان كافراً وذكروا أن نص الكتاب فى هذه الآية يدل على أن آزر كان كافراً وكان والد إبراهيم عليه السلام . وأيضاً قوله تعالى (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه) إلى قوله (فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) وذلك يدل على قولنا، وأما قوله (وتقبلك فى الساجدين) قلنا: قد بينا أن هذه الآية تحتمل سائر الوجوه قوله تحمل هذه الآية على الكل، قلنا هذا محال لأن حمل اللفظ المشترك على جميع معانيه لا يجوز . وأيضاً حمل اللفظ على حقيقته ومجازه معاً لا يجوز، وأما قوله عليه السلام «لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين الى أرحام الطاهرات» فذلك محمول على أنه ما وقع فى نسبه ما كان سفاحاً، أما قوله التغليظ مع الأب لا يليق بإبراهيم عليه السلام . قلنا: لعله أصر على كفره فألجأ الى الإصرار استحق ذلك التغليظ . والله أعلم

(المسألة الخامسة) قرئ (آزر) بالنصب وهو عطف بيان لقوله (لأبيه) وبالضم على النداء، وسألتى واحداً فقال: قرئ (آزر) بهاتين القراءتين، وأما قوله (وإذ قال موسى لأخيه هرون) قرئ (هرون) بالنصب وما قرئ البتة بالضم فما الفرق؟ قلت القراءة بالضم محمولة على النداء والنداء بالأسم استخفاف بالمنادى . وذلك لاثق بقصة إبراهيم عليه السلام لأنه كان مصرأ على كفره فحسن أن يخاطب بالغلظة زجرأله عن ذلك القبيح، وأما قصة موسى عليه السلام فقد كان موسى عليه السلام يستخلف هرون على قومه فما كان الاستخفاف لاثقا بذلك الموضوع، فلا جرم ما كانت القراءة بالضم جائزة .

(المسألة السادسة) اختلف الناس فى تفسير لفظ «الاله» والأصح أنه هو المعبود، وهذه الآية تدل على هذا القول لأنهم ما أثبتوا الأصنام إلا كونها معبودة، ولأجل هذا قال إبراهيم لأبيه: (أتتخذ أصناماً آلهة) وذلك يدل على أن تفسير لفظ «الاله» هو المعبود .

وَكَذَلِكَ نَرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ

الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾

﴿المسألة السابعة﴾ اشتمل كلام إبراهيم عليه السلام في هذه الآية على ذكر الحجة العقلية على فساد قول عبدة الأصنام من وجهين : الأول : أن قوله (أنتخذ أصناماً آلهة) يدل على أنهم كانوا يقولون بكثرة الآلهة : إلا أن القول بكثرة الآلهة ناطل بالدليل العقلي الذي فهم من قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) والثاني : أن هذه الأصنام لو حصلت لها قدرة على الخير والشر لكان الصنم الواحد كافياً ، فلما لم يكن الواحد كافياً دل ذلك على أنها وإن كثرت فلا نفع فيها البتة .

﴿المسألة الثامنة﴾ احتج بعضهم بهذه الآية على أن وجوب معرفة الله تعالى ووجوب الاشتغال بشركه معلوم بالعقل لا بالسمع . قال لأن إبراهيم عليه السلام حكم عليهم بالضلال . ولولا الوجوب العقلي لما حكم عليهم بالضلال . لأن ذلك المذهب كان متقدماً على دعوة إبراهيم . ولقائل أن يقول : إنه كان ضلالاً بحكم شرع الأنبياء الذين كانوا متقدمين على إبراهيم عليه السلام . قوله تعالى ﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين﴾ فيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ «الكاف» في كذلك للتشبيه . وذلك إشارة إلى غائب جرى ذكره والمذكور ههنا فيما قبل هو أنه عليه السلام استقبح عبادة الأصنام . وهو قوله (إني أراك وقولك في ضلال مبين) والمعنى : ومثل ما أريناه من قبح عبادة الأصنام نرى ملكوت السموات والأرض . وههنا دقيقة عقلية . وهي أن نور جلال الله تعالى لا تخفى غير منقطع ولا زائل البتة ، والأرواح البشرية لا تصير محرومة عن تلك الأنوار إلا لأجل حجاب ، وذلك الحجاب ليس إلا الاشتغال بغير الله تعالى . فإذا كان الأمر كذلك فبقدر ما يزول ذلك الحجاب يحصل هذا التجلي فقول إبراهيم عليه السلام (أنتخذ أصناماً آلهة) إشارة إلى تقبيح الاشتغال بعبادة غير الله تعالى . لأن كل ما سوى الله فهو حجاب عن الله تعالى . فلما زال ذلك الحجاب لا جرم تجلى له ملكوت السموات بالتمام ، فقوله (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات) معناه : وبعد زوال الاشتغال بغير الله حصل له نور تجلى جلال الله تعالى ، فكان قوله (وكذلك) منشأ لهذه الفائدة الشريفة الروحانية .

﴿المسألة الثانية﴾ لقائل أن يقول هذه الآراء قد حصلت فيما تقدم من الزمان ، فكان الأولى

أن يقال : وكذلك أرينا إبراهيم ملكوت السموات والأرض ، فلم عدل عن هذه اللفظة إلى قوله (وكذلك نرى)

قلنا : الجواب عنه من وجود : الأول : أن يكون تقدير الآية . وكذلك كنا نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ، فيكون هذا على سبيل الحكاية عن الماضي . والمعنى أنه تعالى لما حكى عنه أنه شافه أباه الكلام الحشن تعصبا للدين الحق فكأنه قيل : وكيف بلغ إبراهيم هذا المبلغ العظيم في قوة الدين . فأجيب بأنا كنا نرى ملكوت السموات والأرض من وقت طفولته لأجل أن يصير من الموقنين زمان بلوغه .

﴿الوجه الثاني في الجواب﴾ وهو أعلى وأشرف مما تقدم ، وهو أنا نقول : إنه ليس المقصود من إراءة الله إبراهيم ملكوت السموات والأرض هو مجرد أن يرى إبراهيم هذا الملكوت ، بل المقصود أن يراها فيتوسل بها إلى معرفة جلال الله تعالى وقدمه وعلوه وعظمته . ومعلوم أن مخلوقات الله وإن كانت متناهية في الذوات وفي الصفات ، إلا أن جهات دلالاتها على الذوات والصفات غير متناهية . وسمعت الشيخ الامام الوالد عمر ضياء الدين رحمه الله تعالى قال : سمعت الشيخ أبا القاسم الأنصاري يقول : سمعت إمام الحرمين يقول : معلومات الله تعالى غير متناهية ، ومعلوماته في كل واحد من تلك المعلومات أيضا غير متناهية . وذلك لأن الجوهر الفرد يمكن وقوعه في أحياز لانهاية لها على البذل . ويمكن اتصافه بصفات لانهاية لها على البذل ، وكل تلك الأحوال التقديرية دالة على حكمة الله تعالى وقدرته أيضا . وإذا كان الجوهر الفرد والجزء الذي لا يتجزأ كذلك : فكيف القول في كل ملكوت الله تعالى ، فثبت أن دلالة ملك الله تعالى ، وملكوته على نعوت جلاله وسمات عظمته وعزته غير متناهية . وحصول المعلومات التي لانهاية لها دفعة واحدة في عقول الخلق محال ، فاذن لا طريق إلى تحصيل تلك المعارف إلا بأن يحصل بعضها عقيب البعض لا إلى نهاية ولا إلى آخر في المستقبل ، فلهذا السبب والله أعلم لم يقل . وكذلك أريناه ملكوت السموات والأرض ، بل قال (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت والأرض) وهذا هو المراد من قول المحققين السفر إلى الله له نهاية ، وأما السفر في الله فانه لانهاية له والله أعلم .

﴿المسألة الثالثة﴾ (المللكوت) هو الملك . و«الناء» للبالغ كالرغبوت من الرغبة والرهبوت

من الرهبة .

واعلم أن في تفسير هذه الإراءة قولين : الأول : أن الله أراه الملكوت بالعين ، قالوا إن الله تعالى شق له السموات حتى رأى العرش والكرسى وإلى حيث ينتهي إليه فوقية العالم الجسماني ،

وشق له الأرض إلى حيث ينتهي إلى السطح الآخر من العالم الجسماني . ورأى مافي السموات من العجائب والبدائع ، ورأى مافي باطن الأرض من العجائب والبدائع . وعن ابن عباس أنه قال : لما أسرى إبراهيم إلى السماء ورأى مافي السموات وما في الأرض فأبصر عبداً على فاحشة فدعا عليه وعلى آخر بالهلاك ، فقال الله تعالى له : كفف عن عبادي فهم بين حالين إما أن أجعل منهم ذرية طيبة أو يتوبون فأعفر لهم أو النار من ورائهم ، وطعن القاضى في هذه الرواية من وجود : الأول : أن أهل السماء هم الملائكة المقربون وهم لا يعصون الله . فلا يابق أن يقال : إنه لما رفع إلى السماء أبصر عبداً على فاحشة . الثانى : أن الأنبياء لا يدعون بهلاك المذنب إلا عن أمر الله تعالى ، وإذا أذن الله تعالى فيه لم يجز أن يمنعه من إجابة دعائه . الثالث : أن ذلك الدعاء إما أن يكون صواباً أو خطأ ، فإن كان صواباً فلم رده في المرة الثانية . وإن كان خطأ فلم قبله في المرة الأولى . ثم قال : وأخبار الآحاد إذا وردت على خلاف دلائل العقول وجب التوقف فيها .

﴿والقول الثانى﴾ أن هذه الآراء كانت بعين البصيرة والعقل . لا بالبصر الظاهر والحس الظاهر . واحتج القائلون بهذا القول بوجوه :

﴿الحجة الأولى﴾ أن ملكوت السموات عبارة عن ملك السماء ، والملك عبارة عن القدرة . وقدرة الله لا ترى . وإنما تعرف بالعقل ، وهذا كلام قاطع ، إلا أن يقال المراد بملكوت السموات والأرض نفس السموات والأرض ، إلا أن على هذا التقدير يضيع لفظ الملكوت ولا يحصل منه فائدة .

﴿والحجة الثانية﴾ أنه تعالى ذكر هذه الآراء في أول الآية على سبيل الاجمال وهو قوله (وكذلك نرى إبراهيم) ثم فسرها بعد ذلك بقوله (فلما جن عليه الليل رأى كوكباً) فجرى ذكر هذا الاستدلال كالشرح والتفسير تلك الآراء فوجب أن يقال إن تلك الآراء كانت عبارة عن هذا الاستدلال .

﴿والحجة الثالثة﴾ أنه تعالى قال في آخر الآية (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه) والرؤية بالعين لا تصير حجة على قومه لأنهم كانوا غائبين عنها وكانوا يكذبون إبراهيم فيها وما كان يجوز لهم تصديق إبراهيم في تلك الدعوى إلا بدليل منفصل ومعجزة باهرة . وإنما كانت الحججة التي أوردتها إبراهيم على قومه في الاستدلال بالنجوم من الطريق الذي نطق به القرآن . فإن تلك الأدلة كانت ظاهرة لهم كما أنها كانت ظاهرة لإبراهيم .

﴿والحجة الرابعة﴾ أن إراءة جميع العالم تفيده العلم الضروري بأن للعالم إلهاً قادراً على كل

الممكنات . ومثل هذه الحالة لا يحصل للانسان بسببها استحقاق المدح والتعظيم . ألا ترى أن الكفار في الآخرة يعرفون الله تعالى بالضرورة وليس لهم في تلك المعرفة مدح ولا ثواب . وأما الاستدلال بصفات المخلوقات على وجود الصانع وقدرته وحكمته فذاك هو الذي يفيد المدح والتعظيم .

﴿ والحجة الخامسة ﴾ أنه تعالى كما قال في حق إبراهيم عليه السلام (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض فكذلك قال في حق هذه الأمة (سنتهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم) فكما كانت هذه الآراء بالبصيرة الباطنة لا بالبصر الظاهر فكذلك في حق إبراهيم لا يبعد أن يكون الأمر كذلك .

﴿ الحججة السادسة ﴾ أنه عليه السلام لما تم الاستدلال بالنجم والقمر والشمس قال بعده (إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض) فحكم على السموات والأرض بكونها مخلوقة لأجل الدليل الذي ذكره في النجم والقمر والشمس . وذلك الدليل لولم يكن عاما في كل السموات والأرض لكان الحكم العام بناء على دليل خاص وأنه خطأ . فثبت أن ذلك الدليل كان عاما فكان ذكر النجم والقمر والشمس كالمثال لإراءة الملكوت . فوجب أن يكون المراد من إراءة الملكوت تعريف كيفية دلالتها بحسب تغيرها وإمكانها وحدوثها على وجود الإله العالم القادر الحكيم فتكون هذه الآراء بالقلب لا بالعين .

﴿ الحججة السابعة ﴾ أن اليقين عبارة عن العلم المستفاد بالتأمل إذا كان مسبوقا بالشك وقوله تعالى (وليكون من المؤمنين) كالغرض من تلك الآراء فيصير تقدير الآية نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض لأجل أن يصير من المؤمنين . فلما كان اليقين هو العلم المستفاد من الدليل ، وجب أن تكون تلك الآراء عبارة عن الاستدلال .

﴿ الحججة الثامنة ﴾ أن جميع مخلوقات الله تعالى دالة على وجود الصانع وقدرته باعتبار واحد وهو أنها محدثة ممكنة وكل محدث ممكن فهو محتاج إلى الصانع . وإذا عرف الانسان هذا الوجه الواحد فقد كفاه ذلك في الاستدلال على الصانع وكأنه بمعرفة هاتين المقدمتين قد طالع جميع الملكوت بعين عقله وسمع بأذن عقله شهادتها بالاحتياج والافتقار وهذه الرؤية رؤية باقية غير زائلة البتة . ثم إنها غير شاغلة عن الله تعالى بل هي شاغلة للقلب والروح بالله . أما رؤية العين فالانسان لا يمكنه أن يرى بالعين أشياء كثيرة دفعة واحدة على سبيل الكمال . ألا ترى أن من نظر إلى صحيفة مكتوبة فانه لا يرى من تلك الصحيفة رؤية كاملة تامة إلا حرفا واحداً فان حديق نظره إلى حرف آخر وشغل بصره به صار محروماً عن إدراك الحرف الأول ، أو عن إبصاره . فثبت أن رؤية الأشياء

الكثيرة دفعة واحدة غير ممكنة . وبتقدير أن تكون ممكنة هي غير باقية وبتقدير أن تكون باقية هي شاغلة عن الله تعالى . ألا ترى أنه تعالى مدح محمداً عليه "صلاة والسلام في ترك هذه الرؤية فقال (ما زاغ البصر وما طغى) فثبت بجملة هذه الدلائل أن تلك الآراء كانت إراءة بحسب بصيرة العقل ، لا بحسب البصر الظاهر .

فان قيل : فرؤية القلب على هذا التفسير حاصلة لجميع الموحدين فأى فضيلة تحصل لإبراهيم بسببها قلنا : جميع الموحدين وإن كانوا يعرفون أصل هذا الدليل إلا أن الاطلاع على آثار حكمة الله تعالى في كل واحد من مخلوقات هذا العالم بحسب أجناسها وأنواعها وأصنافها وأشخاصها وأحوالها مما لا يحصل إلا للأكابر من الأنبياء عليهم السلام . ولهذا المعنى كان رسولنا عليه "صلاة والسلام يقول في دعائه «اللهم أرنا الأشياء كما هي» فزال هذا الاشكال . والله أعلم .

(المسألة الرابعة) اختلفوا في «الواو» في قوله (وليكون من الموقنين) وذكروا فيه وجوهاً : الأول : الواو زائدة والتقدير : نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ليستدل بها ليكون من الموقنين . الثاني : أن يكون هذا كلاماً مستأنفاً لبيان علة الآراء والتقدير وليكون من الموقنين نريه ملكوت السموات والأرض . الثالث : أن الآراء قد تحصل وتصير سبباً لمزيد الضلال كما في حق فرعون قال تعالى (ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى) وقد تصير سبباً لمزيد الهداية واليقين . فلما احتملت الآراء هذين الاحتمالين قال تعالى في حق إبراهيم عليه السلام : إنا أريناه هذه الآيات إيراها ولاجل أن يكون من الموقنين لا من الجاحدين والله أعلم .

(المسألة الخامسة) اليقين عبارة عن علم يحصل بعد زوال الشبهة بسبب التأمل ولهذا المعنى لا يوصف علم الله تعالى بكونه يقيناً لأن علمه غير مسبوق بالشبهة وغير مستفاد من الفكر والتأمل . واعلم أن الانسان في أول ما يستدل فانه لا ينفك قلبه عن شك وشبهة من بعض الوجود فاذا كثرت الدلائل وتوافقت وتطابقت صارت سبباً لحصول اليقين وذلك لوجوده : الأول : أنه يحصل لكل واحد من تلك الدلائل نوع تأثير وقوة فلا تزال القوة تتزايد حتى تنتهي إلى الجزم . الثاني : أن كثرة الأفعال سبب لحصول الملمكة فكثرة الاستدلال بالدلائل المختلفة على المدلول الواحد جار مجرى تكرار الدرس الواحد ، فكما أن كثرة التكرار تفيده الحفظ المتأكد الذي لا يزول عن القلب ، فكذا ههنا . الثالث : أن قلب عند الاستدلال كان مظلماً جاداً فاذا حصل فيه الاعتماد المستفاد من الدليل الأول امتزج نور ذلك الاستدلال بظلمة سائر الصفات الحاصلة في القلب ، فحصل فيه حالة شبيهة بالحالة الممتزجة من النور والظلمة ، فاذا حصل الاستدلال

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ

الْآفَلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لئن لم يَهْدِنِي

رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي

هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ

وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

الثاني اذ تخرج نوره بالحالة الأولى ، فيصير الاشراق واللمعان أتم . وكما أن الشمس إذا قربت من المشرق ظهر نورها في أول الأمر وهو الصبح . فكذلك الاستدلال الأول يكون كالصبح . ثم كما أن الصبح لا يزال يتزايد بسبب تزايد قرب الشمس من سمت الرأس ، فاذا وصلت إلى سمت الرأس حصل النور التام ، فكذلك العبد كلما كان تدبره في مراتب مخلوقات الله تعالى أكثر كان شروق نور المعرفة والتوحيد أجلى . الا ان الفرق بين شمس العلم وبين شمس العالم أن شمس العالم الجسائي لها في الارتقاء والتصاعد حد معين لا يمكن أن يزداد عليه في الصعود ، وأما شمس المعرفة والعقل والتوحيد . فلا نهاية لتصاعدها ولا غاية لازديادها فقوله (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض) إشارة إلى مراتب الدلائل والبيئات ، وقوله (وليكون من الموقنين) إشارة إلى درجات أنوار التجلي وشروق شمس المعرفة والتوحيد . والله أعلم

قوله تعالى ﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾

في هذه الآية مسائل :

المسألة الأولى : قال صاحب الكشاف (فلما جن عليه الليل) عطف على قوله (قال إبراهيم

لأبيه آزر) وقوله (وكذلك نرى) جملة وقعت اعتراضا بين المعطوف والمعطوف عليه

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الواحدى رحمه الله : يقال جن عليه الليل وأجته الليل . ويقال : لكل

ما سترته جن وأجن ، ويقال أيضا جنه الليل ، واسكن الاختيار جن عليه الليل . وأجنه الليل . هذا قول جميع أهل اللغة ، ومعنى (جن) ستر ومنه الجنة والجن والجنون والجان والجنين والجن والجنن والجن ، وهو المقبور . والجنة كل هذا يعود أصله إلى الستر والاستتار . وقال بعض النحويين (جن عليه الليل) إذا أظلم عليه الليل . ولهذا دخلت «على» عليه كما تقول في أظلم . فلما جنه فستره من غير تضمين معنى (أظلم)

﴿المسألة الثالثة﴾ اعلم أن أكثر المفسرين ذكروا أن ملك ذلك الزمان رأى رؤيا وعبرها المعبرون بأنه يولد غلام ينازعه في ملكه . فأمر ذلك الملك بذيخ كل غلام يولد ، فخبأت أم إبراهيم به وما أظهرت حبلها للناس . فلما جاءها الطاق ذهبته إلى كهف في جبل ووضعت إبراهيم وسدت الباب بحجر ، فجاء جبريل عليه السلام ووضع أصبعه في فمه فمضه فخرج منه رزقه وكان يتعهد جبريل عليه السلام ، فكانت الأم تأتيه أحيانا وترضعه وبقى على هذه الصنعة حتى كبر وعقل وعرف أنه ربا ، فسأل الأم فقال لها : من ربي ؟ فقالت أنا . فقال : ومن ربك ؟ قالت أبوك . فقال الأب : ومن ربك ؟ فقال : ملك البلد . فعرف إبراهيم عليه السلام جهلهما بربهما فنظر من باب ذلك العمار ليرى شيئا يستدل به على وجود الرب سبحانه فرأى النجم الذي هو أضوأ النجوم في السماء . فقال : هذا ربي إلى آخر القصة . ثم القائلون بهذا القول اختلفوا . فمنهم من قال : ان هذا كان بعد البلوغ وجريان قلم التكليف عليه . ومنهم من قال : ان هذا كان قبل البلوغ . واتفق أكثر المحققين على فساد القول الأول واحتجوا عليه بوجوده :

﴿الحجة الأولى﴾ أن القول برؤية النجم كفر بالاجماع والكفر غير جائز بالاجماع على الأنبياء

﴿الحجة الثانية﴾ أن إبراهيم عليه السلام كان قد عرف ربه قبل هذه الواقعة بالدليل . والدليل على صحة ما ذكرناه أنه تعالى أخبر عنه أنه قال قبل هذه الواقعة لأبيه آزر (أتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين)

﴿الحجة الثالثة﴾ أنه تعالى حكى عنه أنه دعا أباه إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام بالرفق حيث قال (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا) وحكى في هذا الموضع أنه دعا أباه إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام بالكلام الحشن واللفظ الموحش . ومن المعامد أن من دعا غيره إلى الله تعالى فانه يقدم الرفق على العنف واللين على الغلظ ولا يخرض في التعنيف والتغليظ إلا بعد المدة المديدة واليأس التام . فدل هذا على أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن دعا أباه إلى التوحيد

مرارا وأطوارا ، ولا شك أنه إنما اشتغل بدعوة أبيه بعد فراغه من مهم نفسه . فثبت أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن عرف الله بمدة

﴿الحجة الرابعة﴾ أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن أراه الله ملكوت السموات والأرض حتى رأى من فوق العرش والكرسى وما تحتهما إلى ما تحت الثرى ، ومن كان منصبه في الدين كذلك ، وعلمه بالله كذلك ، كيف يليق به أن يعتقد الهية الكواكب ؟

﴿الحجة الخامسة﴾ أن دلائل الحدوث في الأفلاك ظاهرة من خمسة عشر وجهاً وأكثر ومع هذه الوجوه الظاهرة كيف يليق بأقل العقلاء نصيباً من العقل والفهم أن يقول بربوبية الكواكب فضلاً عن أعقل العقلاء وأعلم العلماء ؟

﴿الحجة السادسة﴾ أنه تعالى قال في صفة إبراهيم عليه السلام (إذ جاء ربه بقلب سليم) وأقل مراتب القلب السليم أن يكون سليماً عن الكفر ، وأيضاً مدحه فقال (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين) أي آتيناه رشده من قبل من أول زمان الفكرة . وقوله (وكنا به عالمين) أي بطهارته وكاله ونظيره قوله تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالاته)

﴿الحجة السابعة﴾ قوله (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين) أي وليكون بسبب تلك الآراء من الموقنين ثم قال بعده ﴿فلما جن عليه الليل﴾ والفاء تقتضى الترتيب ، فثبت أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن صار إبراهيم من الموقنين العارفين بربه

﴿الحجة الثامنة﴾ أن هذه الواقعة إنما حصلت بسبب مناظرة إبراهيم عليه السلام مع قومه ، والدليل عليه أنه تعالى لما ذكر هذه القصة قال (وتلك حجبتنا آتيناها إبراهيم على قومه) ولم يقل على نفسه ، فعلم أن هذه المباحثة إنما جرت مع قومه لاجل أن يرشدهم إلى الإيمان والتوحيد . لا لأجل أن إبراهيم كان يطلب الدين والمعرفة لنفسه

﴿الحجة التاسعة﴾ أن القوم يقولون إن إبراهيم عليه السلام إنما اشتغل بالنظر في الكواكب والقمر والشمس حال ما كان في الغار ، وهذا باطل . لأنه لو كان الأمر كذلك ، فكيف يقول (يا قوم انى برىء مما تشركون) مع أنه ما كان في الغار لا قوم ولا ضم

﴿الحجة العاشرة﴾ قال تعالى (وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله) وكيف يحاجونه وهم بعد ما رأوه وهو مارآهم ، وهذا يدل على أنه عليه السلام إنما اشتغل بالنظر في الكواكب والقمر والشمس بعد أن خالط قومه ورآهم يعبدون الأصنام ودعوه إلى عبادتها فذكر قوله (لا أحب الآفلين) رداً عليهم وتنبها لهم على فساد قلوبهم .

﴿الحجة الحادية عشر﴾ أنه تعالى حكى عنه أنه قال للقوم (وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله) وهذا يدل على أن القوم كانوا خوفوه بالأصنام . كما حكى عن قمر هود عليه السلام أنهم قالوا له (إن نقول إلا اعتراك بعض آهتنا بسوء) ومعلوم أن هذا الكلام لا يليق بالغار ﴿الحجة الثانية عشرة﴾ أن تلك الليلة كانت مسبوقة بالنهار ، ولا شك أن الشمس كانت طالعة في اليوم المتقدم ، ثم غربت ، فكان ينبغي أن يستدل بغروبها السابق على أنها لا تصلح للالهية ، وإذا بطل بهذا الدليل صلاحية الشمس للالهية بطل ذلك أيضا في القمر والكوكب بطريق الأولى هذا إذا قلنا : إن هذه الواقعة كان المقصود منها تحصيل المعرفة لنفسه . أما إذا قلنا المقصود منها الزام القوم والجاؤم ، فهذا السؤال غير وارد لأنه يمكن أن يقال أنه إنما اتعمقت مكالته مع القوم حال طلوع ذلك النجم ، ثم امتدت المناظرة إلى أن طلع القمر وطلعت الشمس بعده وعلى هذا التقدير ، فالسؤال غير وارد . فثبت بهذه الدلائل الظاهرة أنه لا يجوز أن يقال إن إبراهيم عليه السلام قال على سبيل الجزم : هذا ربي . وإذا بطل هذا بقي ههنا احتمالان : الأول : أن يقال هذا كلام إبراهيم عليه السلام بعد البلوغ ولكن ليس الغرض منه اثبات ربوبية الكوكب بل الغرض منه أحد أمور سبعة . الأول : أن يقال إن إبراهيم عليه السلام لم يقل هذا ربي . على سبيل الاخبار ، بل الغرض منه أنه كان يناظر عبدة الكوكب وكان مذهبهم أن الكوكب ربهم وآلهتهم . فذكر إبراهيم عليه السلام ذلك القول الذي قالوه بلفظهم وعبارتهم حتى يرجع إليه فيبطله . ومثاله : أن الواحد منا إذا ناظر من يقول بقدم الجسم . فيقول : الجسم قديم ؟ فإذا كان كذلك ، فلم نراه ونشاهده مركبا متغيرا ؟ فهو إنما قال الجسم قديم إعادة لكلام الخصم حتى يلزم المحال عليه . فكذا ههنا قال (هذا ربي) والمقصود منه حكاية قول الخصم . ثم ذكر عقبيه ما يدل على فسادة وهو قوله (لأحب الآفلين) وهذا الوجه هو المتعمد في الجواب . والدليل عليه : أنه تعالى دل في أول الآية على هذه المناظرة بقوله تعالى (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه)

﴿والوجه الثاني في التأويل﴾ أن نقول قوله (هذا ربي) معناه هذا ربي في زعمكم واعتقادكم ونظيره أن يقول الموحد للجسم على سبيل الاستهزاء : أن إلهه جسم محدود أي في زعمه واعتقاده قال تعالى (وانظر إلى الهك الذي ظلت عليه عاكفا) وقال تعالى (ويوم يناديهم فيقول أين شركائي) وكان صلوات الله عليه يقول : يا إله الآلهة . والمراد أنه تعالى إله الآلهة في زعمهم وقال (ذق إنك أنت العزيز الكريم) أي عند نفسك .

﴿والوجه الثالث في الجواب﴾ أن المراد منه الاستفهام على سبيل الإنكار إلا أنه أسقط

حرف الاستفهام استغناء عنه لدلالة الكلام عليه .

﴿والوجه الرابع﴾ أن يكون القول مضمرا فيه ، والتقدير : قال يقولون هذا ربى . واضمار القول كثير ، كقوله تعالى (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا) أى يقولون ربنا وقوله (والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدنهم إلى ليقيروننا إلى الله زلنى) أى يقولون مانعبدنهم ، فكذا ههنا التقدير : ان إبراهيم عليه السلام قال لقومه : يقولون هذا ربى . أى هذا هو الذى يدبرنى ويرينى .

﴿والوجه الخامس﴾ أن يكون إبراهيم ذكر هذا الكلام على سبيل الاستهزاء كما يقال لذليل ساد قوما هذا سيدكم على سبيل الاستهزاء .

﴿الوجه السادس﴾ أنه صلى الله عليه وسلم أراد أن يبطل قولهم بربوبية الكواكب إلا أنه عليه السلام كان قد عرف من تقليدهم لأسلافهم وبعدهم طباعهم عن قبول الدلائل أنه لو صرح بالدعوة إلى الله تعالى لم يقبلوه ولم يلتفتوا إليه . فمال إلى طريق به يستدرجهم إلى استماع الحججة . وذلك بأن ذكر كلاما يوهم كونه مساعدا لهم على مذهبهم بربوبية الكواكب مع أن قلبه صلوات الله عليه كان مطمئناً بالآيمان . ومقصود من ذلك أن يتمكن من ذكر الدليل على ابطاله وافساده وأن يقبلوا قوله . وتمام التقرير أنه لما يجد إلى الدعوة طريقا سوى هذا الطريق ، وكان عليه السلام مأمورا بالدعوة إلى الله كان بمنزلة المكروه على الكفر . ومعلوم أن عند الكراه يجوز اجراء كلمة الكفر على اللسان قال تعالى (الإمان أكرهه وقلبه مطمئن بالآيمان) فإذا جاز ذكر كلمة الكفر لمصاحبة بقاء شخص واحد فبأن يجوز اظهار كلمة الكفر لتخليص عالم من العقلاء عن الكفر والعقاب المؤبد كان ذلك أولى . وأيضا المكروه على ترك الصلاة لو صلى حتى قتل استحق الأجر العظيم ، ثم إذا جاء وقت القتال مع الكفار وعلم أنه لو اشتغل بالصلاة انهزم عسكر الاسلام فههنا يجب عليه ترك الصلاة والاشتغال بالقتال . حتى لو صلى وترك القتال أتم ولو ترك الصلاة وقاتل استحق الثواب . بل نقول : أن من كان فى الصلاة فرأى طفلا أو أعمى أشرف على غرق أو حرق وجب عليه قطع الصلاة لانقاذ ذلك الطفل أو ذلك الأعمى عن ذلك البلاء . فكذا ههنا أن إبراهيم عليه السلام تكلم بهذه الكلمة ليظهر من نفسه موافقة القوم حتى إذا أورد عليهم الدليل المبطل لقولهم كان قبولهم لذلك الدليل أتم وانتفاعهم باستماعه أكمل ، وبما يقوى هذا الوجه : أنه تعالى حكى عنه مثل هذا الطريق فى موضع آخر وهو قوله (فنظر نظرة فى النجوم فقال إني سقيم فمتولوا عنه مدبرين) وذلك لأنهم كانوا يستدلون بعلم النجوم على حصول الحوادث المستقبلية فوافقهم إبراهيم

على هذا الطريق في الظاهر مع أنه كان بريئاً عنه في الباطن . ومقصوده أن يتوصل بهذا الطريق إلى كسر الاصنام . فإذا جازت الموافقة في الظاهر ههنا . مع أنه كان بريئاً عنه في "باطن" . فلم لا يجوز أن يكون في مسألتنا كذلك ؟ وأيضا المتكلمون قالوا : أنه يصح من الله تعالى اظهار خوارق العادات على يد من يدعى الالهية لأن صورة هذا المدعى وتكلمه يدل على كذبه فلا يحصل فيه التلبس بسبب ظهور تلك الخوارق على يده . ولكن لا يجوز اظهارها على يد من يدعى النبوة لأنه يوجب التلبس فكذاههنا . وقوله (هذا ربى) لا يوجب الضلال ، لأن دلائل بطلانه جلية وفي اظهاره هذه الكلمة منفعة عظيمة وهي استدراجهم لقبول الدليل فكان جائزا والله أعلم .

﴿الوجه السابع﴾ أن القوم لما دعوه إلى عبادة النجوم فكانوا في تلك المناظرة إلى أن طلع النجم الدرى فقال إبراهيم عليه السلام (هذا ربى) أى هذا هو الرب الذى تدعونى إليه ثم سكنت زمانا حتى أفل ثم قال (لأحب الآفلين) فهذا تمام تقرير هذه الأجوبة على الاحتمال الأول وهو أنه صلوات الله عليه ذكر هذا الكلام بعد البلوغ .

﴿أما الاحتمال الثانى﴾ وهو أنه ذكره قبل البلوغ وعند القرب منه فتقريره أنه تعالى كان قد خص إبراهيم بالعقل الكامل والقريحة الصافية . فخطر بباله قبل بلوغه إثبات الصانع سبحانه فتمنكر فرأى النجم ، فقال (هذا ربى) فلما شاهد حركته قال (لأحب الآفلين) ثم إنه تعالى أكمل بلوغه فى أثناء هذا البحث فقال فى الحال (إنى برىء مما تشركون) فهذا الاحتمال لا بأس به . وإن كان الاحتمال الأول أولى بالقبول لما ذكرنا من الدلائل الكثيرة . على أن هذه المناظرة إنما جرت لابراهيم عليه السلام وقت اشتغاله بدعوة القوم إلى التوحيد والله أعلم .

﴿المسألة الرابعة﴾ قرأ أبو عمرو . وورش عن نافع (رئى) بفتح الراء وكسر الهمزة حيث كان . وقرأ ابن عامر وحمزة والسكسائى بكسرهما فاذا كان بعد الألف كاف أو هاء نحو : رآك ورأها فحينئذ يكسرها حمزة والسكسائى ويفتحها ابن عامر . وروى يحيى عن أبى بكر عن عاصم مثل حمزة والسكسائى فاذا تامة ألف وصل نحو : رأى الشمس . ورأى القمر . فان حمزة ويحيى عن أبى بكر ونصر بن السكسائى يكسرون الراء ويفتحون الهمزة والباقون يقرؤن جميع ذلك بفتح الراء والهمزة ، واتفقوا فى رأوك . ورأوه أنه بالفتح . قال الواحدى : أما من فتح الراء والهمزة فغنته واضحة وهى ترك الألف على الأصل نحو : رعى ورعى . وأما من فتح الراء وكسر الهمزة فإنه أمال الهمزة نحو الكسر ليميل الألف التى فى رأى نحو الياء وترك الراء مفتوحة على الأصل . وأما من كسرهما جميعاً فلاجل أن تصير حركة الراء مشابهة لحركة الهمزة ، والواحدى طول فى هذا الباب فى كتاب "السيط فليرجى إليه . والله أعلم .

المسألة الخامسة) القصة التي ذكرناها من أن إبراهيم عليه السلام ولد في الغار وتركته أمه وكان جبريل عليه السلام يريه كل ذلك محملاً في الجملة . وقال القاضي : كل ما يجري مجرى المعجزات فانه لا يجوز لأن تقديم المعجز على وقت الدعوى غير جائز عندهم . وهذا هو المسمى بالارهاص إلا إذا حضر في ذلك الزمان رسول من الله فتجعل تلك الخوارق معجزة لذلك النبي . وأما عند أصحابنا فالارهاص جائز فزالت الشبهة والله أعلم .

(المسألة السادسة) أن إبراهيم عليه السلام استدل بأفول الكوكب على أنه لا يجوز أن يكون رباً له وخالفاً له . ويجب علينا ههنا أن نبحث عن أمرين : أحدهما : أن الأفول ماهو ؟ والثاني : أن الأفول كيف يدل على عدم ربوبية الكوكب ؟ فنقول : الأفول عبارة عن غيبوبة الشيء بعد ظهوره .

وإذا عرفت هذا فلسائل أن يسأل . فيقول : الأفول إنما يدل على الحدوث من حيث أنه حركة وعلى هذا التقدير . فيكون الطلوع أيضاً دليلاً على الحدوث ، فلم ترك إبراهيم عليه السلام الاستدلال على حدوثها بالطلوع وعول في إثبات هذا المطلوب على الأفول ؟

والجواب : لاشك أن الطلوع والغروب يشتركان في الدلالة على الحدوث إلا أن الدليل الذي يحتج به الانبياء في معرض دعوة الخلق كلهم إلى الله لا بد وأن يكون ظاهراً جلياً بحيث يشترك في فهمه الذكي والغبي والعافل . ودلالة الحركة على الحدوث وإن كانت يقينية إلا أنها دقيقة لا يعرفها إلا الافاضل من الخلق . أما دلالة الأفول فانها دلالة ظاهرة يعرفها كل أحد ، فان الكوكب يزول سلطانه وقت الأفول فكانت دلالة الأفول على هذا المقصود أتم . وأيضاً قال بعض المحققين : الهوى في خطرة الامكان أفول ، وأحسن الكلام ما يحصل فيه حصة الخواص وحصة الاوساط وحصة العوام ، فالخواص يفهمون من الافول الامكان ، وكل تمكن محتاج ، والمحتاج : لا يكون مقطوع الحاجة ، فلا بد من الانتهاء إلى من يكون منزها عن الامكان حتى تنقطع الحاجات بسبب وجوده كما قال (وأن إلى ربك المنتهى) وأما الاوساط فانهم يفهمون من الافول مطلق الحركة ، فكل متحرك محدث ، وكل محدث فهو محتاج إلى القديم القادر . فلا يكون الآفل إلها بل الاله هو الذي احتاج اليه ذلك الآفل . وأما العوام فانهم يفهمون من الافول الغروب وهم يشاهدون أن كل كوكب يقرب من الافول والغروب فانه يزول نوره وينتقص ضوءه ويذهب سلطانه ويصير كالمعزول ومن يكون كذلك لا يصلح الالهية . فهذه الكلمة الواحدة أعنى قوله (لا أحب الآفلين) كلمة مشتملة على نصيب المقرين وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال . فكانت أكمل الدلائل وأفضل البراهين

وفيه دقيقة أخرى : وهو أنه عليه السلام إنما كان يناظرهم وهم كانوا منجمين . ومذهب أهل النجوم أن الكوكب إذا كان في الربع الشرقي ويكون صاعدا إلى وسط السماء كان قويا عظيم التأثير . أما إذا كان غربيا وقرىبامن الافول فانه يكون ضعيف التأثير قليل القوة . فنبه بهذه الدقيقة على أن الاله هو الذي لا تتغير قدرته إلى العجز وكاله إلى النقصان . ومذهبيكم أن الكوكب حال كونه في الربع الغربي ، يكون ضعيف القوة ، ناقص التأثير . عاجزا عن التسدير ، وذلك يدل على القدح في إلهيته . فظهر على قول المنجمين أن للافول مزيد خاصية في كونه موجبا للقدح في الهية والله أعلم .

﴿أما المقام الثاني﴾ وهو بيان أن كون الكوكب آفلا يمنع من ربوبيته . فلقاتل أيضا أن يقول : أقصى ما في الباب أن يكون أفوله دالا على حدوثه إلا أن حدوثه لا يمنع من كونه ربا لابراهيم ومعبوداله ، ألا ترى أن المنجمين وأصحاب الوسائط يقولون أن الاله الأكبر خالق الكواكب وأبدعها وأحدثها . ثم أن هذه الكواكب تخاق النباتات والحيوان في هذا العالم الأسفل . فثبت أن أفول الكواكب وان دل على حدوثها إلا أنه لا يمنع من كونها اربابا للانسان وآلهة لهذا العالم . والجواب : لنا ههنا مقامان :

﴿المقام الأول﴾ أن يكون المراد من الرب والاله الموجود الذي عنده تنقطع الحاجات ، ومتى ثبت بأفول الكواكب حدوثها ، وثبت في بداهة العقول أن كل ما كان محدثا ، فانه يكون في وجوده محتاجا إلى الغير . وجب القطع باحتياج هذه الكواكب في وجودها إلى غيرها . ومتى ثبت هذا المعنى امتنع كونها اربابا وآلهة . بمعنى أنه تنقطع الحاجات عند وجودها ، فثبت أن كونها آفلة يوجب القدح في كونها اربابا وآلهة بهذا التفسير

﴿المقام الثاني﴾ أن يكون المراد من الرب والاله . من يكون خالقا لنا وموجد الذاتنا وصفاتنا . فنقول : أفول الكواكب يدل على كونها عاجزة عن الخلق والايجاد وعلى انه لا يجوز عبادتها وبيانها من وجوه : الأول : ان أفولها يدل على حدوثها . وحدثها يدل على اقتقارها إلى فاعل قديم قادر ويجب أن نكون قادرة ذلك القادر أزلية . والا لا فتقرت قدرته إلى قادر آخر . ولزم التسلسل وهو محال ، فثبت أن قدرته أزلية

وإذا ثبت هذا فنقول : الشيء الذي هو : قدوره إنما صح كونه مقدورا له باعتبار إمكانه والإمكان واحد في كل الممكنات . فثبت أن ما لأجله صار بعض الممكنات مقدورا لله تعالى فهو حاصل في كل الممكنات ، فوجب في كل الممكنات أن تكون مقدورة لله تعالى

وإذا ثبت هذا امتنع وقوع شيء من الممكنات بغيره على ما بينا صحة هذه المقامات بالدلائل اليقينة في علم الأصول

فالحاصل انه ثبت بالدليل ان كون الكواكب آفة يدل على كونها محدثة ، وان كان لا يثبت هذا المعنى إلا بواسطة مقدمات كثيرة ، وأيضا فكونها في نفسها محدثة يوجب القول بامتناع كونها قادرة على الابداع والايجاد ، وان كان لا يثبت هذا المعنى إلا بواسطة مقدمات كثيرة . ودلائل القرآن إنما يذكر فيها أصول المقدمات ، فأما التفريع والتفصيل ، فذاك إنما يليق بعلم الجدل . فلما ذكر الله تعالى هاتين المقدمتين على سبيل الرمز لاجرم اكتفى بذكرهما في بيان أن الكواكب لا قدرة لها على الابداع والايجاد . فلهذا السبب استدل ابراهيم عليه السلام بأفولها على امتناع كونها أربابا وآلهة لحوادث هذا العالم

﴿الوجه الثاني﴾ ان أفول الكواكب يدل على حدوثها وحدوثها يدل على افتقارها في وجودها إلى القادر المختار . فيكون ذلك الفاعل هو الخالق للأفلاك والكواكب ، ومن كان قادرا على خلق الكواكب والأفلاك من دون واسطة أى شيء كان فبأن يكون قادرا على خلق الانسان أولى . لأن القادر على خلق الشيء الأعظم لابد وأن يكون قادرا على خلق الشيء الاضعف ، واليه الإشارة بقوله تعالى (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) وبقوله (أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخالق العليم) فثبت بهذا الطريق أن الاله الأكبر يجب أن يكون قادرا على خلق البشر ، وعلى تدبير العالم الاسفل بدون واسطة الاجرام الفلكية وإذا كان الأمر كذلك كان الاشتغال بعبادة الاله الأكبر أولى من الاشتغال بعبادة الشمس والنجوم والقمر .

﴿الوجه الثالث﴾ أنه لو صح كون بعض الكواكب موجدة وخالقة . لبقى هذا الاحتمال في الكل . وحينئذ لا يعرف الانسان أن خالقه هذا الكوكب . أو ذلك الآخر أو مجموع الكواكب . فيبقى شاكا في معرفة خالقه . أما لو عرفنا الكل وأسندنا الخلق والايجاد والتدبير الى خالق الكل فحينئذ يمكننا معرفة الخالق والموجد وبمكنتنا الاشتغال بعبادته وشكره ، فثبت بهذه الوجوه أن أفول الكواكب كما يدل على امتناع كونها قديمة فكذلك يدل على امتناع كونها آلهة لهذا العالم وأربابا للحيوان والانسان . والله أعلم . فهذا تمام الكلام في تقرير هذا الدليل .

فان قيل : لاشك أن تلك الليلة كانت مسبوقة بنهار وليل ، وكان أفول الكواكب والقمر والشمس حاصلا في الليل السابق والنهار السابق وبهذا التقرير لا يبقى للأفول الحاصل في تلك الليلة مزيد فائدة .

والجواب أنا بينا أنه صلوات الله عليه إنما أورد هذا الدليل على الأقوام الذين كان يدعوهم من عبادة النجوم إلى التوحيد . فلا يبعد أن يقال أنه عليه السلام كان جالسا مع أولئك الأقوام ليلة من الليالي وزجرهم عن عبادة الكواكب فبينما هو في تقرير ذلك الكلام إذ وقع بصره على كوكب مضى . فلما أفل قال إبراهيم عليه السلام لو كان هذا الكوكب إلها لما انتقل من الصعود إلى الأفول ومن القوة إلى الضعف . ثم في أثناء ذلك الكلام طلع القمر وأفل . فأعاد عليهم ذلك الكلام . وكذا القول في الشمس ، فهذا جملة ما يحضرنا في تقرير دليل إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه .

(المسألة السادسة) تفلسف الغزالي في بعض كتبه وحمل الكوكب على النفس الناطقة الحيوانية التي لكل كوكب ، والقمر على النفس الناطقة التي لكل فلک ، والشمس على العقل المجرد الذي لكل ذلك ، وكان أبو علي بن سينا يفسر الأفول بالامكان . فزعم الغزالي أن المراد بأفولها إمكانها في نفسها ، وزعم أن المراد من قوله (لأحب الآفلين) أن هذه الأشياء بأسرها بمكنة الوجود لذواتها . وكل يمكن فلا بد له من مؤثر . ولا بد له من الانتهاء إلى واجب الوجود .

واعلم أن هذا الكلام لا بأس به . إلا أنه يبعد حمل لفظ الآية عليه . ومن الناس من حمل الكوكب على الحس والقمر على الخيال والوهم . والشمس على العقل . والمراد أن هذه القوى المدركة الثلاثة قاصرة متناهية ، ومدبر العالم مستول عليها قاهر لها والله أعلم .

(المسألة السابعة) دل قوله (لأحب الآفلين) على أحكام :

الحكم الأول

هذه الآية تدل على أنه تعالى ليس بجسم إذ لو كان جسما لكان غائبا عنا أبدا فكان آفلا أبدا . وأيضا يمتنع أن يكون تعالى ينزل من العرش إلى السماء تارة ويصعد من السماء إلى العرش أخرى . والا لحصل معنى الأفول

الحكم الثاني

هذه الآية تدل على أنه تعالى ليس محلا للصفات المحدثة كما تقول الكرامية . وإلا لكان متغيرا . وحينئذ يحصل معنى الأفول ، وذلك محال .

الحكم الثالث

تدل هذه الآية على أن الدين يجب أن يكون مبني على الدليل لا على التقليد . وإلا لم يكن لهذا

الحكم الرابع

تدل هذه الآية على أن معارف الأنبياء برههم استدلالية لا ضرورية، وإلا لما احتاج إبراهيم إلى الاستدلال .

الحكم الخامس

تدل على هذه الآية على أنه لا طريق إلى تحصيل معرفة الله تعالى إلا بالنظر والاستدلال في أحوال مخلوقاته، إذ لو أمكن تحصيلها بطريق آخر لما عدل إبراهيم عليه السلام إلى هذه الطريقة والله أعلم أما قوله تعالى ﴿ فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ﴾ ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ يقال : بزغ القمر إذا ابتدأ في الطلوع ، وبزغت الشمس إذا بدأ منها طلوع . ونجوم بوازغ . قال الأزهري : كأنه مأخوذ من البزغ وهو الشق كأنه بنوره يشق الظلمة شقا ، ومعنى الآية أنه اعتبر في القمر مثل ما اعتبر في الكوكب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ دل قوله (لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين) على أن الهداية ليست إلا من الله تعالى . ولا يمكن حمل لفظ الهداية على التمكن وإزاحة الأعذار ونصب الدلائل . لأن كل ذلك كان حاصلًا ، فالهداية التي كان يطلبها بعد حصول تلك الأشياء لا بد وأن تكون زائدة عليها .

واعلم أن كون إبراهيم عليه السلام على مذهبنا أظهر من أن يشتبه على العاقل لأنه في هذه الآية أضاف الهداية إلى الله تعالى ، وكذا في قوله (الذي خلقني فهو يهدين) وكذا في قوله (واجنبي وبني أن نعبد الأصنام)

أما قوله ﴿ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ إنما قال في الشمس هذا مع أنها مؤنثة ، ولم يقل هذه لوجوه : أحدها : أن الشمس بمعنى الضياء والنور ، فحمل اللفظ على التأويل فذكر . وثانيها : أن الشمس لم يحصل فيها علامة التأنيث ، فلما أشبه لفظها المذكر وكان تأويلها تأويل النور صلح التذكير من هاتين الجهتين ، وثالثها : أراد هذا الطالع أو هذا الذي أراه ، ورابعها : المقصود منه رعاية الأدب ، وهو ترك التأنيث عند ذكر اللفظ الدال على الربوبية

﴿المسألة الثانية﴾ قوله (هذا أكبر) المراد منه أكبر الكواكب جرماً وأقواها قوة . فكان

أولى بالآلية

فان قيل : لما كان الأفول حاصل في الشمس والأفول يمنع من صفة الربوبية . وإذا ثبت امتناع صفة الربوبية للشمس كان امتناع حصولها للقمر ولسائر الكواكب أولى . وبهذا الطريق يظهر أن ذكر هذا الكلام في الشمس يغني عن ذكره في القمر والكواكب . فلم لم يقتصر على ذكر الشمس رعاية للايجاز والاختصار ؟

قلنا : ان الأخذ من الأدون فالأدون . مترقياً إلى الأعلى فالأعلى . له نوع تأثير في التقرير والبيان والتأكيد لا يحصل من غيره ، فكان ذكره على هذا الوجه أولى

أما قوله ﴿قال يا قوم إني بريء مما تشركون﴾ فالمعنى أنه لما ثبت بالدلائل أن هذه الكواكب لا تصلح للربوبية والآلية ، لا جرم تبرأ من الشرك

ولقائل أن يقول : هب انه ثبت بالدليل ان الكواكب والشمس والقمر لا تصلح للربوبية والآلية لكن لا يلزم من هذا القدر نفي الشرك مطلقاً وإثبات التوحيد ، فلم فرع على قيام الدليل على كون هذه الكواكب غير صالحة للربوبية الجزم بإثبات التوحيد مطلقاً

والجواب : أن القوم كانوا مساعدين على نفي سائر الشركاء وإنما نازعوا في هذه الصورة المعينة فلما ثبت بالدليل أن هذه الأشياء ليست أرباباً ولا آلهة ، وثبت بالاتفاق نفي غيرها لا جرم حصل الجزم بنفي الشركاء على الإطلاق

أما قوله ﴿إني وجهت وجهي﴾ ففيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ فتح الباء من (وجهي) نافع وابن عامر وحفص عن عاصم . والباقون تركوا

هذا الفتح

﴿المسألة الثانية﴾ هذا الكلام لا يمكن حمله على ظاهره . بل المراد وجهت عبادتي وطاعتي . وسبب جواز هذا المجاز أن من كان مطيعاً لغيره ، نقاداً لأمره . فإنه يتوجه بوجهه إليه . فجعل توجيهه الوجه إليه كناية عن الطاعة

وأما قوله ﴿للذي فطر السموات والأرض﴾ ففيه دقيقة : وهي أنه لم يقل وجهت وجهي إلى الذي فطر السموات والأرض . بل ترك هذا اللفظ وذكر قوله (وجهت وجهي للذي) والمعنى : أن توجيهه وجه القلب ليس إليه . لأنه متعال عن الخيز والجهة . بل توجيهه وجه القلب إلى خدمته وطاعته لأجل عبوديته . فترك كلمة «إلى» هنا والاكتفاء بحرف اللام دليل ظاهر على كون المعبود

وَحَاجَهُ قَوْمَهُ قَالَ أَنحَاجُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ

إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ «٨٠»

متعاليا عن الخبز والجهة ، ودعني فطر أخرجهما إلى الوجود ، وأصله من الشق، يقال : تفطر الشجر بالورق والورد إذا أظهرهما ، وأما الحنيف فهو المائل قال أبو العالية : الحنيف الذي يستقبل البيت في صلاته ، وقيل أنه العادل عن كل معبود دون الله تعالى

قوله تعالى ﴿وَحَاجَهُ قَوْمَهُ قَالَ أَنحَاجُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾

اعلم أن إبراهيم عليه السلام لما أورد عليهم الحجّة المذكورة ، فالقوم أوردوا عليه حججا على صحة أقوالهم ، منها أنهم تمسكوا بالتقليد كقولهم (إنا وجدنا آباءنا على أمة) وكقولهم للرسول عليه السلام (أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب) ومنها : أنهم خوفوه بأنك لما طعنت في إلهية هذه الأصنام وقعت من جهة هذه الأصنام في الآفات والبلبات ، ونظيره ما حكاه الله تعالى في قصة قوم هود (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) فذكروا هذا الجنس من الكلام مع إبراهيم عليه السلام

فأجاب الله عن حججهم بقوله (قال أنحاجوني في الله وقد هدان) يعني لما ثبت بالدليل الموجب للهداية واليقين صحة قولي ، فكيف يلتفت إلى حججتكم العلية ، وكلماتكم الباطلة وأجاب عن حججهم الثانية وهي : أنهم خوفوه بالأصنام بقوله (ولا أخاف ما تشركون به) لأن الخوف إنما يحصل لمن يقدر على النفع والضرر، والأصنام جمادات لا تقدر ولا قدرة لها على النفع والضرر ، فكيف يحصل الخوف منها ؟

فان قيل : لا شك أن للطلسمات آثارا مخصوصة ، فلم لا يجوز أن يحصل الخوف منها من هذه الجهة ؟

قلنا : الطلمسم يرجع حاصله إلى تأثيرات الكواكب ، وقد دللنا على أن قوى الكواكب على التأثيرات إنما يحصل من خالق الله تعالى فيكون الرجاء والخوف في الحقيقة ليس إلا من الله تعالى .

وأما قوله ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي﴾ ففيه وجوه : أحدها : إلا إن أذنب فيشاء إنزال العقوبة بي .

وثانيتها : إلا أن يشاء أن يتلبنى بحسن الدنيا فيقطع عنى بعض عادات نعمه . وثالثها : إلا أن يشاء ربى فأخاف ما تشركون به بأن يحييها ويمكنها من ضرى ونفعى ويقدرها على إيصال الخير والشر إلى ، واللفظ يحتمل كل هذه الوجوه ، وحاصل الأمر أنه لا يبعد أن يحدث للانسان فى مستقبل عمره شىء من المكاره ، والتمنى من الناس يحملون ذلك على أنه إنما حدث ذلك المكروه بسبب أنه طعن فى إلهية الأصنام ، فذكر ابراهيم عليه السلام ذلك حتى لو أنه حدث به شىء من المكاره لم يحمل على هذا السبب .

ثم قال عليه السلام ﴿وسع ربى كل شىء علما﴾ يعنى أنه علام الغيوب فلا يفعل إلا الصلاح والخير والحكمة ، فبتقدير : أن يحدث من مكاره الدنيا فذاك . لأنه تعالى عرف وجه الصلاح والخير فيه لا لأجل أنه عقوبة على الطعن فى الهية الاصنام .

ثم قال ﴿أفلا تتذكرون﴾ والمعنى : أفلا تتذكرون أن نفى الشركاء والاضداد والانداد عن الله تعالى لا يوجب حلول العقاب ونزول العذاب ، والسعى فى اثبات التوحيد والتنزيه لا يوجب استحقاق العقاب . والله أعلم

﴿المسألة الثانية﴾ قرأ نافع وابن عامر (أتحاجونى) خفيفة النون على حذف أحد النونين والباقون على التشديد على الادغام . وأما قوله (وقد هدانى) قرأ نافع وابن عامر (هدانى) بإثبات الياء على الاصل والباقون بحذفها للتخفيف .

﴿المسألة الثالثة﴾ أن ابراهيم عليه السلام حاجهم فى الله وهو قوله (لا أحب الآفلين) والقوم أيضا حاجوه فى الله . وهو قوله تعالى خيرا عنهم (وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله) فحصل لنا من هذه الآية أن المحاجة فى الله تارة تكون موجبة للمدح العظيم والثناء البالغ . وهى المحاجة التى ذكرها ابراهيم عليه السلام ، وذلك المدح والثناء هو قوله تعالى (وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه) وتارة تكون موجبة للذم وهو قوله (قال أتحاجونى فى الله) ولا فرق بين هذين البابين إلا أن المحاجة فى تقرير الدين الحق توجب أعظم أنواع المدح والثناء ، والمحاجة فى تقرير الدين الباطل توجب أعظم أنواع الذم والزجر .

وإذا ثبت هذا الأصل صار هذا قانونا معتبرا . فكل موضع جاء فى القرآن والخبار يدل على تهجين أمر المحاجة والمناظرة فهو محمول على تقرير الدين الباطل . وكل موضع جاء يدل على مدحه فهو محمول على تقرير الدين الحق والمذهب الصدق . والله أعلم .

وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ
عَايَتُكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ «٨١» الَّذِينَ آمَنُوا
وَلَمْ يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ «٨٢»

قوله تعالى ﴿وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالامن إن كنتم تعلمون الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الامن وهم مهتدون﴾

اعلم أن هذا من بقية الجواب عن الكلام الأول ، والتقدير : وكيف أخاف الأصنام التي لا قدرة لها على النفع والضرر ، وأنتم لا تخافون من الشرك الذي هو أعظم الذنوب . وقوله (ما لم ينزل به عليكم سلطانا) فيه وجهان : الأول : أن قوله (ما لم ينزل به عليكم سلطانا) كناية عن امتناع وجود الحججة والباطان في مثل هذه القصة . ونظيره قوله تعالى (ومن يدع مع الله إلها آخر لا ربهان له به) والمراد منه امتناع حصول البرهان فيه ، والثاني : أنه لا يمتنع عقلا أن يؤمر باتخاذ تلك التماثيل والصور قبلة للدعاء والصلاة فقولوه (ما لم ينزل به سلطانا) معناه : عدم ورود الأمر به . وحاصل هذا الكلام : ما لكم تنكرون على الأمن في موضع الأمن ، ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف ؟ ولم يقل : فأينا أحق بالأمن أنا أم أنتم ؟ احترازا من تزكية نفسه فعدل عنه إلى قوله (فأى الفريقين) يعنى فريقى المشركين والموحدين . ثم استأنف الجواب عن السؤال بقوله (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) وهذا من تمام كلام ابراهيم في المحاجة ، والمعنى : أن الذين حصل لهم الأمن المطلق هم الذين يكونون مستجمعين لهذين الوصفين : أولهما : الايمان وهو كمال القوة النظرية . وثانيهما (ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) وهو كمال القوة العملية .

ثم قال ﴿ أولئك لهم الامن وهم مهتدون ﴾ اعلم أن اصحابنا يتمسكون بهذه الآية من وجه والمعتزلة يتمسكون بها من وجه آخر . أما وجه تمسك اصحابنا فهو أن نقول إنه تعالى شرط في الايمان الموجب للامن عدم الظلم . ولو كان ترك الظلم أحد أجزاء مسمى الايمان لكان هذا التقييد عبثا ، فثبت أن الفاسق مؤمن وبطل به قول المعتزلة ، وأما وجه تمسك المعتزلة بها فهو أنه تعالى شرط في حصول الامن حصول الأمرين ، الايمان وعدم الظلم ، فوجب أن لا يحصل الامن للفاسق وذلك يوجب حصول الوعيد له .

وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأِهِ إِنَّ رَبَّكَ

حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

وأجاب أصحابنا عنه من وجهين :

﴿الوجه الأول﴾ أن قوله (ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) المراد من الظلم الشرك ، لقوله تعالى حكاية عن لقمان إذ قال لابنه (يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) فالمراد ههنا الذين آمنوا بالله ولم يثبتوا لله شريكا في العبودية .

والدليل على أن هذا هو المراد أن هذه القصة من أولها إلى آخرها إنما وردت في نفي الشركاء والاضداد والانداد ، وليس فيها ذكر الطاعات والعبادات ، فوجب حمل الظلم ههنا على ذلك .

﴿الوجه الثاني﴾ في الجواب : أن وعيد الفاسق من أهل الصلاة يحتمل أن يعذبه الله ، ويحتمل أن يعفو عنه ، وعلى كلا التقديرين : فالآمن زائل والخوف حاصل ، فلم يلزم من عدم الأمن القطع بحصول العذاب ؟ والله أعلم .

قوله تعالى ﴿وتلك حجتنا آتينها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم﴾ وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قوله (وتلك) إشارة إلى كلام تقدم وفيه وجوه : الأول : أنه إشارة إلى قوله (لا أحب الآفلين) والثاني : أنه إشارة إلى أن القوم قالوا له : أما تخاف أن نخبلك آلهتنا لأجل أنك شتمتهم . فقال لهم : أفلا تخافون أتم حيث أقدمتم على الشرك بالله وسويتم في العبادة بين خالق العالم ومدبره وبين الخشب المنحوت والصنم المعمول ؟ والثالث : أن المراد هو الكل .

إذا عرفت هذا فنقول : قوله (وتلك) مبتدأ وقوله (حجتنا) خبره وقوله (آتينها إبراهيم) صفة لذلك الخبر .

﴿المسألة الثانية﴾ قوله (وتلك حجتنا آتينها إبراهيم) يدل على أن تلك الحجة إنما حصلت في عقل إبراهيم عليه السلام باتباء الله وبإظهاره تلك الحجة في عقله . وذلك يدل على أن الإيمان والكفر لا يحصلان إلا بخلق الله تعالى . ويتأكد هذا أيضا بقوله (نرفع درجات من نشاء) فإن المراد أنه تعالى رفع درجات إبراهيم بسبب أنه تعالى آتاه تلك الحجة ، ولو كان حصول العلم بتلك الحجة إنما كان من قبل إبراهيم لآمن قبل الله تعالى لكان إبراهيم عليه السلام هو الذي رفع درجات نفسه

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كِلَاهُمَا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ
وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ «٨٤»

وحينئذ كان قوله (نرفع درجات من نشاء) باطلا . فثبت أن هذا صريح قولنا في مسألة الهدى والضلال
﴿المسألة الثالثة﴾ هذه الآية من أدل الدلائل على فساد قول الحشوية في الطعن في النظر وتقرير
الحجة وذكر الدليل . لأنه تعالى أثبت لإبراهيم عليه السلام حصول الرفعة والفوز بالدرجات العالية ،
لأجل أنه ذكر الحجة في التوحيد وقررها وذب عنها وذلك يدل على أنه لا مرتبة بعد النبوة والرسالة
أعلى وأشرف من هذه المرتبة .

﴿المسألة الرابعة﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي (درجات) بالتنوين من غير إضافة والباقون
بالإضافة ، فالقراءة الأولى معناها : نرفع من نشاء درجات كثيرة ، فيكون «من» في موضع
النصب . قال ابن مقسم : هذه القراءة أدل على تفضيل بعضهم على بعض في المنزلة والرفعة . وقال
أبو عمرو : الإضافة تدل على الدرجة الواحدة وعلى الدرجات الكثيرة والتنوين لا يدل إلا على
الدرجات الكثيرة .

﴿المسألة الخامسة﴾ اختلفوا في تلك الدرجات . قيل : درجات أعماله في الآخرة ، وقيل :
تلك الحجج درجات رفيعة . لأنها توجب الثواب العظيم . وقيل : نرفع من نشاء في الدنيا بالنبوة
والحكمة . وفي الآخرة بالجنة والثواب . وقيل : نرفع درجات من نشاء بالعلم . واعلم أن هذه
الآية من أدل الدلائل على أن كمال السعادة في الصفات الروحانية وفي البعد عن الصفات الجسمانية .
والدليل عليه : أنه تعالى قال (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه)

ثم قال بعده (نرفع درجات من نشاء) وذلك يدل على أن الموجب لحصول هذه الرفعة هو إيتاء
تلك الحجة ، وهذا يقتضى أن وقوف النفس على حقيقة تلك الحجة وإطلاعها على إشراقها اقتضت
ارتقاع الروح من حضيض العالم الجسمانى ، إلى أعالي العالم الروحانى . وذلك يدل على أنه لا رفعة
ولا سعادة إلا في الروحانيات . والله أعلم .

وأما معنى (حكيم عليهم السلام) فالمعنى أنه إنما يرفع درجات من يشاء بمقتضى الحكمة والعلم ، لا بموجب
الشهوة والمجازفة . فإن أفعال الله منزهة عن العبث والفساد والباطل .

قوله تعالى ﴿ ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود

وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَىٰ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ «٨٥» وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ
 وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكَلَّا فَضَلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ «٨٦» وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ
 وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ «٨٧» ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن
 يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ «٨٨»

وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجى المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس
 كل من الصالحين . وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين . ومن آبائهم وذرياتهم
 وإخوانهم واجتبتناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم . ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ولو
 أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴿

في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنه تعالى لما حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه أظهر حجة الله تعالى
 في التوحيد ونصرها وذب عنها عدد وجوه نعمه وإحسانه عليه . فأولها : قوله : (وتلك حجتنا
 آتيناها إبراهيم) والمراد إنا نحن آتينا تلك الحجة وهديناه إليها وأوقفنا عقله على حقيقتها . وذكر
 نفسه باللفظ الدال على العظمة وهو كناية لجمع على وفق ما يقوله عطاء الملوك . فعلنا . وقلنا .
 وذكرنا . ولما ذكر نفسه تعالى ههنا باللفظ الدال على العظمة وجب أن تكون تلك العظمة
 عظمة كاملة رفيعة شريفة ، وذلك يدل على أن إتياء الله تعالى إبراهيم عليه السلام تلك الحجة من
 أشرف النعم ، ومن أجل مراتب العطايا والمواهب . وثانيها : أنه تعالى خصه بالرفعة والاتصال إلى
 الدرجات العالية الرفيعة . وهى قوله (نرفع درجات من نشاء) وثالثها : أنه جعله عزيزاً في الدنيا .
 وذلك لأنه تعالى جعل أشرف الناس وهم الأنبياء والرسل من نسله . ومن ذريته وأبقى هذه الكرامة
 فى نسله إلى يوم القيامة ، لأن من أعظم أنواع السرور علم المرء بأنه يكون من عقبه الأنبياء والملوك ،
 والمقصود من هذه الآيات تعدد أنواع نعم الله على إبراهيم عليه السلام جزاء على قيامه بالذب
 عن دلائل التوحيد ، فقال (ووهبنا له إسحاق) لصلبه (ويعقوب) بعده من إسحاق .

فان قالوا : لم يذكر إسماعيل عليه السلام مع إسحاق ، بل آخر ذكره عنه بدرجات ؟ قلنا : لأن
 المقصود بالذكر ههنا أنبياء بنى إسرائيل . وهم بأسرهم أولاد إسحاق ويعقوب . وأما إسماعيل فانه

ماخرج من صلبه أحد من الأنبياء إلا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا يجوز ذكر محمد عليه الصلاة والسلام في هذا المقام ، لأنه تعالى أمر محمداً عليه الصلاة والسلام أن يحتج على العرب في نفي الشرك بالله بأن إبراهيم لما ترك الشرك وأصر على التوحيد رزقه الله النعم العظيمة في الدين والدنيا ، ومن النعم العظيمة في الدنيا أن آتاه الله أولاداً كانوا أنبياء وملوكاً . فإذا كان المحتج بهذه الحجة هو محمد عليه الصلاة والسلام امتنع أن يذكر نفسه في هذا المعرض . فلهذا السبب لم يذكر إسماعيل مع إسحق .

وأما قوله «ونوحا هدينا من قبل» فالمراد أنه سبحانه جعل إبراهيم في أشرف الأنساب . وذلك لأنه رزقه أولاداً مثل إسحق ، ويعقوب . وجعل أنبياء بني إسرائيل من نسلهما ، وأخرجه من أصلاب آباء طاهرين مثل نوح . وإدريس ، وشيث . فالمقصود بيان كرامة إبراهيم عليه السلام بحسب الأولاد وبحسب الآباء .

أما قوله «ومن ذريته داود وسليمان» فقول المراد ومن ذرية نوح ، ويدل عليه وجوه : الأول : أن نوحاً أقرب المذكورين وعود الضمير إلى الأقرب واجب . الثاني : أنه تعالى ذكر في جملتهم لوطاً وهو كان ابن أخ إبراهيم وما كان من ذريته ، بل كان من ذرية نوح عليه السلام ، وكان رسولاً في زمان إبراهيم . الثالث : أن ولد الإنسان لا يقال أنه ذريته ، فعلى هذا إسماعيل عليه السلام ما كان من ذرية إبراهيم ، بل هو من ذرية نوح عليه السلام . الرابع : قيل إن يونس عليه السلام ما كان من ذرية إبراهيم عليه السلام ، وكان من ذرية نوح عليه السلام .

«والقول الثاني» أن الضمير عائد إلى إبراهيم عليه السلام ، والتقدير : ومن ذرية إبراهيم داود وسليمان . واحتج القائلون بهذا القول : بأن إبراهيم هو المقصود بالذكر في هذه الآيات وإمّا ذكر الله تعالى نوحاً لأن كون إبراهيم عليه السلام من أولاده أحد موجبات رفعة إبراهيم .

واعلم أنه تعالى ذكر أولاً أربعة من الأنبياء ، وهم : نوح ، وإبراهيم ، وإسحق ، ويعقوب . ثم ذكر من ذريتهم أربعة عشر من الأنبياء : داود ، وسليمان ، وأيوب ، ويوسف ، وموسى ، وهرون ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، وإلياس ، وإسماعيل ، واليسع ، ويونس ، ولوطاً ، والمجموع ثمانية عشر .

فان قيل : رعاية الترتيب واجبة . والترتيب إما أن يعتبر بحسب الفضل والدرجة وإما أن يعتبر بحسب الزمان والمدة ، والترتيب بحسب هذين النوعين غير معتبر في هذه الآية فما السبب فيه؟ قلنا : الحق أن حرف الواو لا يوجب الترتيب ، وأحد الدلائل على صحة هذا المطلوب هذه الآية فان حرف الواو حاصل ههنا مع أنه لا يفيد الترتيب البتة ، لا بحسب الشرف ولا بحسب الزمان

وأقول عندى فيه وجه من وجوه الترتيب ، وذلك لأنه تعالى خص كل طائفة من طوائف الأنبياء بنوع من الاكرام والفضل .

فمن المراتب المعتبرة عند جمهور الخلق : الملك والسلطان والقدرة . والله تعالى قد أعطى داود وسليمان من هذا الباب نصيبا عظيما .

﴿والمرتبة الثانية﴾ البلاء الشديد والمحنة العظيمة . وقد خص الله أيوب بهذه المرتبة والخاصية .

﴿والمرتبة الثالثة﴾ من كان مستجمعا لهاتين الحالتين . وهو يوسف عليه السلام . فإنه نال البلاء

الشديد الكثير فى أول الأمر ، ثم وصل إلى الملك فى آخر الأمر .

﴿والمرتبة الرابعة﴾ من فضائل الأنبياء عليهم السلام وخواصهم قوة المعجزات وكثرة

البراهين والمهابة العظيمة والصولة الشديدة وتخصيص الله تعالى إياهم بالتقريب العظيم والتكريم التام ، وذلك كان فى حق موسى وهرون .

﴿والمرتبة الخامسة﴾ الزهد الشديد والاعراض عن الدنيا ، وترك مخالطة الخلق ، وذلك كفى

حق زكريا ويحيى وعيسى وإلياس . ولهذا السبب وصفهم الله بأنهم من الصالحين .

﴿والمرتبة السادسة﴾ الأنبياء الذين لم يبق لهم فيما بين الخلق أتباع وأشياع ، وهم إسماعيل ،

واليسع ، ويونس ، ولوط . فاذا اعتبرنا هذا الوجه الذى راعيناه ظهر أن الترتيب حاصل فى ذكر هؤلاء الأنبياء عليهم السلام بحسب هذا الوجه الذى شرحناه .

﴿المسألة الثانية﴾ قال تعالى (ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا) اختلفوا فى أنه تعالى إلى

ماذا هداهم؟ وكذا الكلام فى قوله (ونوحا هدينا من قبل) وكذا قوله فى آخر الآية (ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده)

قال بعض المحققين : المراد من هذه الهداية الثواب للعظيم . وهى الهداية إلى طريق الجنة . وذلك

لأنه تعالى لما ذكر هذه الهداية قال بعدها (وكذلك نجزي المحسنين) وذلك يدل على أن تلك الهداية كانت جزاء المحسنين على إحسانهم وجزاء المحسن على إحسانه لا يكون إلا الثواب . فثبت أن المراد

من هذه الهداية هو الهداية إلى الجنة . فأما الارشاد إلى الدين وتحصيل المعرفة فى قلبه . فإنه لا يكون جزاء له على عمله ، وأيضا لا يبعد أن يقال : المراد من هذه الهداية هو الهداية إلى الدين والمعرفة .

وإمما ذلك كان جزاء على الاحسان الصادر منهم . لأنهم احتهدوا فى طلب الحق . فأنه تعالى جازاهم على حسن طلبهم بإيصالهم الى الحق . كما قال (والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا)

﴿والقول الثالث﴾ أن المراد من هذه الهداية : الارشاد الى النبوة والرسالة . لأن الهداية

المخصوصة بالأنبياء ليست إلا ذلك .

فان قالوا: لو كان الأمر كذلك لكان قوله (وكذلك نجزي المحسنين) يقتضى أن تكون الرسالة جزءا على عمل ، وذلك عندكم باطل .

قلنا: يحمل قوله (وكذلك نجزي المحسنين) على الجزاء الذى هو الثواب والكرامة ، فيزول الاشكال . والله أعلم .

﴿المسألة الثالثة﴾ احتج القائلون بأن الأنبياء عليهم السلام أفضل من الملائكة بقوله تعالى بعد ذكر هؤلاء عليهم السلام (وكلا فضلنا على العالمين) وذلك لأن العالم اسم لسكل موجود سوى الله تعالى ، فيدخل فى لفظ العالم الملائكة ، فقوله تعالى (وكلا فضلنا على العالمين) يقتضى كونهم أفضل من كل العالمين . وذلك يقتضى كونهم أفضل من الملائكة ، ومن الأحكام المستنبطة من هذه الآية: أن الأنبياء عليهم السلام يجب أن يكونوا أفضل من كل الأولياء ، لأن عموم قوله تعالى (وكلا فضلنا على العالمين) يوجب ذلك . قال بعضهم (وكلا فضلنا على العالمين) معناه فضلناه على عالمي زمانهم . قال القاضى : ويمكن أن يقال المراد : وكلا من الأنبياء يفضلون على كل من سواهم من العالمين . ثم الكلام بعد ذلك فى أن أى الأنبياء أفضل من بعض . كلام واقع فى نوع آخر لا تعلق له بالأول والله أعلم .

﴿المسألة الرابعة﴾ قرأ حمزة والكسائى (واليسع) بتشديد اللام وسكون الياء ، والباقون (واليسع) بلام واحدة . قال الزجاج : يقال فيه الليسع واليسع بتشديد اللام وتخفيفها .

﴿المسألة الخامسة﴾ الآية تدل على أن الحسن والحسين من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن الله تعالى جعل عيسى من ذرية ابراهيم مع أنه لا ينتسب الى ابراهيم إلا بالأم ، فكذلك الحسن والحسين من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن انتسبا الى رسول الله بالأم وجب كونهما من ذريته ، ويقال : إن أبا جعفر الباقر استدل بهذه الآية عند الحجاج بن يوسف .

﴿المسألة السادسة﴾ قوله تعالى (ومن آباؤهم وذرياتهم وإخوانهم) يفيد أحكاما كثيرة : الأول: أنه تعالى ذكر الآباء والذريات والاخوان ، فالآباء هم الأصول ، والذريات هم الفروع . والاخوان والكرامة ، والثانى : أنه تعالى قال (ومن آباؤهم) وكلمة «من» للتبعض .

فان قلنا : المراد من تلك الهداية الهداية الى الثواب والجنة والهداية الى الايمان والمعرفة ، فهذه الكلمة تدل على أنه قد كان فى آباء هؤلاء الأنبياء من كان غير مؤمن ولا واصل الى الجنة . أما لو قلنا : المراد بهذه الهداية النبوة لم يفد ذلك . الثالث : أنا اذا فسرنا هذه الهداية بالنبوة كان

أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرُ بِهَا هُوَ لِأَن فَقَدَ
وَكَلَّمْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ «٨٩»

قوله (ومن آباؤهم وذرياتهم وإخوانهم) كالدلالة على أن شرط كون الانسان رسولا من عند الله أن يكون رجلا ، وأن المرأة لا يجوز أن تكون رسولا من عند الله تعالى ، وقوله تعالى بعد ذلك (واجتنبناهم) يفيد النبوة ، لأن الاجتناب اذا ذكر في حق الأنبياء عليهم السلام لا يليق به إلا الحمل على النبوة والرسالة .

ثم قال تعالى ﴿ ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ﴾ . واعلم أنه يجب أن يكون المراد من هذا الهدى هو معرفة التوحيد وتنزيه الله تعالى عن الشرك . لأنه قال بعده (ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) وذلك يدل على أن المراد من ذلك الهدى ما يكون جاريا مجرى الأمر المضاد للشرك .

وإذا ثبت أن المراد بهذا الهدى معرفة الله بوحديته . ثم إنه تعالى صرح بأن ذلك الهدى من الله تعالى ، ثبت أن الايمان لا يحصل الا بخلق الله تعالى . ثم إنه تعالى ختم هذه الآية بنهى الشرك فقال (ولو أشركوا) والمعنى أن هؤلاء الأنبياء لو أشركوا لحبط عنهم طاعاتهم وعباداتهم . والمقصود منه تقرير التوحيد وابطال طريقة الشرك . وأما الكلام في حقيقة الاحباط فقد ذكرناه على سبيل الاستقصاء في سورة البقرة فلا حاجة الى الاعادة . والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلناهم قوما ليسوا بها بكافرين ﴾

اعلم أن قوله (أولئك) إشارة إلى الذين مضى ذكرهم قبل ذلك وهم الأنبياء الثمانية عشر الذين ذكرهم الله تعالى قبل ذلك ، ثم ذكر تعالى انه آتاهم الكتاب والحكم والنبوة .

واعلم أن العطف يوجب المغايرة ، فهذه الألفاظ الثلاثة لا بد وأن تدل على أمور ثلاثة متغايرة واعلم أن الحكام على الخلق ثلاث طوائف : أحدها : الذين يحكمون على مواطن الناس وعلى أرواحهم . وهم العلماء . وثانيها : الذين يحكمون على ظواهر الخلق . وهم السلاطين يحكمون على الناس بالقهر والسلطنة ، وثالثها : الأنبياء ، وهم الذين أعطاهم الله تعالى من العلوم والمعارف ما لا جلها بها يتصرفون على التصرف في مواطن الخلق وأرواحهم . وأيضا أعطاهم من القدرة والممكنة ما لا جلها

يقدرُونَ على التصرف في ظواهر الخلق ، ولما استجمعوا هذين الوصفين لاجرم كانوا هم الحكماء على الاطلاق .

إذا عرفت هذه المقدمة فقلوه (آيتناهم الكتاب) إشارة إلى أنه تعالى أعطاهم العلم الكثير وقوله (والحكم) إشارة إلى أنه تعالى جعلهم حكاما على الناس نافذى الحكم فيهم بحسب الظاهر . وقوله (والنبوة) إشارة إلى المرتبة الثالثة ، وهى الدرجة العالية الرفيعة الشريفة التى يتفرع على حصولها حصول المرتبتين المتقدمتين المذكورتين ، وللناس فى هذه الألفاظ الثلاثة تفسيرات كثيرة ، والمختار عندنا ما ذكرناه .

واعلم أن قوله (آيتناهم الكتاب) يحتمل أن يكون المراد من هذا الايتاء الابتداء بالوحي والتنزيل عليه كما فى صحف ابراهيم وتوراة موسى ، وإنجيل عيسى عليه السلام ، وقرآن محمد صلى الله عليه وسلم . ويحتمل أن يكون المراد منه أن يؤتته الله تعالى فهما تماما لما فى الكتاب وعلما محيطا بحقائقه وأسراره ، وهذا هو الأولى . لأن الأنبياء الثمانية عشر المذكورين ما أنزل الله تعالى على كل واحد منهم كتابا إلهيا على التعيين والتخصيص

ثم قال تعالى ﴿فان يكفر بها هؤلاء﴾ والمراد فان يكفر بهذا التوحيد والطعن فى الشرك ككفار قريش (فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اختلفوا فى ان ذلك القوم من هم ؟ على وجوه ، فقيل : هم أهل المدينة وهم الانصار ، وقيل : المهاجرون والانصار ، وقال الحسن : هم الأنبياء الثمانية عشر الذين تقدم ذكرهم وهو اختيار الزجاج . قال الزجاج : والدليل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) وقال أبو رجاء : يعنى الملائكة وهو بعيد لأن اسم القوم قلما يقع على غير بنى آدم ، وقال مجاهد فى الفرس ، وقال ابن زيد : كل من لم يكفر فهو منهم سواء كان ملكا أو نبيا أو من الصحابة أو من التابعين .

﴿المسألة الثانية﴾ قوله تعالى (فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) يدل على أنه إنما خلقهم للايمان . وأما غيرهم فهو تعالى ما خلقهم للايمان ، لأنه تعالى لو خلق الكل للايمان كان البيان والتمكين وفعل الاطراف مشتركا فيه بين المؤمن وغير المؤمن ، وحينئذ لا يبقى لقوله (فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) معنى !

وأجاب الكعبي عنه من وجهين : الأول : أنه تعالى زاد المؤمنين عند إيمانهم وبعده من أظافه وفوائده وشريف أحكامه مالا يحصيه إلا الله ، وذكر فى الجواب وجها ثانيا ، فقال :

أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهَدَاهُمْ اِقْتَدَهُ قُلْ لَا اَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ اَجْرًا اِنْ هُوَ اِلَّا

ذِكْرِي لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾

وبتقدير: أن يسوى لكان بعضهم إذا قصر ولم ينتفع صح أن يقال بحسب الظاهر ان لم يحصل له نعم الله كالوالد الذي يسوى بين الولدين في العطية . فانه يصح أن يقال : انه أعطى أحدهما دون الآخر إذا كان ذلك الآخر ضيعه وأفسده

واعلم أن الجواب الأول ضعيف . لأن الألفاظ الداعية إلى الايمان مشتركة فيما بين الكافر والمؤمن : والتخصيص عند المعنزة غير جائز . والثاني : أيضا فاسد . لأن الوالد المساوى بين الولدين في العطية . ثم ان أحدهما ضيع نصيبه . فأى عاقل يحوز أن يقال ان الأب ماأنعم عليه . وما أعطاه شيئا

﴿المسألة الثالثة﴾ دلت هذه الآية على انه تعالى سينصر نبيه ويقوى دينه . ويجعله مستعاليا على كل من عاداه . قاهرا لكل من نازعه ، وقد وقع هذا الذي أخبر الله تعالى عنه في هذا الموضع . فكان هذا جاريا مجرى الاخبار عن الغيب . فيكون معجزا . والله أعلم .

قوله تعالى ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لاأسألکم عليه اجرا ان هو الا ذكرى للعالمين﴾
في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ لاشبهة في أن قوله (أولئك الذين هدى الله) هم الذين تقدم ذكرهم من الأنبياء ، ولا شك في أن قوله (فبهداهم اقتده) أمر لمحمد عليه الصلاة والسلام . وإنما الكلام في تعيين الشئ الذي أمر الله محمدا أن يقتدى فيه بهم ، فمن الناس من قال : المراد انه يقتدى بهم في الأمر الذي أجمعوا عليه . وهو القول بالتوحيد والتنزيه عن كل ما لا يليق به في الذات والصفات والافعال وسائر العقليات . وقال آخرون : المراد الاقتداء بهم في جميع الاخلاق الحميدة والصفات الرفيعة الكاملة من الصبر على أذى السفهاء والعفو عنهم . وقال آخرون : المراد الاقتداء بهم في شرائعهم إلا ما خصه الدليل . وبهذا التقدير كانت هذه الآية دليلا على أن شرع من قبلنا يلزمنا . وقال آخرون : انه تعالى إنما ذكر الأنبياء في الآية المتقدمة ليعين انهم كانوا محترزين عن الشرك مجاهدين بباطاله بدليل أنه ختم الآية بقوله (ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) ثم أكد

أصرارهم على التوحيد وانكارهم للشرك بقوله (فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين)

ثم قال في هذه الآية ﴿ أولئك الذين هدى الله ﴾ أى هداهم إلى إبطال الشرك وإثبات التوحيد (فبهداهم اقتده) أى اقتد بهم في نفي الشرك وإثبات التوحيد وتحمل سفاهات الجهال في هذا الباب . وقال آخرون : اللفظ مطلق فهو محمول على الكل إلا ما خصه الدليل المنفصل . قال القاضى : يبعد حمل هذه الآية على أمر الرسول بمتابعة الأنبياء عليهم السلام المتقدمين في شرائعهم لوجوه : أحدها : أن شرائعهم مخالفة متناقضة فلا يصح مع تناقضها أن يكون مأهورا بالاعتداء بهم في تلك الأحكام المتناقضة . وثانيها : أن الهدى عبارة عن الدليل دون نفس العمل

وإذا ثبت هذا فنقول : دليل ثبات شرعهم كان مخصوصا بتلك الأوقات لاني غير تلك الأوقات . فكان الاعتداء بهم في ذلك الهدى هو أن يعلم وجوب تلك الأفعال في تلك الأوقات فقط ، وكيف يستدل بذلك على اتباعهم في شرائعهم في كل الأوقات ؟ وثالثها : أن كونه عليه الصلاة والسلام متبعا لهم في شرائعهم يوجب أن يكون منصبه أقل من منصبهم وذلك باطل بالاجماع ، فثبت بهذه الوجوه أنه لا يمكن حمل هذه الآية على وجوب الاعتداء بهم في شرائعهم

والجواب عن الأول : أن قوله (فبهداهم اقتده) يتناول الكل . فأما ما ذكرتم من كون بعض الأحكام متناقضة بحسب شرائعهم . فنقول : ذلك العام يجب تخصيصه في هذه الصورة فيبقى فيما عداها حجة .

وعن الثاني : أنه عليه الصلاة والسلام لو كان مأهورا بأن يستدل بالدليل الذى استدله به الأنبياء المتقدمون لم يكن ذلك متبعا . لأن المسلمين لما استدلو بحدوث العالم على وجود الصانع لا يقال : إنهم متبعون لليهود والنصارى في هذا الباب ، وذلك لأن المستدل بالدليل يكون أصيلا في ذلك الحكم ، ولا تعلق له بمن قبله البتة . والاعتداء والاتباع لا يحصل إلا إذا كان فعل الأول سببا لوجوب الفعل على الثانى ، وبهذا التقرير يسقط السؤال .

وعن الثالث : أنه تعالى أمر الرسول بالاعتداء بجميعهم في جميع الصفات الحميدة والأخلاق الشريفة ، وذلك لا يوجب كونه أقل مرتبة منهم ، بل يوجب كونه أعلى مرتبة من الكل على ما سيجيء تقريره بعد ذلك إن شاء الله تعالى . فثبت بما ذكرنا دلالة هذه الآية على أن شرع من قبلنا يلزمنا .

المسألة الثانية : احتج العلماء بهذه الآية على أن رسولنا صلى الله عليه وسلم أفضل من جميع الأنبياء عليهم السلام ، وتقريره : هو أننا بينا أن خصال الكمال ، وصفات الشرف كانت مفرقة فيهم

بأجمعهم ، فداود وسليمان كانا من أصحاب الشكر على النعمة . وأيوب كان من أصحاب الصبر على البلا . ويوسف كان مستجمعا لهاتين الحالتين . وموسى عليه السلام كان صاحب الشريعة القوية القاهرة والمعجزات الظاهرة ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، وإلياس ، كانوا أصحاب الزهد . وإسماعيل كان صاحب الصدق ، ويونس صاحب التضرع . فثبت أنه تعالى إنما ذكر كل واحد من هؤلاء الأنبياء لأن الغالب عليه كان خصلة معينة من خصال المدح والشرف . ثم أنه تعالى لما ذكر الكل أمر بمحمد عليه الصلاة والسلام بان يقتدى بهم بأسرهم . فكان التقدير كأنه تعالى أمر محمدا صلى الله عليه وسلم أن يجمع من خصال العبودية والطاعة كل الصفات التي كانت مفرقة فيهم بأجمعهم ولما أمره الله تعالى بذلك ، امتنع أن يقال : إنه قصر في تحصيلها . فثبت أنه حصلها . ومتى كان الأمر كذلك . ثبت أنه اجتمع فيه من خصال الخير ما كان متفرقا فيهم بأسرهم . ومتى كان الأمر كذلك ، وجب أن يقال : إنه أفضل منهم بكليتهم . والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال الواحدى : قوله (هدى الله) دليل على أهم مخصوصون الهدى ، لأنه لو هدى جميع المكلفين لم يكن لقوله (أولئك الذين هدى الله) فائدة تخصيص .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال الواحدى : الاقتداء فى اللغة إتيان الثانى بمثل فعل الأول لأجل أنه فعله . روى اللحيانى عن الكسائى أنه قال : يقال لى بك قدوة وقدوة .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال الواحدى : قرأ ابن عامر (اقتده) كسر الدال وبشم الهاء للكسر من غير بلوغ ياء ، والباقون (اقتده) سا كنه الهاء . غير أن حمزة والكسائى يحذفانها فى الوصل ويثبتانها فى الوقف ، والباقون يثبتونها فى الوصل والوقف .

والحاصل : أنه حصل الاجماع على إثباتها فى الوقف . قال الواحدى : الوجه الاثبات فى الوقف والحذف فى الوصل ، لأن هذه الهاء هاء وقعت فى السكت بمنزلة همزة الوصل فى الابتداء . وذلك لأن الهاء فى الوقف . كما أن همزة الوصل للابتداء بالساكن . فبما لا تثبت همزة حال الوصل . كذلك ينبغى أن لا تثبت الهاء إلا أن هؤلاء الذين أثبتوا راموا موافقة المصحف . فان الهاء ثابتة فى الخط فبكرهوا مخالفة الخط فى حالتى الوقف والوصل فأثبتوا . وأما قرأة ابن عامر : فقال أبو بكر ومجاهد : هذا غلط ، لأن هذه الهاء هاء وقف . فلا تعرب فى حال من الأحوال . وإنما تذكر ليظهر بها حركة ما قبلها . قال أبو على الفارسى : ليس بغلط . ووجهها أن تجعل الهاء كناية عن المصدر . والتقدير : فبهدهم اقتد الاقتداء . فيضمر الاقتداء لدلالة الفعل عليه . وقياسه إذا وقف أن تسكن الهاء ، لأن هاء الضمير تسكن فى الوقف ، كما تقول : اشتره . والله أعلم .

أما قوله تعالى ﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا ﴾ فالمراد به أنه تعالى لما أمره بالاقتداء بهدى الأنبياء

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ
 أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قِرَاءَةً
 تُبَدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلِمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي
 خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ «٩١»

عليهم السلام المتقدمين ، وكان من جملة هداهم ترك طلب الأجر في إيصال الدين وإبلاغ الشريعة .
 لا جرم اقتدى بهم في ذلك ، فقال (لأسألكم عليه أجرا) ولا أطلب منكم مالا ولا جعلاً (إن هو)
 يعني القرآن (الإذكري للعالمين) يريد كونه مشتملا على كل ما يحتاجون اليه في معاشهم ومعادهم وقوله
 (إن هو إلا ذكري للعالمين) يدل على أنه صلى الله عليه وسلم مبعوث إلى كل أهل الدنيا لا إلى قوم
 دون قوم . والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما انزل الله على بشر من شيء قل من انزل الكتاب
 الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس يجعلونه قرايطس تبديونها وتخفون كثيرا وعلتم ما لم تعلموا
 اتمم ولا اباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾

اعلم أنا ذكرنا في هذا الكتاب أن مدار أمر القرآن على إثبات التوحيد والنبوة والمعاد . وأنه تعالى
 لما حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه ذكر دليل التوحيد ، وإبطال الشرك ، وقرر تعالى ذلك الدليل
 بالوجوه الواضحة شرع بعده في تقرير أمر النبوة ، فقال (وما قدروا الله حق قدره) حيث أنكروا
 النبوة والرسالة . فهذا بيان وجه نظم هذه الآيات وأنه في غاية الحسن . وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في تفسير قوله تعالى (ما قدروا الله حق قدره) وجوه : قال ابن عباس :
 ما عظموا الله حق تعظيمه . وروى عنه أيضاً أنه قال معناه : ما آمنوا إن الله على كل شيء قدير .
 وقال أبو العالية : ما وصفوه حق صفته . وقال الاخفش : ما عرفوه حق معرفته . وحقق الواحدى
 رحمه الله ذلك ، فقال يقال : قدر الشيء إذا سبره وحرره ، وأراد أن يعلم مقداره يقدره بالضم قدرا
 ومنه قوله عليه السلام « وإن غم عليكم فاقدروا له » أى فاطلبوا أن تعرفوه هذا أصله في اللغة ، ثم
 قال يقال لمن عرف شيئاً هو يقدر قدره ، وإذا لم يعرفه بصفاته أنه لا يقدر قدره ، فقوله (وما قدروا
 الله حق قدره) صحيح في كل المعاني المذكورة .

﴿المسألة الثانية﴾ أنه تعالى لما حكى عنهم (أنهم ما قدروا الله حق قدره) بين السبب فيه ، وذلك هو قولهم ما أنزل الله على بشر من شيء .

واعلم أن كل من أنكر النبوة والرسالة فهو في الحقيقة ما عرف الله حق معرفته ، وتقريره من وجوه : الأول : أن منكر البعثة والرسالة إما أن يقول : إنه تعالى ما كلف أحدا من الخلق تكليفا أصلا ، أو يقول : إنه تعالى كلفهم التكليف ، والأول باطل ، لأن ذلك يقتضى أنه تعالى أباح لهم جميع المنكرات والقبائح نحو شتم الله ، ووصفه بما لا يليق به ، والاستخفاف بالأنبياء والرسول وأهل الدين ، والاعراض عن شكر المنعم ، ومقابلة الانعام بالاساءة . ومعلوم أن كل ذلك باطل . وإما أن يسلم أنه تعالى كلف الخلق بالأوامر والنواهي ، فهذه لا بد من مبلغ وشارع ومبين ، وماذاك إلا الرسول .

فان قيل : لم لا يجوز أن يقال : العقل كلف في إيجاب الواجبات واجتناب المقبحات ؟ قلنا : هب أن الأمر كما قلتم . إلا أنه لا يمتنع تأكيد التعريف العقلي بالتعريفات المشروعة على السنة الأنبياء والرسول عليهم السلام . فثبت أن كل من منع البعثة والرسالة فقد طعن في حكمة الله تعالى ، وكان ذلك جهلا بصفة الإلهية ، وحينئذ يصدق في حقه قوله تعالى (وما قدروا الله حق قدره)

﴿الوجه الثاني﴾ في تقرير هذا المعنى ان من الناس من يقول إنه يمتنع بعثة الأنبياء والرسول ، لأنه يمتنع إظهار المعجزة على وفق دعواه تصديقا له ، والقائلون بهذا القول لهم مقامان : ﴿المقام الأول﴾ أن يقولوا انه ليس في الامكان خرق العادات ولا إيجاد شيء ، على خلاف ما جرت به العادة .

﴿والمقام الثاني﴾ الذين يسلمون امكان ذلك . إلا أنهم يقولون إن بتقدير حصول هذا الأفعال الحارقة للعادات لا دلالة لها على صدق مدعى الرسالة ، وكلا الوجهين يوجب القدح في كمال قدرة الله تعالى .

أما المقام الأول : فهو أنه ثبت أن الأجسام متماثلة . وثبت أن ما يحتمله الشيء وجب أن يحتمله مثله ، وإذا كان كذلك كان جرم الشمس والقمر قابلا للتمزق والتفريق

فان قلنا : ان الاله غير قادر عليه كان ذلك وصفه بالعجز ونقصان القدرة ، وحينئذ يصدق في حق هذا القائل : أنه ما قدر الله حق قدره

وإن قلنا : إنه تعالى قادر عليه ، فحينئذ لا يمتنع عقلا انشقاق القمر ، ولا حصول سائر المعجزات

وأما المقام الثاني: وهو أن حدوث هذه الأفعال الخارقة للعادة عند دعوى مدعى النبوة تدل على صدقهم، فهذا أيضا ظاهر على ما هو مقرر في كتب الأصول. فثبت أن كل من أنكر إمكان البعثة والرسالة، فقد وصف الله بالعجز ونقصان القدرة، وكل من قال ذلك فهو ما قدر الله حق قدره،

﴿والوجه الثالث﴾ أنه لما ثبت حدوث العالم، فنقول: حدوثه يدل على أن إله العالم قادر على كل شيء، وأن الخلق كلهم عبيده وهو مالك لهم على الإطلاق، ومالك لهم على الإطلاق، والمطاع يجب أن يكون له أمر ونهي وتكليف على عباده، وأن يكون له وعد على الطاعة، ووعد على المصيبة، وذلك لا يتم ولا يكمل إلا بارسال الرسل، وانزال الكتب. فكل من أنكر ذلك فقد طعن في كونه تعالى ملكا مطاعا، ومن اعتقد ذلك فهو ما قدر الله حق قدره، فثبت أن كل من قال ما أنزل الله على بشر من شيء فهو ما قدر الله حق قدره

﴿المسألة الثالثة﴾ في هذه الآية بحث صعب، وهو أن يقال: هؤلاء الذين حكى الله عنهم أنهم قالوا (ما أنزل الله على بشر من شيء) إما أن يقال: إنهم كفار قريش أو يقال إنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فإن كان الأول، فكيف يمكن إبطال قولهم بقوله تعالى (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى) وذلك لأن كفار قريش والبراهمة كما ينكرون رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فكذلك ينكرون رسالة سائر الأنبياء. فكيف يحسن إيراد هذا الإلزام عليهم. وأما إن كان الثاني وهو أن قائل هذا القول قوم من اليهود والنصارى، فهذا أيضا صعب مشكل، لأنهم لا يقولون هذا القول، وكيف يقولونه مع أن مذهبهم أن التوراة كتاب أنزله الله على موسى، والإنجيل: كتاب أنزله الله على عيسى؛ وأيضا فهذه السورة مكية، والمناظرات التي وقعت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبين اليهود والنصارى كلها مدنية، فكيف يمكن حمل هذه الآية عليها، فهذا تقرير الأشكال القائم في هذه الآية. واعلم أن الناس اختلفوا فيه على قولين:

﴿فالقول الأول﴾ إن هذه الآية نزلت في حق اليهود وهو القول المشهور عند الجمهور. قال ابن عباس: إن مالك بن الصيف كان من أحبار اليهود ورؤسائهم، وكان رجلا سمينا فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنت الذي أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها إن الله يبغض الخبير السمين وأنت الخبير السمين وقد سميت من الأشياء التي تطعمك اليهود» فضحك القوم. فغضب مالك بن الصيف، ثم انفت إلى عمر فقال: ما أنزل الله على بشر من شيء. فقال له قومه: ويملك ما هذا الذي بلغنا عنك؟ فقال إنه أغضبني،

ثم ان اليهود لأجل هذا الكلام عزلوه عن رياستهم ، وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف . فهذا هو الرواية المشهورة في سبب نزول هذه الآية ، وفيها سوالات :

﴿السؤال الأول﴾ اللفظ وان كان مطلقا بحسب أصل اللغة إلا أنه قد يتقيد بحسب العرف . ألا ترى أن المرأة إذا أرادت أن تخرج من الدار فغضب الزوج . وقال : ان خرجت من الدار فأنت طالق ، فان كثيرا من الفقهاء . قالوا : اللفظ وان كان مطلقا إلا أنه بحسب العرف ليقيد لتلك المرة فكذا ههنا قوله (ما أنزل الله على بشر من شيء) وإن كان مطلقا بحسب أصل اللغة ، إلا أنه بحسب العرف يتقيد بتلك الواقعة فكان قوله (ما أنزل الله على بشر من شيء) مراده منه أنه ما أنزل الله على بشر من شيء . في أنه يبغض الحبر السمين ، وإذا صار هذا المطلق محمولا على هذا المقيد لم يكن قوله (من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى) مبطلا للكلامه . فهذا أحد السؤالات :

﴿السؤال الثاني﴾ أن مالك بن الصيف كان مفتخرا بكونه يهوديا متظاهرا بذلك ومع هذا المذهب البتة أن يقول : ما أنزل الله على بشر من شيء إلا على سبيل الغضب المدهش للعقل أو على سبيل لا يمكنه طغيان اللسان . ومثل هذا الكلام لا يليق بالله سبحانه وتعالى إنزال القرآن الباقي على وجه الدر في ابطاله

﴿والسؤال الثالث﴾ أن الأكثرين اتفقوا على أن هذه السورة مكية وأنها نزلت دفعة واحدة ، ومناظرات اليهود مع الرسول عليه الصلاة والسلام كانت مدنية . فكيف يمكن حمل هذه الآية على تلك المناظرة ؟ وأيضا لما نزلت السورة دفعة واحدة . فكيف يمكن أن يقال : هذه الآية المعينة إنما نزلت في الواقعة الفلانية ؟ فهذه هي السؤالات الواردة على هذا القول ، والاقرب عندي أن يقال : اعلم مالك بن الصيف لما تأذى من هذا الكلام طعن في نبوة الرسول عليه الصلاة والسلام وقال : ما أنزل الله عليك شيئا البتة . ولست رسولا من قبل الله البتة ، فعند هذا الكلام نزلت هذه الآية . والمقصود منها أنك لما سلمت أن الله تعالى أنزل التوراة على موسى عليه السلام . فعند هذا لا يمكنك الاصرار على أنه تعالى ما أنزل على شيئا لأنى بشر وموسى بشر أيضا . فلما سلمت أن الله تعالى أنزل الوحي والتنزيل على بشر امتنع عليك أن تقطع وتجزم بأنه ما أنزل الله على شيئا . فكان المقصود من هذه الآية بيان أن الذي ادعاه محمد عليه الصلاة والسلام ليس من قبيل الممتنعات . وأنه ليس للخصم اليهودي أن يصر على إنكاره ، بل أقصى ما في الباب أن يطالبه بالمعجز فان أتى به فهو المقصود . وإلا فلا فاما أن يصر اليهودي على أنه تعالى ما أنزل على محمد شيئا البتة مع أنه معترف بأن الله تعالى أنزل الكتاب على موسى . فذلك

محض الجهالة والتقليد ، وهذا التقدير يظهر الجواب عن السؤالين الأولين .
 ﴿فأما السؤال الثالث﴾ وهو قوله هذه السورة مكية ونزلت دفعة واحدة وكل واحد من
 هذين الوجهين يمنع من القول بأن سبب نزول هذه الآية مناظرة اليهودي .
 قلنا : القائلون بهذا القول قالوا : السورة كلها مكية ونزلت دفعة واحدة لإلهذه الآية ، فانها
 نزلت بالمدينة في هذه الواقعة ، فهذا منتهى الكلام في تقرير هذا الوجه .
 ﴿والقول الثاني﴾ أن قائل هذا القول أعنى ما أنزل الله على بشر من شيء قوم من كفار قريش
 فهذا القول قد ذكره بعضهم .

بقي أن يقال : كفار قريش ينكرون نبوة جميع الأنبياء عليهم السلام ، فكيف يمكن الزام
 نبوة موسى عليهم ؟ وأيضا فما بعد هذه الآية لا يليق بكفار قريش ، وإنما يليق باليهود وهو قوله
 (تجعلونه قراطيس تبذونها وتخفون كثيرا وعلتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) فمن المعلوم بالضرورة
 أن هذه الأحوال لا تليق إلا باليهود . وهو قول من يقول : إن أول الآية خطاب مع الكفار ،
 وآخرها خطاب مع اليهود فاسد ، لأنه يوجب تفكيك نظم الآية وفساد تركيبها ، وذلك لا يليق
 بأحسن الكلام فضلا عن كلام رب العالمين ، فهذا تقرير الاشكال على هذا القول .

﴿أما السؤال الأول﴾ فيمكن دفعه بأن كفار قريش كانوا مختلطين باليهود والنصارى وكانوا
 قد سمعوا من الفريقين على سبيل التواتر ظهور المعجزات القاهرة على يد موسى عليه السلام مثل
 انقلاب العصا ثعبانا ، وفتح البحر وإظلال الجبل وغيرها والكفار كانوا يطعنون في نبوة محمد
 عليه ، الصلاة والسلام بسبب أنهم كانوا يطلبون منه أمثال هذه المعجزات وكانوا يقولون لو جئتنا
 بأمثال هذه المعجزات لآمنابك . فكان مجموع هذه الكلمات جاريا مجرى ما يوجب عليهم الاعتراف
 بنبوة موسى عليه السلام ، وإذا كان الأمر كذلك لم يبعد إيراد نبوة موسى عليه السلام إلزاما عليهم
 في قولهم (ما أنزل الله على بشر من شيء)

﴿وأما السؤال الثاني﴾ بجوابه : أن كفار قريش واليهود والنصارى . لما كانوا متشاركين
 في إنكار نبوة محمد عليه الصلاة والسلام لم يبعد أن يكون الكلام الواحد واردا على سبيل أن
 يكون بعضه خطابا مع كفار مكة وبقية يكون خطابا مع اليهود والنصارى ، فهذا ما يحضرنا في
 هذا البحث الصعب ، وبالله التوفيق .

﴿المسألة الرابعة﴾ مذهب كثير من المحققين أن عقول الخلق لا تصل إلى كنه معرفة الله تعالى

البتة ، ثم إن الكثير من أهل هذا المذهب يحتجون على صحته بقوله تعالى (وما قدروا الله حق قدره) أى وما عرفوا الله حق معرفته . وهذا الاستدلال بعيد . لأنه تعالى ذكر هذه اللفظة فى القرآن فى ثلاثة مواضع ، وكلها وردت فى حق الكفار فههنا ورد فى حق اليهود أو كفار مكة ، وكذا القول فى الموضوعين الآخرين . وحينئذ لا يبقى فى هذا الاستدلال فائدة . والله أعلم .

(المسألة الخامسة) فى هذه الآية أحكام .

الحكم الاول

أن النكرة فى موضع النفي تفيد العموم . والدليل عليه هذه الآية فان قوله (ما أنزل الله على بشر من شيء) نكرة فى موضع النفي . فلو لم تفد العموم لما كان قوله تعالى (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى) إبطالا له ، ونقضا عليه ، ولو لم يكن كذلك لفسد هذا الاستدلال . ولما كان ذلك باطلا ، ثبت أن النكرة فى موضع النفي تعم . والله أعلم .

الحكم الثانى

النقض يقدح فى صحة الكلام . وذلك لأنه تعالى نقض قولهم (ما أنزل الله على بشر من شيء) بقوله (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى) فلو لم يدل النقض على فساد الكلام لما كانت حجة الله مفيدة لهذا المطلوب .

واعلم أن قول من يقول : ابداء الفارق بين الصورتين يمنع من كون النقض مبطلاضعيف . إذ لو كان الأمر كذلك لسقطت حجة الله فى هذه الآية لأن اليهودى كان يقول معجزات موسى أظهر ، وأبهر من معجزاتك ، فلم يلزم من اثبات النبوة هناك اثباتها هنا . ولو كان الفرق مقبولا لسقطت هذه الحجة ، وحيث لا يجوز القول بسقوطها علمنا أن النقض على الإطلاق مبطل والله أعلم

الحكم الثالث

تفلسف الغزالي فزعم أن هذه الآية مبنية على الشكل الثانى من الأشكال المنطقية . وذلك لأن حاصله يرجع إلى أن موسى أنزل الله تعالى عليه شيئا وأحد من البشر ما أنزل الله عليه شيئا ينتج من الشكل الثانى : أن موسى ما كان من البشر . وهذا خلف محال . وليست هذه الاستحالة بحسب شكل القياس ، ولا بحسب صحة المقدمة الأولى ، فلم يبق إلا أنه لزم من فرض صحة المقدمة الثانية . وهى قولهم : ما أنزل الله على بشر من شيء ، فوجب القول بكونها كاذبة . فثبت أن دلالة هذه الآية على المطلوب . إنما تصح عند الاعتراف بصحة الشكل الثانى من الأشكال المنطقية . وعند الاعتراف بصحة قياس الخلف . والله أعلم

واعلم أنه تعالى لما قال ﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى ﴾ وصف بعده كتاب موسى بالصفات .

﴿ فالصفة الأولى ﴾ كونه نورا وهدى للناس .

واعلم أنه تعالى سماه نورا تشبيها له بالنور الذي به يبين الطريق .
فان قالوا : فعلى هذا التفسير لا يبقى بين كونه نورا وبين كونه هدى للناس فرق ، وعطف أحدهما على الآخر يوجب التغاير .

قلنا : النور له صفتان : أحدهما : كونه في نفسه ظاهرا جليا ، والثانية : كونه بحيث يكون سبباً لظهور غيره ، فالمراد من كونه نورا وهدى هذان الأمران .
واعلم أنه تعالى وصف القرآن أيضاً بهذين الوصفين في آية أخرى ، فقال (ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا)

﴿ الصفة الثانية ﴾ قوله (تجعلونه قراطيس تبدوونها وتخفون كثيرا) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ أبو عمرو وابن كثير (يجعلونه) على لفظ الغيبة ، وكذلك يبدوونها ويخفون لأجل أنهم غائبون ويدل عليه قوله تعالى (وما قدروا الله حق قدره . إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) فلما وردت هذه الألفاظ على لفظ المغيبة ، فكذلك القول في البواقى ، ومن قرأ بالتاء على الخطاب . فالتقدير : قل لهم تجعلونه قراطيس تبدوونها وتخفون كثيرا ، والدليل عليه قوله تعالى (وعلمتم ما لم تعلموا) فجاء على الخطاب . فكذلك ما قبله .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال أبو علي الفارسي : قوله (يجعلونه قراطيس) أى يجعلونه ذات قراطيس .
أى يودعونه إياها .

فان قيل : إن كل كتاب فلا بد وأن يودع في القراطيس ، فاذا كان الأمر كذلك في كل الكتاب ، فما السبب في أن حكى الله تعالى هذا المعنى في معرض الذم لهم .

قلنا : الذم لم يقع على هذا المعنى فقط ، بل المراد أنهم لما جعلوه قراطيس ، وفرقوه وبعضوه ، لاجرم قدروا على إبداء البعض . وإخفاء البعض ، وهو الذى فيه صفة محمد عليه الصلاة والسلام ، فان قيل : كيف يقدرون على ذلك مع أن التوراة كتاب وصل إلى أهل المشرق والمغرب ، وعرفه أكثر أهل العلم وحفظوه ، ومثل هذا الكتاب لا يمكن إدخال الزيادة والنقصان فيه ، والدليل عليه أن الرجل في هذا الزمان لو أراد إدخال الزيادة والنقصان في القرآن لم يقدر عليه ، فكذا القول في التوراة .

قلنا : قد ذكرنا في سورة البقرة أن المراد من التجريف تفسير آيات التوراة بالوجود الباطلة الفاسدة كما يفعله المبطلون في زماننا هذا بآيات القرآن .

فان قيل : هب أنه حصل في التوراة آيات دالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام . إلا أنها قليلة ، والقوم ما كانوا يخفون من التوراة إلا تلك الآيات ، فلم قال : ويخفون كثيرا .

قلنا : القوم كما يخفون الآيات الدالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، فكذلك يخفون الآيات المشتملة على الأحكام ، ألا ترى أنهم حاولوا على إخفاء الآية المشتملة على رجم الزاني المحصن .

﴿الصفة الثالثة﴾ قوله (وعلمتم ما لم تعلموا أنتم أنتم ولا آباؤكم) والمراد أن التوراة كانت مشتملة على البشارة بمقدم محمد واليهود قبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يقرؤون تلك الآيات وما كانوا يفهمون معانيها ، فلما بعث الله محمداً ظهر أن المراد من تلك الآيات هو مبعثه صلى الله عليه وسلم ، فهذا هو المراد من قوله (وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم)

واعلم أنه تعالى لما وصف التوراة بهذه الصفات الثلاث . قال (قل الله) والمعنى أنه تعالى قال في أول الآية (قل من أنزل الكتاب) الذي صفته كذا وكذا فقال بعده (قل الله) والمعنى أن العقل السليم والطبع المستقيم يشهد بأن الكتاب الموصوف بالصفات المذكورة المؤيد قول صاحبه بالمعجزات القاهرة الباهرة مثل معجزات موسى عليه السلام لا يكون إلا من الله تعالى . فلما صار هذا المعنى ظاهراً بسبب ظهور الحجة القاطعة . لا جرم قال تعالى لمحمد . قل المنزل لهذا الكتاب هو الله تعالى ، ونظيره قوله (قل أى شىء أكبر شهادة قل الله) وأيضاً أن الرجل الذى يحاول إقامة الدلالة على وجود الصانع يقول من الذى أحدث الحياة بعد عدمها . ومن الذى أحدث العقل بعد الجهالة ، ومن الذى أودع فى الخدقة القوة الباصرة . وفى الصماخ القوة السامعة . ثم إن ذلك القائل نفسه يقول (الله) والمقصود أنه بلغت هذه الدلالة والبيئة إلى حيث يجب على كل عاقل أن يعترف بها فسواء أقر الخصم به أو لم يقر فالمقصود حاصل فكذلك ههنا .

ثم قال تعالى بعده ﴿ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ المعنى أنك إذا أقمت الحجة عليهم وبلغت فى الاعتذار والانداز وهذا المبلغ

العظيم حينئذ لم يبق عليك من أمرهم شىء البتة ، ونظيره قوله تعالى (إن عليك إلا البلاغ)

﴿المسألة الثانية﴾ قال بعضهم هذه الآية منسوخة بآية السيف وهذا بعيد لأن قوله (ثم ذرهم

فى خوضهم يلعبون) مذكور لأجل التهديد ، وذلك لا ينافى حصول المقاتلة . فلم يكن ورود الآية

وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ
وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ
يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾

الدالة على وجوب المقاتلة ، رافعاً لشيء من مدلولات هذه الآية ، فلم يحصل النسخ فيه . والله أعلم.
قوله تعالى ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها
والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلواتهم يحافظون﴾
اعلم أنه تعالى لما أبطل بالدليل قول من قال : ما أنزل الله على بشر من شيء . ذكر بعده أن
القرآن كتاب الله ، أنزله الله تعالى على محمد عليه الصلاة والسلام .
واعلم أن قوله (وهذا) إشارة إلى القرآن وأخبر عنه بأنه كتاب وتفسير الكتاب قد تقدم في
أول سورة البقرة ثم وصفه بصفات كثيرة .

﴿الصفة الأولى﴾ قوله (أنزلناه) والمقصود أن يعلم أنه من عند الله تعالى لا من عند الرسول
لأنه لا يبعد أن يخص الله محمداً عليه الصلاة والسلام بعلوم كثيرة يتمكن بسببها من تركيب ألفاظ
القرآن على هذه الصفة من الفصاحة فبين تعالى أنه ليس الأمر على هذه الصفة ، وأنه تعالى هو الذي تولى
إنزاله بالوحي على لسان جبريل عليه السلام .

﴿الصفة الثانية﴾ قوله تعالى (مبارك) قال أهل المعاني كتاب مبارك أى كثير خيره دائماً بركته
ومنفعته ، يبشر بالثواب والمغفرة ويزجر عن القبيح والمعصية ، وأقول : العلوم إمانظرية ، وإمامعية
أما العلوم النظرية ، فأشرفها وأكملها معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه ، ولا ترى
هذه العلوم أكمل ولا أشرف مما تجده في هذا الكتاب وأما العلوم العملية ، فالمطلوب ، إما أعمال
الجوارح وإما أعمال القلوب ، وهو المسمى بطهارة الأخلاق وتركية النفس ولا تجد هذين العلمين
مثل ما تجده في هذا الكتاب ، ثم قد جرت سنة الله تعالى بأن الباحث عنه والمتمسك به يحصل له
عز الدنيا وسعادة الآخرة .

يقول مصنف هذا الكتاب محمد بن عمر الرازى : وأنا قد نقلت أنواعاً من العلوم النقلية
والعقلية ، فلم يحصل لى بسبب شيء من العلوم من أنواع السعادات فى الدين والدنيا مثل ما حصل
بسبب خدمة هذا العلم

﴿الصفة الثالثة﴾ قوله (مصدق الذي بين يديه) فالمراد كونه مصدقا لما قبله من الكتب والامر في الحقيقة كذلك ، لأن الموجود في سائر الكتب الالهية إما علم الأصول ، وإما علم الفروع .
 أما علم الأصول : فيمتنع وقوع التفاوت فيه بسبب اختلاف الأزمنة والأمكنة . فوجب القطع بأن المذكور في القرآن موافق ومطابق لما في التوراة والزبور والانجيل وسائر الكتب الالهية .
 وأما علم الفروع : فقد كانت الكتب الالهية المتقدمة على القرآن مشتملة على البشارة بمقدم محمد عليه الصلاة والسلام . وإذا كان الأمر كذلك فقد حصل في تلك الكتب أن التكليف الموجودة فيها ، إنما تبقى الى وقت ظهور محمد عليه الصلاة والسلام . وأما بعد ظهور شرعه فإنها تصير منسوخة . فثبت أن تلك الكتب دلت على ثبوت تلك الأحكام على هذا الوجه ، والقرآن مطابق لهذا المعنى وموافق ، فثبت كون القرآن مصدقا لكل الكتب الالهية في جملة علم الأصول والفروع .

﴿الصفة الرابعة﴾ قوله تعالى (ولتنذر أم القرى ومن حولها) وههنا أبحاث :

﴿البحث الأول﴾ اتفقوا على أن ههنا محذوفا ، والتقدير : وتنذر أهل أم القرى . واتفقوا على أن أم القرى هي مكة ، واختلفوا في السبب الذي لأجله سميت مكة بهذا الاسم . فقال ابن عباس : سميت بذلك ، لأن الأرضين دحيت من تحتها ومن حولها ، وقال أبو بكر الأصم : سميت بذلك لأنها قبلة أهل الدنيا ، فصارت هي كالأصل وسائر البلاد والقرى تابعة لها ، وأيضا من أصول عبادات أهل الدنيا الحج . وهو إنما يحصل في تلك البلدة . فلهذا السبب يجتمع الخاق اليها كما يجتمع الأولاد الى الأم ، وأيضا فلما كان أهل الدنيا يجتمعون هناك بسبب الحج . لاجرم يحصل هناك أنواع من التجارات والمنافع ما لا يحصل في سائر البلاد ، ولا شك أن الكسب والتجارة من أصول المعيشة ، فلهذا السبب سميت مكة أم القرى . وقيل : إنما سميت مكة أم القرى لأن الكعبة أول بيت وضع للناس ، وقيل أيضا : إن مكة أول بلدة سكنت في الأرض .
 إذا عرفت هذا فنقول : قوله (ومن حولها) دخل فيه سائر البلدان والقرى .

﴿والبحث الثاني﴾ زعمت طائفة من اليهود أن محمد عليه الصلاة والسلام كان رسولا الى العرب فقط . واحتجوا على صحة قولهم بهذه الآية وقالوا إنه تعالى بين أنه إنما أنزل عليه هذا القرآن ليبلغه الى أهل مكة وإلى القرى المحيطة بها ، والمراد منها جزيرة العرب ، ولو كان مبعوثا الى كل العالمين لكان التقييد بقوله (لتنذر أم القرى ومن حولها) باطلا .

والجواب : أن تخصيص هذه المواضع بالذكر لا يدل على انتفاء الحكم فيما سواها إلا بدلالة

المفهوم وهي ضعيفة ، لاسيما وقد ثبت بالتواتر الظاهر ، المقطوع به من دين محمد عليه الصلاة والسلام أنه كان يدعى كونه رسولا الى كل العالمين ، وأيضا قوله (ومن حولها) يتناول جميع البلاد والقرى المحيطة بها ، وبهذا التقدير : فيدخل فيه جميع بلاد العالم . والله أعلم .

﴿البحث الثالث﴾ قرأ عاصم في رواية أبي بكر (لينذر) بالياء جعل الكتاب هو المنذر ، لأن فيه إنذارا ، ألا ترى أنه قال (لينذروا به) أى بالكتاب ، وقال (وأذبره) وقال (إنما أُنذركم بالوحى) فلا يمتنع اسناد الانذار اليه على سبيل الاتساع ، وأما الباقيون : فانهم قرؤا (ولتنذر) بالتاء خطابا للنبي صلى الله عليه وسلم ، لأن المأمور والموصوف بالانذار هو . قال تعالى (إنمأنت منذر) وقال (وأُنذر الذين يخافون)

ثم قال تعالى ﴿والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به﴾ وظاهر هذا يقتضى أن الايمان بالآخرة جار مجرى السبب للايمان بالرسول صلى الله عليه وسلم . والعلماء ذكروا في تقرير هذه السببية وجوها : الأول : أن الذى يؤمن بالآخرة هو الذى يؤمن بالوعد والوعيد والثواب والعقاب ، ومن كان كذلك فانه يعظم رغبته في تحصيل الثواب ، ورهبته عن حلول العقاب ، وببالغ في النظر والتأمل في دلائل التوحيد والنبوة ، فيصل الى العلم والايمان . والثانى : أن دين محمد عليه الصلاة والسلام مبنى على الايمان بالبعث والقيامة ، وليس لأحد من الأنبياء مبالغة في تقرير هذه القاعدة مثل ما في شريعة محمد عليه الصلاة والسلام . فلهذا السبب كان الايمان بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام وبصحة الآخرة أمرين متلازمين ، والثالث : يحتمل أن يكون المراد من هذا الكلام التنبيه على اخراج أهل مكة من قبول هذا الدين ، لأن الحامل على تحمل مشقة النظر والاستدلال ، وترك رياسة الدنيا ، وترك الحقد والحسد ليس إلا الرغبة في الثواب ، والرغبة عن العقاب . وكفار مكة لما لم يعتقدوا في البعث والقيامة ، امتنع منهم ترك الحسد وترك الرياسة ، فلا جرم يبعد قبولهم لهذا الدين واعترافهم بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام .

ثم قال ﴿وهم على صلاتهم يحافظون﴾ والمراد أن الايمان بالآخرة كما يحمل الرجل على الايمان بالنبوة ، فكذلك يحمله على المحافظة على الصلوات . وليس لقائل أن يقول : الايمان بالآخرة يحمل على كل الطاعات ، فما الفائدة في تخصيص الصلاة بالذكر؟ لأنا نقول : المقصود منه التنبيه على أن الصلاة أشرف العبادات بعد الايمان بالله وأعظمها خطرا ، ألا ترى أنه لم يقع اسم الايمان على شيء من العبادات الظاهرة إلا على الصلاة كما قال تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم) أى صلاتكم ، ولم يقع اسم الكفر على شيء من المعاصي إلا على ترك الصلاة . قال عليه الصلاة

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ
وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ
وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا
كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ «٩٣»

والسلام «من ترك الصلاة متعمدا فقد كفر» فلما اختصت الصلاة بهذا النوع من التشريف . لا جرم خصها الله بالذكر في هذا المقام . والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ومن أظلم مما افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء، ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح كون القرآن كتابا نازلا من عند الله وبين ما فيه من صفات الجلالة والشرف والرفعة ، ذكر عقيبه ما يدل على وعيد من ادعى النبوة والرسالة على سبيل الكذب والافتراء فقال (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنه تعالى عظم وعيد من ذكر أحد الأشياء الثلاثة : فأولها : أن يفترى على الله كذبا . قال المفسرون : نزل هذا في مسيلة الكذاب صاحب اليمامة . وفي الأسود العنسي صاحب صنعاء ، فانهما كانا يدعيان النبوة والرسالة من عند الله على سبيل الكذب والافتراء . وكان مسيلة يقول : محمد رسول قريش ، وأنار رسول بنى حنيفة . قال القاضي : الذي يفترى على الله الكذب يدخل فيه من يدعى الرسالة كذبا ، ولكن لا يقتصر عليه . لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . فكل من نسب إلى الله تعالى ما هو بربى منه ، إما في الذات ، وإما في الصفات وإما في الأفعال كان داخلا تحت هذا الوعيد . قال : والافتراء على الله في صفاته . كالجسمة . وفي عدله كالمجبرة ، لأن هؤلاء قد ظلموا أعظم أنواع الظلم بأن افتروا على الله الكذب . وأقول : أما قوله : الجسمة قد افتروا على الله الكذب . فهو حق . وأما قوله : ان هذا افتراء على الله في صفاته ، فليس بصحيح .

لأن كون الذات جسماً ومتحيزاً ليس بصفة . بل هو نفس الذات المخصوصة ، فمن زعم أن إله العالم ليس بجسم . كان معناه أنه يقول : جميع الاجسام والمتحيزات محدثة ، ولها بأسرها خالق هو موجود ليس بمتحيز ، والمجسم ينفي هذه الذات . فكان الخلاف بين الموحد والمجسم ليس في الصفة بل في نفس الذات . لأن الموحد يثبت هذه الذات والمجسم ينفيها . فثبت أن هذا الخلاف لم يقع في الصفة ، بل في الذات . وأما قوله : المجبرة قد افتروا على الله تعالى في صفاته ، فليس بصحيح ، لأنه يقال له المجبرة ما زادوا على قولهم الممكن لا بد له من مرجح ، فان كذبوا في هذه القضية ، فكيف يمكنهم أن يعرفوا وجود الاله ؟ وان صدقوا في ذلك لزمهم الاقرار بتوقيف صدور الفعل على حصول الداعي بتخليق الله تعالى ، وذلك عين ما نسميه بالجبر ، فثبت أن الذي وصفه بكونه افتراء على الله باطل . بل المفترى على الله من يقول الممكن لا يتوقف رجحان أحد طرفيه على الآخر على حصول المرجح . فان من قال هذا الكلام لزمه نفي الصانع بالكلية ، بل يلزمه نفي الآثار والمؤثرات بالكلية .

﴿والنوع الثاني﴾ من الأشياء التي وصفها الله تعالى بكونها افتراء قوله (أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء) والفرق بين هذا القول وبين ما قبله ، أن في الأول كان يدعى أنه أوحى إليه وما كان يكذب بنزول الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم ، وأما في هذا القول ، فقد أثبت الوحي لنفسه ونفاه عن محمد عليه الصلاة والسلام . وكان هذا جمعا بين نوعين عظيمين من الكذب ، وهو إثبات ما ليس بموجود ونفي ما هو موجود .

﴿والنوع الثالث﴾ قوله (سأنزل مثل ما أنزل الله) قال المفسرون : المراد ما قاله النضر بن الحرث وهو قوله (لو نشاء لقلنا مثل هذا) وقوله في القرآن : إنه من أساطير الأولين . وكل أحد يمكنه الاتيان بمثله . وحاصله : ان هذا القائل يدعى معارضة القرآن . وروى أيضا أن عبد الله بن سعد ابن أبي سرح كان يكتب الوحي للرسول عليه الصلاة والسلام ، فلما نزل قوله (ولقد خلقنا الانسان من سالة من طين) أملاء الرسول عليه السلام . فلما انتهى إل قوله (ثم أنشأناه خلقا آخر) عجب عبد الله منه فقال : فبارك الله أحسن الخالقين ! فقال الرسول هكذا أنزلت الآية ، فسكت عبد الله وقال : ان كان محمد صادقا ، فقد أوحى إلى ، وان كان كاذبا فقد عارضته ، فهذا هو المراد من قوله (سأنزل مثل ما أنزل)

أما قوله تعالى ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت﴾ فاعلم أن أول الآية وهو قوله (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) يفيد التخويف العظيم على سبيل الاجمال وقوله بعد ذلك (ولو ترى

إذ الظالمون في غمرات الموت) كالتفصيل لذلك المجمع، والمراد بالظالمين الذين ذكروهم، وغمرات الموت جمع غمرة وهي شدة الموت، وغمرة كل شيء كثرتة ومعظمه، ومنه غمرة الماء، وغمرة الحرب، ويقال غمره الشيء إذا علاه وغطاه. وقال الزجاج: يقال لكل من كان في شيء كثير قد غمره ذلك. وغمره الدين إذا كثر عليه هذا هو الأصل، ثم يقال للشدائد والمساكين: الغمرات، وجواب «لو» محذوف. أى لرأيت أمراً عظيماً، والملائكة باسطوا أيديهم قال ابن عباس: ملائكة العذاب باسطوا أيديهم يضربونهم ويعذبونهم، كما يقال بسط اليه يده بالمسكروه أخرجوا أنفسكم. ههنا محذوف. والتقدير: يقولون أخرجوا أنفسكم، وفيه مسألتان:

﴿المسألة الأولى﴾ في الآية سؤال: وهو أنه لا قدرة لهم على أخراج أرواحهم من أجسادهم

فما الفائدة في هذا الكلام؟

فقول: في تفسير هذه الكلمة وجود:

﴿الوجه الأول﴾ ولو ترى الظالمين إذا صاروا إلى غمرات الموت في الآخرة فادخلوا جهنم فغمرات الموت عبارة عما يصيهم هناك من أنواع الشدائد والتعذيبات. والملائكة باسطوا أيديهم عليهم بالعذاب يكتوبونهم، ويقولون لهم أخرجوا أنفسكم من هذا العذاب الشديد إن قدرتم.

﴿الوجه الثاني﴾ أن يكون المعنى: ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت عند نزول الموت بهم في الدنيا والملائكة باسطوا أيديهم لقبض أرواحهم يقولون لهم أخرجوا أنفسكم من هذه الشدائد وخلصوها من هذه الآفات والآلام.

﴿والوجه الثالث﴾ أن قوله (أخرجوا أنفسكم) أى أخرجوها إلينا من أجسادكم وهذه عبارة عن العنف والتشديد في إزهاق الروح من غير تنفيس وإدخال وأنهم يفعلون بهم فعل الغريم الملائم الملح ببسط يده إلى من عليه الحق ويعنف عليه في المطالبة ولا يمهله، ويقول له: أخرج إلى ما لي عليك الساعة ولا أبرح من مكانى حتى أنزعه من أحداقك.

﴿والوجه الرابع﴾ أن هذه اللفظة كناية عن شدة حالهم وأنهم بلغوا في البلاء والشدة إلى

حيث تولى بنفسه إزهاق روحه.

﴿والوجه الخامس﴾ أن قوله (أخرجوا أنفسكم) ليس بأمر، بل هو وعيد وتقرير، كقول القائل: امض الآن لترى ما يحل بك. قال المفسرون: إن نفس المؤمن تنشط في الخروج للقاء ربه ونفس الكافر تكدره ذلك فيشق عليها الخروج، لأنها تصير إلى أشد العذاب، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من أراد لقاء الله أراد الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» وذلك

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ «٩٤»

عند نزع الروح ، فهؤلاء الكفار تكبرهم الملائكة على نزع الروح :

المسألة الثانية . الذين قالوا إن النفس الانسانية شيء غير هذا الهيكل وغير هذا الجسد احتجوا عليه بهذه الآية . وقالوا : لاشك أن قوله (أخرجوا أنفسكم) معناه : أخرجوا أنفسكم عن أجسادكم ، وهذا يدل على أن النفس مغايرة للأجساد إلا أنالو حملنا الآية على الوجهين الأولين من التأويلات الخمسة المذكورة . لم يتم هذا الاستدلال .

ثم قال تعالى ﴿اليوم تجزون عذاب الهون﴾ قال الزجاج : عذاب الهون أى العذاب الذى يقع به الهوان الشديد . قال تعالى (أيمسك على هون أم يدسه فى التراب) والمراد منه أنه تعالى جمع هناك بين الايلام وبين الاهانة ، فان الثواب شرطه أن يكون منفعة مقرونة بالتعظيم ، فكذلك العقاب شرطه أن يكون مضرة مقرونة بالاهانة . قال بعضهم : الهون هو الهوان ، والهون هو الرفق والدعة . قال تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا) وقوله (بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) وذلك يدل أن هذا العذاب الشديد إنما حصل بسبب مجموع الأمرين الاقتراء على الله ، والتكبر على آيات الله . وأقول : هذان النوعان من الآفات والبلاء ترى أكثر المتوسمين بالعلم متوغلين فيه مواظبين عليه نعوذ بالله منه ومن آثاره ونتائجه . وذكر الواحدى : أن المراد بقوله (وكنتم عن آياته تستكبرون) أى لاتصلون له قال عليه السلام «من سجد لله سجدة بنية صادقة فقد برىء من الكبر»

قوله تعالى ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتكم ماخولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وصل عنكم ما كنتم تزعمون﴾ اعلم أن قوله ﴿ولقد جئتمونا فرادى﴾ يحتمل وجهين : الأول : أن يكون هذا معطوفا على قول الملائكة (أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون) فبين تعالى أنهم كما يقولون ذلك على وجه التوبيخ ، كذلك يقولون حكاية عن الله تعالى (ولقد جئتمونا فرادى) فيكون الكلام أجمع حكاية عنهم وأنهم يوردون ذلك على هؤلاء الكفار ، وعلى هذا التقدير ،

فيحتمل أن يكون قائل هذا القول الملائكة الموكلين بقبض أرواحهم . ويحتمل أن يكون القائل هم الملائكة الموكلون بعقابهم .

﴿والقول الثاني﴾ أن قائل هذا القول هو الله تعالى ومنشأ هذا الاختلاف إن الله تعالى هل يتكلم مع الكفار أولاً؟ فقوله تعالى في صفة الكفار (ولا يكلمهم) يوجب أن لا يتكلم معهم وقوله (فوربك لنسألنهم أجمعين) وقوله (فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين) يقتضى أن يكون تعالى يتكلم معهم . فلن هذا السبب وقع هذا الاختلاف . والقول الأول أقوى . لأن هذه الآية معطوفة على ما قبلها . والعطف يوجب التشريك .

﴿المسألة الثانية﴾ (فرادى) لفظ جمع وفى واحده قولان . قال ابن قتيبة : فرادى جمع فردان . مثل سكارى وسكران . وكسالى وكسلان . وقال غيره فرادى : جمع فريد . مثل رداق ورديف . وقال الفراء : فرادى جمع واحده فرد وفردة وفريد وفردان .

إذا عرفت هذا فقوله (ولقد جئتمونا فرادى) المراد منه التفرع والتوييح . وذلك لأنهم صرفوا جدهم وجهدهم فى الدنيا إلى تحصيل أمرين : أحدهما : تحصيل المال والجاه . والثانى : أنهم عبدوا الأصنام لاعتقادهم أنها تكون شفعا لهم عند الله . ثم إنهم لما وردوا محفل القيامة لم يبق معهم شيء من تلك الأموال ولم يجدوا من تلك الأصنام شفاعة لهم عند الله تعالى فبقوا فرادى عن كل ما حصلوه فى الدنيا وعولوا عليه . بخلاف أهل الايمان فانهم صرفوا عمرهم إلى تحصيل المعارف الحقة والأعمال الصالحة ، وتلك المعارف والأعمال الصالحة بقيت معهم فى قبورهم وحضرت معهم فى مشهد القيامة ، فهم فى الحقيقة ما حضروا فرادى ، بل حضروا مع الزاد ليوم المعاد :

ثم قال تعالى ﴿لقد تقطع بينكم﴾ وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ نافع وحفص عن عاصم والكسائى (بينكم) بالنصب . والباقون بالرفع قال الزجاج : الرفع أجود ، ومعناه . لقد تقطع وصلكم . والنصب جائز والمعنى : لقد تقطع ما كنتم فيه من الشركة بينكم . قال أبو على : هذا الاسم يستعمل على ضربين : أحدهما أن يكون اسما منصرفا كالأفراق . والأجود أن يكون ظرفا والمرفوع فى قراءة من قرأ (بينكم) هو الذى كان ظرفا ثم استعمل اسما . والدليل على جواز كونه اسما قوله تعالى (ومن بيننا وبينك حجاب) و (هذا فراق بينى وبينك) فلما استعمل اسما فى هذه المواضع جاز أن يسند اليه الفعل الذى هو (تقطع) فى قول من رفع . قال : ويدل على أن هذا المرفوع هو الذى استعمل ظرفا أنه لا يخلو من أن يكون الذى هو ظرف اتسع فيه أو يكون الذى هو مصدر . والقسم الثانى باطل . وإلا لصار تقدير الآية : لقد

تقطع افتراقكم وهذا ضد المراد ، لأن المراد من الآية لقد تقطع وصلكم وما كنتم سالفون عليه .

فان قيل : كيف جاز أن يكون بمعنى الوصل مع أن أصله الافتراق والتباين ؟

قلنا : هذا اللفظ إنما يستعمل في الشئيين اللذين بينهما مشاركة ومواصلة من بعض الوجوه ، كقولهم بنى وبينه شركة ، وبنى وبينه رحم ، فلهذا السبب حسن استعمال هذا اللفظ في معنى الوصلة فقوله (لقد تقطع بينكم) معناه لقد تقطع وصلكم . أما من قرأ (لقد تقطع بينكم) بالنصب فوجهه أنه أضر الفاعل والتقدير : لقد تقطع وصلكم بينكم وقال سيبويه : إنهم قالوا إذا كان غداً فأنتى والتقدير : إذا كان الرجاء أو البلاء غداً فأنتى ، فأضر لدلالة الحال . فكذا ههنا . وقال ابن الانبارى : التقدير : لقد تقطع ما بينكم . فحذفت لوضوح معناها .

(المسألة الثانية) اعلم أن هذه الآية مشتملة على قانون شريف في معرفة أحوال القيامة فأولها : أن النفس الانسانية إنما تعلقت بهذا الجسد آلة له في اكتساب المعارف الحقة والأخلاق الفاضلة فاذا فارقت النفس الجسد ولم يحصل هذين المطلوبين البتة عظمت حسراته وقويت آفاته حيث وجد مثل هذه الآلة الشريفة التي يمكن اكتساب السعادة الأبدية بها ، ثم إنه ضيعها وأبطلها ولم ينتفع بها البتة ، وهذا هو المراد من قوله (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة) وثانيها : أن هذه النفس مع أنها لم تكتسب بهذه الآلة الجسدانية سعادة روحانية ، وكالاً روحانياً ، فقد عمات عملاً آخر أردأ من الأول ، وذلك لأنها طول العمر كانت في الرغبة في تحصيل المال والجاه وفي تقوية العشق عليها ، وتأكيد المحبة ، وفي تحصيلها . والانسان في الحقيقة متوجه من العالم الجسماني إلى العالم الروحاني ، فهذا المسكين قلب القضية وعكس القضية وأخذ يتوجه من المقصد الروحاني إلى العالم الجسماني ونسى مقصده واغتر باللذات الجسمانية ، فلما مات انقلبت القضية شاء أم أبى توجه من العالم الجسماني إلى العالم الروحاني ، فبقيت الأموال التي اكتسبها وأبقى عمره في تحصيلها وراء ظهره والشئ الذي يبقى وراء ظهر الانسان لا يمكنه أن ينتفع به ، وربما بقي منقطع المنفعة دعوج الرقبة معوج الرأس بسبب التفاته اليها مع العجز عن الانتفاع بها ، وذلك يوجب نهاية الخيبة والغم والحسرة وهو المراد من قوله (وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم) وهذا يدل على أن كل مال يكتسبه الانسان ولم يصرفه في مصارف الخيرات فصفته هذه التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية ، أما إذا صرفها إلى الجهات الموجبة للتعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله فإترك تلك الأموال وراء ظهره ولكنه قدمها لتقاء وجهه ، كما قال تعالى (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عدالله) وثالثها : أن أولئك المساكين أتعبوا أنفسهم في نصرة الأديان الباطلة ، والمذاهب الفاسدة

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَمِيَّ مِنَ الْمَيْتِ وَمُخْرِجُ الْمَيْتِ مِنَ الْحَمِيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ «٩٥»

وظنوا أنهم ينتفعون بها عند الورود في محفل القيامة . فاذا وردوا وشاهدوا ما في تلك المذاهب من العذاب الشديد والعقاب الدائم حصلت فيه جهات كثيرة من العذاب . منها عذاب الحسرة والندامة : وهو أنه كيف أنفق ماله في تحمل العناء الشدين والبلاء العظيم في تحصيل ما لم يحصل له منه إلا العذاب والعناء ، ومنها عذاب الخجلة : وهو انه يظهر له ان كل ما كان يعتقده في دار الدنيا كان محض الجهالة وصریح الضلالة ، ومنها حصول اليأس الشديد مع الطمع العظيم ، ولا شك أن مجموع هذه الأحوال يوجب العذاب الشديد والآلام العظيمة الروحانية ، وهو المراد من قوله (وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء) ورابعها : أنه لما بدا له أنه فاته الأمر الذي به يقدر على اكتساب الخيرات . وحصل عنده الأمر الذي يوجب حصول المضرات . فاذن بقى له رجاء في التدارك من بعض الوجوه فههنا يحف ذلك الألم ويضعف ذلك الحزن . أما إذا حصل الجزم واليقين بأن التدارك ممتنع ، وجبر ذلك النقصان متعذر فههنا يعظم الحزن ويقوى البلاء جدا . واليه الاشارة بقوله تعالى (لقد تقطع بينكم) والمعنى أن الوصلة الحاصلة بين النفس والجسد قد تقطعت ولا سبيل إلى تحصيلها مرة أخرى . وعند الوقوف على حقائق هذه المراتب يظهر أنه لا بيان فوق هذا البيان في شرح أحوال هؤلاء الضالين

قوله تعالى ﴿ان الله فالق الحب والنوى يخرج الحمي من الميت ومخرج الميت من الحمي ذلكم الله فأنى تؤفكون﴾
في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنه تعالى لما تكلم في التوحيد ثم أردفه بتقرير أمر النبوة . ثم تكلم في بعض تفاريع هذا الأصل ، عاد ههنا إلى ذكر الدلائل الدالة على وجود الصانع . وكال علمه وحكمته وقدرته تنبها على أن المقصود الأصلي من جميع المباحث العقلية والنقلية . وكل المطالب الحكمية إنما هو معرفة الله بذاته وصفاته وأفعاله . وفي قوله (فالق الحب والنوى) قولان :

﴿القول الأول﴾ وهو مروى عن ابن عباس وقول الضحاك ومقاتل (فالق الحب والنوى) أى خالق الحب والنوى . قال الواحدى : ذهبوا بفالق مذهب فاطر ، وأقول : الفطر هو الشق .

وكذلك الفلق ، فالشيء قبل أن يدخل في الوجود كان معدوما محضا ونفيا صرفا ، والعقل يتصور من العدم ظلمة متصلة لا انفراج فيها ولا انفلاق ولا انشقاق ، فاذا أخرج المبدع الموجد من العدم إلى الوجود ، فكأنه بحسب التخيل والتوهم شق ذلك العدم وقلقه . وأخرج ذلك المحدث من ذلك الشق . فهذا التأويل لا يبعد حمل الفالق على الموجد والمحدث والمبدع .

﴿والقول الثاني﴾ وهو قول الأكثرين : أن الفلق هو الشق ، والحب هو الذي يكون مقصودا بذاته مثل حبة الخنطة والشعير وسائر الأنواع ، والنوى هو الشيء الموجود في داخل الثمرة مثل نوى الخوخ والتمر وغيرهما .

إذا عرفت هذا فنقول : انه إذا وقعت الحبة أو النواة في الأرض الرطبة . ثم مر به قدر من المدة أظهر الله تعالى في تلك الحبة والنواة من أعلاها شقا ومن أسفلها شقا آخر . أما الشق الذي يظهر في أعلى الحبة والنواة فانه يخرج منه الشجرة الصاعدة إلى الهواء ، وأما الشق الذي يظهر في أسفل تلك الحبة فانه يخرج منه الشجرة الهابطة في الأرض وهي المسماة بعروق الشجرة ، وتصير تلك الحبة والنواة سببا لاتصال الشجرة الصاعدة في الهواء بالشجرة الهابطة في الأرض

ثم ان ههنا عجائب : فاحداها : أن طبيعة تلك الشجرة إن كانت تقتضى الهوى في عمق الأرض فكيف تولدت منها الشجرة الصاعدة في الهواء ؟ وان كانت تقتضى الصعود في الهواء ، فكيف تولدت منها الشجرة الهابطة في الأرض ؟ فلما تولد منها هاتان الشجرتان مع ان الحس والعقل يشهد بكون طبيعة إحدى الشجرتين مضادة لطبيعة الشجرة الأخرى ، علمنا أن ذلك ليس بمقتضى الطبع والخاصية ، بل بمقتضى الإيجاد والابداع والتكوين والاختراع . وثانيتها : أن باطن الأرض جرم كثيف صلب لا تنفذ المسئلة القوية فيه ولا يغوص السكين الحاد القوي فيه ، ثم إنا نشاهد أطراف تلك العروق في غاية الدقة واللطافة بحيث لو دلكها الانسان بأصبعه بأذنى قوة لصارت كالماء ، ثم انها مع غاية اللطافة تقوى على النفوذ في تلك الأرض الصلبة والغوص في بواطن تلك الأجرام الكشيفية ، فحصول هذه القوى الشديدة لهذه الأجرام الضعيفة التي هي في غاية اللطافة لا بد وأن يكون بتقدير العزيز الحكيم . وثالثها : أنه يتولد من تلك النواة شجرة ويحصل في تلك الشجرة طبائع مختلفة . فان قشر الخشبة له طبيعة مخصوصة . وفي داخل ذلك القشر جرم الخشبة وفي وسط تلك الخشبة جسم رخوضعيف يشبه العين المنفوش ، ثم انه يتولد من ساق الشجرة أغصانها ويتولد على الأغصان الأوراق أولا ، ثم الأزهار والأنوار ثانيا ، ثم الفاكهة ثالثا ، ثم قد يحصل للفاكهة أربعة أنواع من القشر : مثل الجوز ، فان قشره الأعلى هو ذلك الأخضر ، وتحت ذلك القشر الذي

يشبه الخشب ، وتحتته ذلك القشر الذى هو كالغشاء الرقيق المحيط باللب ، وتحتته ذلك اللب ، وذلك اللب مشتمل على جرم كثيف هو أيضا كالقشر . وعلى جرم لطيف وهو الدهن ، وهو المقصود الأصيل ، فتولد هذه الأجسام المختلفة فى طبائعها وصفاتها وألوانها وأشكالها وطعومها مع تساوى تأثيرات الطبائع والنجوم والفصول الأربعة والطبائع الأربع ، يدل على انها إنما حدثت بتدبير الحكيم الرحيم المختار القادر لا بتدبير الطبائع والعناصر . ورابعها : انك قد تجعد الطبائع الأربع حاصلة فى الفاكهة الواحدة ، فالأترنج قشره حار يابس ، ولحمه بارد رطب . وحماضه بارد يابس . وبذره حار يابس ، وكذلك العنب قشره وعجمه بارد يابس ، وماؤه ولحمه حار رطب . فتولد هذه الطبائع المضادة والخواص المتنافرة عن الحبة الواحدة لا بد وأن يكون بايجاد الفاعل المختار . وخامسها : انك تجد أحوال الفواكه مختلفة فبعضها يكون اللب فى الداخل والقشر فى الخارج كما فى الجوز واللوز وبعضها يكون الفاكهة المطلوبة فى الخارج . وتكون الخشبة فى الداخل كالخوخ والمشمش . وبعضها يكون النواة لها لب كما فى نوى المشمش والخوخ ، وبعضها لا لب له . كما فى نوى التمر وبعض الفواكه لا يكون له من الداخل والخارج قشر ، بل يكون كله مطلوباً كالتين . فهذه أحوال مختلفة فى هذه الفواكه وأيضاً هذه الحبوب مختلفة فى الاشكال والصور فشكل الحنطة كأنه نصف دائرة ، وشكل الشعير كأنه مخروطان اتصالاً بقاعدتيهما . وشكل العدس كأنه دائرة ، وشكل الخس على وجه آخر . فهذه الاشكال المختلفة . لا بد وأن تكون لاسرار وحكم علم الخالق ان تركيبها لا يكمل إلا على ذلك الشكل ، وأيضاً فقد أودع الخالق تعالى فى كل نوع من أنواع الحبوب خاصية أخرى ومنفعة أخرى وأيضاً فقد تكون الثمرة الواحدة غذاء لحيوان وسما لحيوان آخر ، فاختلفت هذه الصفات والاشكال والاحوال مع اتحاد الطبائع وتأثيرات الكواكب يدل على أن كلها إنما حصلت بتخليق الفاعل المختار الحكيم . وسادسها : أنك إذا أخذت ورقة واحدة من أوراق الشجرة وجدت خطأ واحداً مستقيماً فى وسطها ، كأنه بالنسبة إلى تلك الورقة كالنخاع بالنسبة إلى بدن الانسان ، وكما انه ينفصل من النخاع أعصاب كثيرة يمتدة ويسرة فى بدن الانسان . ثم لا يزال ينفصل عن كل شعبة شعب آخر ، ولا تزال تستدق حتى تخرج عن الحس والابصار بسبب الصغر . فكذلك فى تلك الورقة قد ينفصل عن ذلك الخط الكبير الوسطانى خطوط منفصلة . وعن كل واحد منها خطوط مختلفة أخرى أدق من الأولى ، ولا يزال يبقى على هذا المنهج حتى تخرج تلك الخطوط عن الحس والبصر والخالق تعالى إنما فعل ذلك حتى أن القوى الجاذبة المركزية فى جرم تلك الورقة تقوى على جذب الاجزاء اللطيفة الارضية فى تلك المجارى الضيقة . فلها وقفت على عناية الخالق فى ايجاد تلك

الورقة الواحدة علمت أن عنايةه في تخليق جملة تلك الشجرة أكمل ، وعرفت أن عنايةه في تكوين جملة النبات أكمل .

ثم إذا عرفت أنه تعالى إنما خلق جملة النبات لمصلحة الحيوان علمت ان عنايةه بتخليق الحيوان أكمل ، ولما علمت أن المقصود من تخليق جملة الحيوانات هو الانسان علمت ان عنايةه في تخليق الانسان أكمل . ثم أنه تعالى إنما خلق النبات والحيوان في هذا العالم ليكون غذاء ودواء للانسان بحسب جسده والمقصود من تخليق الانسان هو المعرفة والمحبة والخدمة ، كما قال تعالى (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون)

فانظر أيها المسكين بعين رأسك في تلك الورقة الواحدة من تلك الشجرة ، واعرف كيفية خلقة تلك العروق والآوتار فيها ، ثم انتقل من مرتبة إلى ما فوقها حتى تعرف أن المقصود الأخير منها حصول المعرفة والمحبة في الارواح البشرية ، فحينئذ يفتح عليك باب من المكاشفات لا آخر لها . ويظهر لك أن أنواع نعم الله في حقاك غير متناهية ، كما قال (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) وكل ذلك إنما ظهر من كيفية خلقة تلك الورقة من الحبة والنواة ، فهذا كلام مختصر في تفسير قوله (إن الله فالق الحب والنوى) ومتى وقف الانسان عليه أمكنه تفريقها وتشعيبها إلى ما لا آخر له ، ونسأل الله التوفيق والهداية .

﴿المسألة اثنائية﴾ اماقوله تعالى (يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى) ففيه مباحث : الأول : أن (الحى) اسم لما يكون موصوفا بالحياة ، و (الميت) اسم لما كان خاليا عن صفة الحياة فيه ، وعلى هذا التقدير : النبات لا يكون حيا .

إذا عرفت هذا فللناس في تفسير هذا (الحى) و(الميت) قولان : الأول : حمل هذين اللفظين على الحقيقة . قال ابن عباس : يخرج من النطفة بشرا حيا ، ثم يخرج من البشر الحى نطفة ميتة ، وكذلك يخرج من البيضة فروجة حية ، ثم يخرج من الدجاجة بيضة ميتة ، والمقصود منه أن الحى والميت متضادان متنافيان ، فحصول المثل عن المثل يوهم أن يكون بسبب الطبيعة والخاصية . أما حصول الضد من الضد ، فيمتنع أن يكون بسبب الطبيعة والخاصية ، بل لا بد وأن يكون بتقدير المقدر الحكيم . والمدبر العليم

﴿والقول الثانى﴾ أن يحمل (الحى) و(الميت) على ما ذكرناه ، وعلى الوجود المجازية أيضا ، وفيه وجود . الأول : قال الزجاج : يخرج النبات الغض الطرى الخضر من الحب اليابس ويخرج اليابس من النبات الحى النامى . الثانى : قال ابن عباس : يخرج المؤمن من الكافر ، كما فى حق ابراهيم . والكافر من المؤمن

كما فى حق ولد نوح ، والعاصى من المطيع ، وبالعكس . الثالث : قد يصير بمرض ما يقطع عليه بأنه يوجب المضرة سببا للنتفع العظيم ، وبالعكس . ذكروا فى الطب أن إنسانا سقوه الأفيون الكثير فى الشراب لأجل أن يموت . فلما تناولوه وظن القوم أنه سيموات فى الحال رفعوه من موضعه ووضعوه فى بيت مظلم فخرجت حية عظيمة فلدغته فصارت تلك اللدغة سببا لاندفاع ضرر ذلك الأفيون منه ، فان الأفيون يقتل بقوة برده ، وسم الأفيون يقتل بقوة حره فصارت تلك اللدغة سببا لاندفاع ضرر الأفيون ، فههنا تولد عما يعتقد فيه كونه أعظم موجبات الشر أعظم الخيرات . وقد يكون بالعكس من ذلك ، وكل هذه الأحوال المختلفة والأفعال المتدافعة تدل على أن لهذا العالم مدبرا حكيما ما أهمل مصالح الخالق وما تركهم سدى ، وتحت هذه المباحث مباحث عالية شريفة .

﴿البحث الثانى﴾ من مباحث هذه الآية قرأ نافع وحمزة والكسائى وحفص عن عاصم (الميت) مشددة فى الكلمتين والباقون بالتخفيف فى الكلمتين ، وكذلك كل هذا الجنس فى القرآن .

﴿البحث الثالث﴾ أن لقائل أن يقول : إنه قال أولا (يخرج الحى من الميت) ثم قال (ويخرج

الميت من الحى) وعطف الاسم على الفعل قبيح . فما السبب فى اختيار ذلك ؟

قلنا : قوله (ويخرج الميت من الحى) معطوف على قوله (فالق الحب والنوى) وقوله (يخرج الحى من الميت) كالبيان والتفسير لقوله (فالق الحب والنوى) لأن فلق الحب والنوى بالنبات والشجر النامى من جنس إخراج الحى من الميت . لأن النامى فى حكم الحيوان . ألا ترى إلى قوله (ويحي الأرض بعد موتها) وفيه وجه آخر . وهو أن لفظ الفعل يدل على أن ذلك الفاعل يعنى بذلك الفعل فى كل حين وأوان . وأما لفظ الاسم فانه لا يفيد التجدد والاعتناء به ساعة فساعة . وضرب الشيخ عبد القاهر الجرجانى لهذا مثلا فى كتاب دلائل الإعجاز فقال : قوله (هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء) إنما ذكره بلفظ الفعل وهو قوله (يرزقكم) لأن صيغة الفعل تفيد أنه تعالى يرزقهم حالا فخالا وساعة فساعة . وأما الاسم فمثاله قوله تعالى (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) فقوله (باسط) يفيد البقاء على تلك الحالة الواحدة .

إذا ثبت هذا فنقول : الحى أشرف من الميت . فوجب أن يكون الاعتناء بإخراج الحى من الميت أكثر من الاعتناء بإخراج الميت من الحى . فلهذا المعنى وقع التعبير عن القسم الأول بصيغة الفعل ، وعن الثانى بصيغة الاسم : تنبيها على أن الاعتناء بإيجاد الحى من الميت أكثر وأكمل من الاعتناء بإيجاد الميت من الحى . والله اعلم بمراده .

ثم قال تعالى فى آخر الآية ﴿ذلکم الله فأنى تؤفکون﴾ وفيه مسألتان :

فَالِقِ الْاَصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ

الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ «٩٦»

﴿المسألة الأولى﴾ قال بعضهم معناه : ذلكم الله المدبر الخالق النافع الضار المحيي المميت (فأني تؤفكون) في أثبات القول بعبادة الأصنام . والثاني : أن المراد أنكم لما شاهدتم أنه تعالى يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ثم شاهدتم أنه أخرج البدن الحي من النطفة الميتة مرة واحدة ، فكيف تستبعدون أن يخرج البدن الحي من ميت التراب الرميم مرة أخرى ؟ والمقصود الانكار على تكذيبهم بالحشر والنشر ، وأيضاً الضدان متساويان في النسبة فكما لا يمتنع الانقلاب من أحد الضدين إلى الآخر ، وجب أن لا يمتنع الانقلاب من الثاني إلى الأول ، فكما لا يمتنع حصول الموت بعد الحياة . وجب أيضاً أن لا يمتنع حصول الحياة بعد الموت ، وعلى كلا التقديرين فيخرج منه جواز القول بالبعث والحشر والنشر .

﴿المسألة الثانية﴾ تمسك صاحب بن عباد بقوله (فأني تؤفكون) على أن فعل العبد ليس مخلوقاته تعالى . قال : لأنه تعالى لو خلق الأفك فيه ، فكيف يليق به أن يقول مع ذلك (فأني تؤفكون) والجواب عنه : أن القدرة بالنسبة إلى الضدين على السوية ، فان ترجح أحد الطرفين على الآخر لا مرجح ، فحينئذ لا يكون هذا الرجحان من العبد . بل يكون محض الاتفاق ، فكيف يحسن أن يقال له (فأني تؤفكون) وأن توقف ذلك المرجح على حصول مرجح ، وهي الداعية الجاذبة إلى الفعل ، فحصول تلك الداعية يكون من الله تعالى ، وعند حصولها يجب الفعل ، وحينئذ يلزمكم كل ما ألزمتموه علينا . والله أعلم .

قوله تعالى ﴿فالق الاصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير

العزیز العليم﴾

اعلم أن هذا نوع آخر من دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته وحكمته . فالنوع المتقدم كان مأخوذاً من دلالة أحوال النبات والحيوان ، والنوع المذكور في هذه الآية مأخوذ من الأحوال الفلكية ، وذلك لأن فلق ظلمة الليل بنور الصبح أعظم في كمال القدرة من فلق الحب والنوى بالنبات والشجر ، ولأن من المعلوم بالضرورة أن الأحوال الفلكية أعظم في القلوب وأكثر وقوعاً من الأحوال الأرضية ، وتقدير الحجية من وجود : الأول : أن نقول : الصبح صباحان .

﴿فالصبح الأول﴾ هو الصبح المستطيل كذنب السرحان ، ثم تعقبه ظلمة خالصة . ثم يطلع بعده الصبح المستطير في جميع الأفق فنقول : أما الصبح الأول : وهو المستطيل الذي يحصل عقيب ظلمة خالصة فهو من أقوى الدلائل على قدرة الله وحكمته . وذلك لأننا نقول : إن ذلك النور إما أن يقال : إنه حصل من تأثير قرص الشمس أو ليس الأمر كذلك ، والأول باطل . وذلك لأن مركز الشمس إذا وصل الى دائرة نصف الليل فاهل الموضع الذي تكون تلك الدائرة أفقاً لهم قد طلعت الشمس من مشرقهم ، وفي ذلك الموضع أيضا نصف كرة الأرض . وذلك يقتضى أنه حصل الضوء في الربع الشرقي من بلدنا ، وذلك الضوء يكون منتشر امستطيرا في جميع أجزاء الجو . ويجب أن يكون ذلك الضوء في كل ساعة الى القوة والزيادة والكمال . والصبح الأول لو كان أثر قرص الشمس لامتنع كونه خطا مستطيلا ، بل يجب أن يكون مستطيرا في جميع الأفق منتشرا فيه بالكلية ، وأن يكون متزايدا متكاملا بحسب كل حين ولحظة . ولما لم يكن الأمر كذلك بل علمنا أن الصبح الأول يبدو كالحيط الأبيض الصاعد حتى تشبهه العرب بذنب السرحان . ثم أنه يحصل عقيب ظلمة خالصة ، ثم يحصل الصبح المستطير بعد ذلك علمنا أن ذلك الصبح المستطيل ليس من تأثير قرص الشمس . ولا من جنس نوره . فوجب أن يكون ذلك حاصلًا بتخليق الله تعالى ابتداء تنبيه على أن الأنوار ليس لها وجود إلا بتخليقه . وإن الظلمات لا ثبات لها إلا بتقديره كما قال في أول هذه السورة (وجعل الظلمات والنور)

﴿والوجه الثاني﴾ في تقرير هذا الدليل أنا لما بحثنا وتأملنا علمنا أن الشمس والقمر وسائر الكواكب لا تقع أضواؤها إلا على الجرم المقابل لها . فأما الذي لا يكون مقابلا لها فيمتنع وقوع أضواؤها عليه . وهذه مقدمة متفق عليها بين الفلاسفة وبين الرياضيين الباحثين عن أحوال الضوء المضى . ولهم في تقريرها وجوه نفيسة .

إذا عرفت هذا نقول : الشمس عند طلوع الصبح غير مرتفعة من الأفق فلا يكون جرم الشمس مقابلا لجزء من أجزاء وجه الأرض . فيمتنع وقوع ضوء الشمس على وجه الأرض . وإذا كان كذلك امتنع أن يكون ضوء الصبح من تأثير قرص الشمس . فوجب أن يكون ذلك بتخليق الفاعل المختار .

فان قالوا : لم لا يجوز أن يقال : الشمس حين كونها تحت الأرض توجب إضاءة ذلك الهواء المقابل له ، ثم ذلك الهواء مقابل للهواء الواقف فوق الأرض . فيصير ضوء الهواء الواقف تحت الأرض سببا لضوء الهواء الواقف فوق الأرض . ثم لا يزال يسرى ذلك الضوء من هواء إلى هواء

آخر ملاصق له حتى يصل إلى الهواء المحيط بنا هذا هو الوجه الذي عول عليه أبو علي بن الهيثم في تقرير هذا المعنى في كتابه الذي سماه بالمنظر الكثرة .

والجواب : أن هذا انعذر باطل من وجهين : الأول : أن الهواء جرم شفاف عديم اللون ، وما كان كذلك فانه لا يقبل النور ، واللون في ذاته وجوهره ، وهذا متفق عليه بين الفلاسفة . واحتجوا عليه بأنه لو استقر النور على سطحه لوقف البصر على سطحه . ولو كان كذلك لما نفذ البصر فيما وراءه ، ولصار إبطاره مانعا عن إبطار ما وراءه ، فحيث لم يكن كذلك علمنا أنه لم يقبل اللون والنور في ذاته وجوهره ، وما كان كذلك امتنع أن ينعكس النور منه الى غيره ، فامتنع أن يصير ضوءه سببا لضوء هواء آخر مقابل له .

فان قالوا : لم لا يجوز أن يقال : إنه حصل في الأفق أجزاء كشيعة من الأبخرة والأدخنة ؟ وهي لكثافتها تقبل النور عن قرص الشمس . ثم إن بحصول الضوء فيها يصير سببا لحصول الضوء في الهواء المقابل لها ، فنقول : لو كان السبب ما ذكرتم لكان كلما كانت الأبخرة والأدخنة في الأفق أكثر ، وجب أن يكون ضوء الصباح أقوى لكنه ليس الأمر كذلك ، بل على العكس منه فيبطل هذا العذر .

﴿الوجه الثاني﴾ في ابطال هذا الكلام الذي ذكره ابن الهيثم ان الدائرة التي هي دائرة الافق لنا . فهي بعينها دائرة نصف النهار لقوم آخرين ، فاذا كان كذلك ، فالدائرة التي هي نصف النهار في بلدنا ، وجب كونها دائرة الافق لأولئك الاقوام

اذا ثبت هذا فنقول : اذا وصل مركز الشمس الى دائرة بصف الليل وتجاوز عنها ، فالشمس قد طلعت على أولئك الاقوام ، واستتار نصف العام هناك ، والربع من الفلك الذي هو ربع شرقي لأهل بلدنا فهو بعينه ربع غربي بالنسبة إلى تلك البلدة وإذا كان كذلك فالشمس إذا تجاوز مركزها عن دائرة نصف الليل قد صار جرمها محاذيا لهواء الربع الشرقي لأهل بلدنا . فلو كان الهواء يقبل كيفية النور من الشمس لوجب أن يحصل الضوء والنور في هواء الربع الشرقي من بلدنا بعد نصف الليل . وأن يصير هواء الربع الشرقي في غاية الاضاءة والانارة بعد نصف الليل ، وحيث لم يكن الأمر كذلك علمنا أن الهواء لا يقبل كيفية النور في ذاته . وإذا بطل هذا بطل العذر الذي ذكره ابن الهيثم فقد ذكرنا برهانين دقيقين عقليين محضين على أن خالق الضوء والظلمة هو الله تعالى لا قرص الشمس والله أعلم .

﴿والوجه الثالث﴾ هب أن النور الحاصل في العالم إنما كان بتأثير الشمس . إلا أنا نقول :

الاجسام متماثلة في تمام الماهية ومتى كان الامر كذلك كان حصول هذه الخاصية لقرص الشمس يجب أن يكون بتخليق الفاعل المختار . أما بيان المقام الأول : فهو أن الأجسام متماثلة في كونها أجساما ومتحيزة ، فلو حصل الاختلاف بينها لكان ذلك الاختلاف واقعا في مفهوم مغاير لمفهوم الجسمية ضرورة أن ما به المشاركة مغاير لما به المخالفة فنقول : ذلك الأمر إما أن يكون محلا للجسمية أو حالا فيها أو لا محلا لها ولا حالا فيها . والأول : باطل لأنه يقتضـ كـون الجسم صفة قائمة بذات أخرى وذلك محال لأن ذلك المحل إن كان متحيزا ومختصا بحيث كان محل الجسم غير الجسم وهو محال ، وإن لم يكن كذلك كان الحاصل في الحيز حالا في محل لا تعلق له بشيء من الاحياز والجهات ، وذلك مدفوع في بديهة العقل . والثاني : أيضا باطل لأن على هذا التقدير : الذوات هي الأجسام وما به قد حصلت المخالفة هو الصفات وكل ما يصح على شيء ، صح على مثله فلما كانت الذوات متماثلة في تمام الماهية وجب أن يصح على كل واحد منها ما يصح على الآخر وهو المطلوب . والثالث : وهو القول بأن ما به حصلت المخالفة ليس محلا للجسم ولا حالا فيه ، وفساد هذا القسم ظاهر . فثبت بهذا البرهان أن الاجسام متماثلة .

وإذا ثبت هذا فنقول : كل ما يصح على أحد المثلين فانه يصح أيضا على المثل الثاني . وإذا استوت الأجسام بأسرها في قبول جميع الصفات على البديل كان اختصاص جسم الشمس لهذه الاضاءة وهذه الانارة لا بد وأن يكون بتخصيص الفاعل المختار . وإذا ثبت هذا كان فالق الاصباح في الحقيقة هو الله تعالى وذلك هو المطلوب . والله أعلم .

﴿الوجه الرابع﴾ في تقرير هذا المطلوب أن الظلمة شبيهة بالعدم . بل البرهان القاطع قد دل على أنه مفهوم عديم والنور محض الوجود . فاذا أظلم الليل حصل الخوف والفرع في قلب النمل فاستولى النوم عليهم وصاروا كالأهوات وسكنت المتحركات وتعطلت التأثيرات ورفعت التفاعلات فاذا وصل نور الصباح إلى هذا العالم فكانه نفخ في الصور مادة الحياة وقوة الإدراك فيضعف النوم وابتدأت اليقظة بالظهور . وكلما كان نور الصباح أقوى وأكمل كان ظهور قوة الحس والحركة في الحيوانات أكمل . ومعلوم أن أعظم نعم الله على الخلق هو قوة الحياة والحس والحركة ولما كان النور هو السبب الأصلي لحصول هذه الأحوال كان تأثير قدرة الله تعالى في تخليق النور من أعظم أقسام النعم وأجل أنواع الفضل والكرم .

إذا عرفت هذا فكونه سبحانه فالقاً للاصباح في كونه دليلاً على كمال قدرة الله تعالى أجل أقسام الدلائل ، وفي كونه فضلاً ورحمة وإحساناً من الله تعالى على الخلق أجل الأقسام وأشرف الأنواع

فهذا ما حضرنا في تقرير دلالة قوله تعالى (فالق الاصبح) على وجود الصانع القادر المختار الحكيم. والله أعلم.

ولنختم هذه الدلائل بختامة شريفة فنقول : إنه تعالى فالق ظلمة العدم بصباح التكوين والايجاد وفالق ظلمة الجمادية بصباح الحياة والعقل والرشاد ، وفالق ظلمة الجهالة بصباح العقل والادراك ، وفالق ظلمات العالم الجسماني بتخليص النفس القدسية إلى صبحه عالم الافلاك ، وفالق ظلمات الاشتغال بعالم الممكنات بصباح نور الاستغراق في معرفة مدبر المحدثات والمبدعات .

﴿المسألة الثالثة﴾ في تفسير (الاصباح) وجوه : الأول : قال الليث : الصبح والاصباح هما أول النهار وهو الاصبح أيضا . قال تعالى (فالق الاصبح) يعنى الصبح . قال الشاعر :

أفنى رياحا وبني رياح تناسخ الامساء والاصباح

﴿والقول الثاني﴾ أن (الاصباح) مصدر سمي به الصبح .

فان قيل : ظاهر الآية يدل على أنه تعالى فاق الصبح وليس الامر كذلك فان الحق أنه تعالى فلق الظلمة بالصبح فكيف الوجه فيه ؟ فنقول فيه وجوه : الأول : أن يكون المراد فالق ظلمة الاصبح ، وذلك لأن الافق من الجانب الشمالى والغربى والجنوبى مملوء من الظلمة . والنور وانما ظهر فى الجانب الشرقى فكان الافق كان بحرا مملوءا من الظلمة . ثم إنه تعالى شق ذلك البحر المظلم بأن أجرى جدولا من النور فيه ، والحاصل أن المراد فالق ظلمة الاصبح بنور الاصبح ولما كان المراد معلوما حسن الحذف . والثانى : أنه تعالى كما يشق بحر الظلمة عن نور الصبح فكذلك يشق نور الصبح عن بياض النهار فقوله (فالق الاصبح) أى فلق الاصبح ببياض النهار . والثالث : أن ظهور النور فى الصباح انما كان لأجل أن الله تعالى فاق تلك الظلمة فقوله (فالق الاصبح) أى مظهر الاصبح إلا أنه لما كان المقتضى لذلك الاظهار هو ذلك الفلق لاجرم ذكر اسم السبب والمراد منه المسبب . الرابع : قال بعضهم : الفالق هو الخالق فكان المعنى خالق الاصبح وعلى هذا التقدير فالسؤال زائل والله أعلم .

أما قوله تعالى ﴿وجاعل الليل سكنا﴾ فاعلم أنه تعالى ذكر فى هذه الآية ثلاثة أنواع من الدلائل الفلكية على التوحيد . فأولها : ظهور الصباح وقد فسرناه بمقدار الفهم . وثانيها : قوله ﴿وجاعل الليل سكنا﴾ وفيه مباحث :

﴿المبحث الأول﴾ قال صاحب الكشاف : السكن ما يسكن اليه الرجل ويطمئن اليه استئناسا به واسترواحا اليه من زوج أو حبيب ، ومنه قيل : للنار سكن لأنه يستأنس بها ألا تراهم سموها

المؤنسة . ثم إن الليل يطمئن إليه الانسان لأنه أتعب نفسه بالنهار واحتاج إلى زمان يستريح فيه وذلك هو الليل .

فان قيل : أليس أن الخلق يبقون في الجنة في أهنأ عيش . وألذ زمان مع أنه ليس هناك ليل ؟ فعلينا أن وجود الليل والنهار ليس من ضروريات المدة والخير في الحياة قلنا : كلامنا في أن الليل والنهار من ضروريات مصالح هذا العالم ، أما في الدار الآخرة فهذه العادات غير باقية فيه فظهر الفرق .

﴿المبحث الثاني﴾ قرأ عاصم والكسائي (وجعل الليل) على صيغة الفعل . والباقون جاعل على صيغة اسم الفاعل حجة من قرأ باسم الفاعل أن المذكور قبله اسم الفاعل ، وهو قوله (فائق الحب . وفائق الأصباح) وجاعل أيضا اسم الفاعل . ويجب كون المعطوف مشاركا للمعطوف عليه . وحجة من قرأ بصيغة الفعل أن قوله (والشمس والقمر) منصوبان ولا بد لهذا النصب من عامل ، وما ذاك إلا أن يقدر قوله (وجعل) بمعنى وجاعل الشمس والقمر حسبانا وذلك يفيد المطلوب .
وأما قوله تعالى ﴿والشمس والقمر حسبانا﴾ ففيه مباحث .

﴿المبحث الأول﴾ معناه أنه قدر حركة الشمس والقمر بحساب معين كما ذكره في سورة يونس في قوله (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) وقال في سورة الرحمن (الشمس والقمر بحسبان) وتحقيق الكلام فيه أنه تعالى قدر حركة الشمس مخصوصة بمقدار من السرعة والبطء بحيث تتم الدورة في سنة . وقدر حركة القمر بحيث يتم الدورة في شهر ، وبهذه المقادير تنتظم مصالح العالم في الفصول الأربعة . وبسببها يحصل ما يحتاج إليه من نضج الثمار ، وحصول الغلات ، ولو قدرنا كونها أسرع أو أبطأ مما وقع . لاختلت هذه المصالح فهذا هو المراد من قوله (والشمس والقمر حسبانا)

﴿المبحث الثاني﴾ في الحسبان قولان : الأول : وهو قول أبي الهيثم أنه جمع حساب مثل ركاب وركبان وشهاب وشهبان . والثاني : أن الحسبان مصدر كالرجحان والنقصان . وقال صاحب الكشاف : الحسبان بالضم مصدر حسب ، كما أن الحسبان بالكسر مصدر حسب ، ونظيره الكفران والغفران والشكران .

إذا عرفت هذا فنقول : معنى جعل الشمس والقمر حسبانا جعلهما على حساب . لأن حساب الأوقات لا يعلم إلا بدورهما وسيرهما .

﴿المبحث الثالث﴾ قال صاحب الكشاف (والشمس والقمر) قرئنا بالحركات الثلاث ، فالنصب

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَضَّلْنَا

الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾

على اضمار فعل دل عليه قوله (جاعل الليل) أى وجعل الشمس والقمر حسبانا، والجر عطف على لفظ الليل، والرفع على الابتداء، والخبر محذوف تقديره . والشمس والقمر مجعولان حسبانا: أى محسوبان .

ثم إنه تعالى ختم الآية بقوله ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾ والعزیز إشارة إلى كمال قدرته والعليم إشارة إلى كمال علمه ، ومعناه أن تقدير إجمام الأفلاك بصفاتهما المخصوصة وهيئاتها المحدودة ، وحركاتها المقدررة بالمقادير المخصوصة في البطء والسرعة لا يمكن تحصيله إلا بقدررة كاملة متعلقة بجميع الممكنات وعلم نافذ في جميع المعلومات من الكلليات والجزئيات ، وذلك تصريح بأن حصول هذه الأحوال والصفات ليس بالطبع والخاصة . وإنما هو بتخصيص الفاعل المختار . والله أعلم بقوله تعالى ﴿وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فضلنا الآيات لقوم يعلمون﴾

هذا هو النوع الثالث من الدلائل الدالة على كمال القدرة والرحمة والحكمة ، وهو أنه تعالى خلق هذه النجوم لمنافع العباد وهي من وجوه :

﴿الوجه الأول﴾ أنه تعالى خلقها لتهتدى الخلق بها إلى الطرق والمسالك في ظلمات البر والبحر حيث لا يرون شمسا ولا قمرًا لأن عند ذلك يهتدون بها إلى المسالك والطرق التي يريدون المرور فيها

﴿الوجه الثاني﴾ وهو أن الناس يستدلون بأحوال حركة الشمس على معرفة أوقات الصلاة ، وإنما يستدلون بحركة الشمس في النهار على القبلة ، ويستدلون بأحوال الكواكب في الليالي على معرفة القبلة

﴿الوجه الثالث﴾ أنه تعالى ذكر في غير هذه السورة كون هذه الكواكب زينة للسماء ، فقال (تبارك الذى جعل في السماء بروجًا) وقال تعالى (إننا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب) وقال (والسما ذات البروج)

﴿الوجه الرابع﴾ أنه تعالى ذكر في منافعها كونها رجوما للشياطين .

﴿الوجه الخامس﴾ يمكن أن يقال : لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر أى فى ظلمات التعطيل والتشبيه ، فان المعطل ينفى كونه فاعلا مختارا ، والمشبه يثبت كونه تعالى جسما مختصا بالمكان فهو تعالى خلق هذه النجوم ليهتدى بها فى هذين النوعين من الظلمات . أما الاهتداء بها فى ظلمات بر التعطيل ، فذلك لأننا نشاهد هذه الكواكب مختلفة فى صفات كثيرة فبعضها سيارة وبعضها ثابتة ، والثوابت بعضها فى المنطقة وبعضها فى القطبين . وأيضا الثوابت لامعة والسيارة غير لامعة ، وأيضا بعضها كبيرة درية عظيمة الضوء . وبعضها صغيرة خفية قليلة الضوء . وأيضا قدرها ومقاديرها على سبع مراتب .

إذا عرفت هذا فنقول : قد دللنا على أن الأجسام متماثلة ، وبيننا أنه متى كان الأمر كذلك كان اختصاص كل واحد منها بصفة معينة دليلا على أن ذلك ليس إلا بتقدير الفاعل المختار فهذا وجه الاهتداء بها فى ظلمات بر التعطيل . وأما وجه الاهتداء بها فى ظلمات بحر التشبيه فلأننا نقول إنه لا عيب يقدر فى إلهية هذه الكواكب إلا أنها أجسام فتكون مؤلفة من الأجزاء والأبعاد . وأيضا إنها متناهية ومحدودة ، وأيضا إنها متغيرة ومتحركة ومنقلة من حال إلى حال فهذه الأشياء إن لم تكن عيوباً فى الإلهية امتنع الطعن فى إلهيتها ، وإن كانت عيوباً فى الإلهية وجب تنزيه الإله عنها بأسرها فوجب الجزم بأن إله العالم والسماء والأرض منزه عن الجسمية والأعضاء والأبعاد والحد والنهاية والمكان والجهة ، فهذا بيان الاهتداء بهذه الكواكب فى بر التعطيل وبحر التشبيه ، وهذا وإن كان عدولا عن حقيقة اللفظ إلى مجازة إلا أنه قريب مناسب لعظمة كتاب الله تعالى

﴿الوجه السادس﴾ فى منافع هذه الكواكب ما ذكره الله تعالى فى قوله (ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا) فنبه على سبيل الاجمال على أن فى وجود كل واحد منها حكمة عالية ومنفعة شريفة . وليس كل ما لا يحيط عقلنا به على التفصيل وجب نفيه فمن أراد أن يقدر حكمة الله تعالى فى ملكه وملكوته بمكيال خياله ومقياس قياسه فقد ضل ضلالا مبينا . ثم إنه تعالى لما ذكر الاستدلال بأحوال هذه النجوم . قال (قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون) وفيه وجوه الأول : المراد أن هذه النجوم كما يمكن أن يستدل بها على الطرقات فى ظلمات البر والبحر ، فكذلك يمكن أن يستدل بها على معرفة الصانع الحكيم ، وكما قدرته وعلوه . الثانى : أن يكون المراد من العلم ههنا العقل فقوله (قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون) نظير قوله تعالى فى سورة البقرة (إن فى خلق السموات والأرض) إلى قوله (آيات لقوم يعقلون) وفى آل عمران فى قوله (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولى الأبصار) والثالث : أن يكون المراد من قوله

وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ
لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ «٩٨»

(لقوم يعلمون) لقوم يتفكرون ويتأملون ويستدلون بالمحسوس على المعقول وينتقلون من
الشاهد إلى الغائب .

قوله تعالى ﴿ وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ﴾
هذا نوع رابع من دلائل وجود الاله وكال قدرته وعلمه ، وهو الاستدلال بأحوال الانسان
فنقول لاشبهة فى أن النفس الواحدة هى آدم عليه السلام وهى نفس واحدة . وحواء مخلوقة من
ضلع من أضلاعه . فصار كل الناس من نفس واحدة وهى آدم .
فان قيل : فما القول فى عيسى ؟

قلنا : هو أيضاً مخلوق من مريم التى هى مخلوقة من أبويها .

فان قالوا : أليس أن القرآن قد دل على أنه مخلوق من الكلمة أو من الروح المنفوخ فيها فكيف
يصح ذلك ؟

قلنا : كلمة « من » تفيد ابتداء الغاية ولا نزاع أن ابتداء تكون عيسى عليه السلام كان من مريم
وهذا القدر كاف فى صحة هذا اللفظ . قال القاضى : فرق بين قوله (أنشأكم) وبين قوله (خلقكم)
لأن أنشأكم يفيد أنه خلقكم لا ابتداء . ولكن على وجه النمو والنشوء لا من مظهر من الأبوين . كما
يقال : فى النبات إنه تعالى أنشأه بمعنى النمو والزيادة إلى وقت الانتهاء . وأما قوله (فمستقر ومستودع)
ففيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو (فمستقر) بكسر القاف والباقون بفتحها قال أبو على
الفارسى . قال سيبويه ، يقال : قر فى مكانه واستقر فن كسر القاف كان المستقر بمعنى القار وإذا كان
كذلك وجب أن يكون خبره المضمرة « منكم » أى منكم مستقر . ومن فتح القاف فليس على أنه مفعول
به لأن استقر لا يتعدى فلا يكون له مفعول به فىكون اسم مكان فالمستقر بمنزلة المقر . وإذا كان
كذلك لم يجوز أن يكون خبره المضمرة « منكم » بل يكون خبره « لكم » فىكون التقدير لكم مقر وأما المستودع
فان استودع فعل يتعدى إلى مفعولين تقول استودعت زيدا ألفاً وأودعت مثله ، فالمستودع يجوز
أن يكون اسماً للانسان الذى استودع ذلك المكان ويجوز أن يكون المسكان نفسه .

إذا عرفت هذا فنقول : من قرأ مستقراً بفتح القاف جعل المستودع مكاناً ليكون مثل المعطوف عليه والتقدير فلکم مكان استقرار ومكان استيداع ومن قرأ (فمستقر) بالكسر . فالمعنى : منكم مستقر ومنكم مستودع ، والتقدير : منكم من استقر ومنكم من استودع . والله أعلم .

﴿المبحث الثانى﴾ الفرق بين المستقر والمستودع أن المستقر أقرب إلى الثبات من المستودع فالشئ الذى حصل فى موضع ولا يكون على شرف الزوال يسمى مستقراً فيه . وأما إذا حصل فيه وكان على شرف الزوال يسمى مستودعاً لأن المستودع فى معرض أن يسترده فى كل حين وأوان . إذا عرفت هذا فنقول : كثير اختلاف المفسرين فى تفسير هذين اللفظين على أقوال : فالأول : وهو المنقول عن ابن عباس فى أكثر الروايات أن المستقر هو الأرحام والمستودع الأصلاب قال كريب : كتب جرير إلى ابن عباس يسأله عن هذه الآية فأجاب المستودع الصلب والمستقر الرحم ثم قرأ (ونقر فى الأرحام ما نشاء) ومما يدل أيضاً على قوة هذا القول أن النطفة الواحدة لا تبقى فى صلب الأب زماناً طويلاً والجنين يبقى فى رحم الأم زماناً طويلاً . ولما كان المكث فى الرحم أكثر مما فى صلب الأب كان حمل الاستقرار على المكث فى الرحم أولى .

﴿والقول الثانى﴾ أن المستقر صلب الأب والمستودع رحم الأم . لأن النطفة حصلت فى صلب الأب لا من قبل الغير وهى حصلت فى رحم الأم بفعل الغير ، فحصول تلك النطفة فى الرحم من قبل الرجل مشبه بالوديعه لأن قوله (فمستقر ومستودع) يقتضى كون المستقر متقدماً على المستودع وحصول النطفة فى صلب الأب مقدم على حصولها فى رحم الأم . فوجب أن يكون المستقر ما فى أصلاب الآباء ، والمستودع ما فى أرحام الأمهات .

﴿والقول الثالث﴾ وهو قول الحسن المستقر حاله بعد الموت لأنه إن كان سعيداً فقد استقرت تلك السعادة ، وإن كان شقيماً فقد استقرت تلك الشقاوة ولا تبديل فى أحوال الإنسان بعد الموت وأما قبل الموت فالأحوال متبدلة . فالكافر قد ينقلب مؤمناً والزندى قد ينقلب صديقاً ، فهذه الأحوال لكونها على شرف الزوال والغناء لا يبعد تشبيهها بالوديعه التى تكون مشرفة على الزوال والذهاب . ﴿والقول الرابع﴾ وهو قول الأصم . إن المستقر من خلق من النفس الأولى ودخل الدنيا واستقر فيها ، والمستودع الذى لم يخلق بعد وسيخلق .

﴿والقول الخامس﴾ للأصم أيضاً المستقر من استقر فى قرار الدنيا والمستودع من فى القبور حتى يبعث . وعن قتادة على العكس منه فقال مستقر فى القبر ومستودع فى الدنيا .

﴿والقول السادس﴾ قول أبى مسلم الأصمبأنى أن التقدير هو الذى أنشأكم من نفس واحدة

فإنكم مستقر ذكر ومنكم مستودع أثني إلا أنه تعالى عبر عن الذكر بالمستقر لأن النطفة إنما تولد في صلبه وإنما تستقر هناك وعبر عن الأثني بالمستودع لأن رحما شبيهة بالمستودع لتلك النطفة . والله أعلم .

﴿المبحث الثالث﴾ مقصود الكلام أن الناس إنما تولدوا من شخص واحد وهو آدم عليه السلام ، ثم اختلفوا في المستقر والمستودع بحسب الوجوه المذكورة فنقول . الأشخاص الانسانية متساوية في الجسمية ومختلفة في الصفات التي باعتبارها حصل التفاوت في المستقر والمستودع والاختلاف في تلك الصفات لا بد له من سبب ومؤثر وليس السبب هو الجسمية ولوازمها وإلا لامتنع حصول التفاوت في الصفات ، فوجب أن يكون السبب هو الفاعل المختار الحكيم ونظير هذه الآية في الدلالة قوله تعالى (واختلاف ألسنتكم وألوانكم)

ثم قال تعالى ﴿قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾ والمراد من هذا التفصيل أنه بين هذه الدلائل على وجه الفصل للبعض عن البعض . ألا ترى أنه تعالى تمسك أولا بتكوين النبات والشجر من الحب والنوى ، ثم ذكر بعده التمسك بالدلائل الفلكية من ثلاثة وجوه ، ثم ذكر بعده التمسك بأحوال تكوين الانسان فقدميز تعالى بعض هذه الدلائل عن بعض ، وفصل بعضها عن بعض لقوم يفقهون ، وفيه اجاث : الأول : قوله (لقوم يفقهون) ظاهره مشعر بأنه تعالى قد يفعل الفعل لغرض وحكمة .

وجواب أهل السنة : أن اللام لام العاقبة . أو يكون ذلك محمولا على التشبيه بحال من يفعل الفعل لغرض . والثاني : أن هذه الآية تدل على أنه تعالى أراد من جميع الخلق الفقه . والفهم والايان . وما أراد بأحد منهم الكفر . وهذا قول المعتزلة .

وجواب أهل السنة : أن المراد منه كأنه تعالى يقول : إنما فصلت هذا البيان لمن عرف وفقه وفهم ، وهم المؤمنون لا غير . والثالث : أنه تعالى ختم الآية السابقة ، وهي الآية التي استدل فيها بأحوال النجوم بقوله (يعلمون) وختم آخر هذه الآية بقوله (يفقهون) والفرق أن إنشاء الانس من واحدة . وتصريفهم بين أحوال مختلفة أطف وأدق صنعة وتدييرا ، فكان ذكر الفقه ههنا لأجل أن الفقه يفيد مزيد فطنة وقوة ذكاء وفهم . والله أعلم .

وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه
خضرا نخرج منه حبا مترا كبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات
من أعناب والزيتون والرمان مشتمها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر
وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون «٩٩»

قوله تعالى ﴿وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا مترا كبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتمها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾
اعلم أن هذا النوع الخامس من الدلائل الدالة على كمال قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته ورحمته ووجوه إحسانه إلى خلقه .

واعلم أن هذه الدلائل كما أنها دلائل فهي أيضاً نعم بالغة ، وإحسانات كاملة . والكلام إذا كان دليلاً من بعض الوجوه ، وكان إنعاماً وإحساناً من سائر الوجوه . كان تأثيره في القلب عظيماً ، وعند هذا يظهر أن المشتغل بدعوة الخالق إلى طريق الحق لا ينبغي أن يعدل عن هذه الطريقة . وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ ظاهر قوله تعالى (وهو الذي أنزل من السماء ماء) يقتضى نزول المطر من السماء ، وعند هذا اختلف الناس ، فقال أبو علي الجبائي في تفسيره : أنه تعالى ينزل الماء من السماء إلى السحاب . ومن السحاب إلى الأرض . قال لأن ظاهر النص يقتضى نزول المطر من السماء ، والعدول عن الظاهر إلى التأويل ، إنما يحتاج إليه عند قيام الدليل على أن إجراء اللفظ على ظاهره غير ممكن ، وفي هذا الموضع لم يقدم دليل على امتناع نزول المطر من السماء . فوجب إجراء اللفظ على ظاهره .

وأما قول من يقول : إن البخارات الكثيرة تجتمع في باطن الأرض . ثم تصعد وترتفع إلى الهواء ، فينعد الغيم منها ويتقاطر ، وذلك هو المطر . فقد احتج الجبائي على فساد من وجوه : الأول : أن البرد قد يوجد في وقت الحر . بل في صميم الصيف . ونجد المطر في أبرد وقت ينزل غير جامد ، وذلك يبطل قولهم .

ولقائن أن يقول : إن القوم يجيبون عنه فيقولون : لاشك أن البخار أجزاء مائة وطبيعتها البرد . ففي وقت الصيف يستولى الحر على ظاهر السحاب ، فيهرب البرد إلى باطنه ، فيقوى البرد هناك بسبب الاجتماع ، فيحدث البرد ، وأما في وقت برد الهواء يستولى البرد على ظاهر السحاب ، فلا يقوى البرد في باطنه ، فلا جرم لا ينعقد جمدا بل ينزل ماء ، هذا ما قالوه . ويمكن أن يجاب عنه بأن الطبقة العالية من الهواء باردة جدا عندكم . فإذا كان اليوم يوما باردا شديدا البرد في صميم الشتاء . فتلك الطبقة باردة جدا . والهواء المحيط بالأرض أيضاً بارد جدا . فوجب أن يشتد البرد ، وأن لا يحدث المطر في الشتاء البتة . وحيث شاهدنا أنه قد يحدث فسد قولكم . والله أعلم .

﴿الحجة الثانية﴾ مما ذكره الجبائي أنه قال : إن البخارات إذا ارتفعت وتصادت تفرقت وإذا تفرقت لم يتولد منها قطرات الماء ، بل البخار إنما يجتمع إذا اتصل بسقف متصل أملس كسقف الحمامات المزججة . أما إذا لم يكن كذلك لم يسلم منه ماء كثير ، فإذا تصاعدت البخارات في الهواء ، وليس فوقها سطح أملس متصل به تلك البخارات . وجب أن لا يحصل منها شيء من الماء . ولقائن أن يقول : القوم يجيبون عنه : بأن هذه البخارات إذا تصاعدت وتفرقت ، فإذا وصلت عند صعودها وتفرقها إلى الطبقة الباردة من الهواء بردت ، والبرد يوجب الثقل والنزول ، فبسبب قوة ذلك البرد عادت من الصعود إلى النزول . والعالم كرى الشكل ، فلما رجعت من الصعود إلى النزول ، فقد رجعت من فضاء المحيط إلى ضيق المركز . فتلك الذرات بهذا السبب تلاصقت وتواصلت ، فحصل من اتصال بعض تلك الذرات بعض قطرات الأمطار .

﴿الحجة الثالثة﴾ ما ذكره الجبائي قال : لو كان تولد المطر من صعود البخارات ، فالبخارات دائماً الارتفاع من البحار ، فوجب أن يدوم هناك نزول المطر . وحيث لم يكن الأمر كذلك ، علمنا فساد قولهم . قال : فثبت بهذه الوجود . أنه ليس تولد المطر من بخار الأرض ، ثم قال : والقوم إنما احتاحوا إلى هذا القول ، لأنهم اعتقدوا أن الأجسام قديمة ، وإذا كانت قديمة امتنع دخول الزيادة والنقصان فيها ، وحينئذ لا معنى لحدوث الحوادث إلا اتصاف تلك الذرات بصفة بعد أن كانت موصوفة بصفات أخرى ، فلهذا السبب احتالوا في تكوين كل شيء عن مادة معينة ، وأما المسلمون . فلما اعتقدوا أن الأجسام محدثة ، وأن خالق العالم فاعل مختار قادر على خلق الأجسام كيف شاء وأراد ، فعند هذا لا حاجة إلى استخراج هذه التكاليف ، فثبت أن ظاهر القرآن يدل في هذه الآية على أن الماء إنما ينزل من السماء ، ولا دليل على امتناع هذا الظاهر ، فوجب القول بحمله على ظاهره ، وما يؤكد ما قلناه : أن جميع الآيات ناطقة بنزول المطر من السماء . قال تعالى

(وأنزلنا من السماء ماء طهورا) وقال (وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به) وقال (وينزل من السماء من جبال فيها من برد) فثبت أن الحق ، أنه تعالى ينزل المطر من السماء بمعنى أنه يخلق هذه الاجسام في السماء . ثم ينزلها إلى السحاب . ثم من السحاب إلى الأرض .

﴿والقول الثاني﴾ المراد إنزال المطر من جانب السماء ماء

﴿والقول الثالث﴾ أنزل من السحاب ماء وسمى الله تعالى السحاب سماء ، لأن العرب تسمى

كل ما فوقك سماء كسماء البيت ، فهذا ما قيل في هذا الباب .

﴿المسألة الثانية﴾ نقل الواحدى فى البسيط عن ابن عباس : يريد بالماء ههنا المطر ولا ينزل نقطة

من المطر إلا ومعه ملك ، والفلاسفة يحملون ذلك الملك على الطبيعة الحالة فى تلك الجسمية الموجبة لذلك النزول . فأما أن يكون معه ملك من ملائكة السموات ، فالقول به مشكل والله أعلم .

﴿المسألة الثالثة﴾ قوله (فأخرجنا به نبات كل شىء) فيه أبحاث :

﴿البحث الأول﴾ ظاهر قوله (فأخرجنا به نبات كل شىء) يدل على أنه تعالى إنما أخرج

النبات بواسطة الماء ، وذلك يوجب القول بالطبع والمتكلمون ينكرونه ، وقد بالغنا فى تحقيق هذه المسألة فى سورة البقرة فى تفسير قوله تعالى (وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) فلا فائدة فى الإعادة .

﴿البحث الثانى﴾ قال الفراء : قوله (فأخرجنا به نبات كل شىء) ظاهره يقتضى أن يكون لكل

شىء نبات . وليس الأمر كذلك ، فكان المراد فأخرجنا به نبات كل شىء له نبات ، فإذا كان كذلك ، فالذى لا نبات له لا يكون داخلا فيه .

﴿البحث الثالث﴾ قوله (فأخرجنا به) بعد قوله (أنزل) يسمى التفتاتا . ويعد ذلك

من الفصاحة .

واعلم أن أصحاب العربية ادعوا أن ذلك يعد من الفصاحة . وما بينوا أنه من أى الوجود يعد

من هذا الباب ؟ وأما نحن فقد أطنبنا فيه فى تفسير قوله تعالى (حتى إذا كنتم فى الغلج وجرى بهم ريح طيبة) فلا فائدة فى الإعادة .

﴿والبحث الرابع﴾ قوله (فأخرجنا) صيغة الجمع . والله واحد فرد لا شريك له . إلا أن الملك

العظيم إذا كنى عن نفسه ، فأنما يكنى بصيغة الجمع . فكذلك ههنا . ونظيره قوله (إنا أنزلناه . إنا أرسلنا نوحا . إنا نحن نزلنا الذكر)

أما قوله ﴿فأخرجنا منه خضرا﴾ فقال الزجاج : معنى خضر . كمنى أخضر . يقال أخضر

فهو أخضر وخضر، مثل اعور فهو أعور وعور. وقال الليث: الخضر في كتاب الله هو الزرع وفي الكلام كل نبات من الخضر، وأقول انه تعالى حصر النبت في الآية المتقدمة في قسمين: حيث قال: (ان الله فائق الحب والنوى) فالذى ينبت من الحب هو الزرع، والذي ينبت من النوى هو الشجر فاعتبر هذه القسمة أيضا في هذه الآية فابتدأ بذكر الزرع، وهو المراد بقوله (فأخر جنا منه خضرا) وهو الزرع، كما روينا عن الليث. وقال ابن عباس: يريد القمح والشعير والسلت والذرة والأرز. والمراد من هذا الخضر العود الأخضر الذى يخرج أولا ويكون السنبل في أعلاه وقوله (نخرج منه حبا مترا كبا) يعنى يخرج من ذلك الخضر حبا مترا كبا بعضه على بعض في سنبله واحدة، وذلك لأن الأصل هو ذلك العود الأخضر وتكون السنبله مركبة عليه من فوقه وتكون الحبات مترا كبة بعضها فوق بعض، ويحصل فوق السنبله أجسام دقيقة حمادة كأنها الابر، والمقصود من تخليقها أن تمنع الطيور من التقاط تلك الحبات المترا كبة.

ولما ذكر ما ينبت من الحب أتبعه بذكر ما ينبت من النوى، وهو القسم الثانى فقال (ومن النخل من طالعها قنوان دانية) وههنا مباحث:

﴿البحث الأول﴾ أنه تعالى قدم ذكر الزرع على ذكر النخل، وهذا يدل على أن الزرع أفضل من النخل. وهذا البحث قد أفرد الجاحظ فيه تصنيفا مطولا

﴿البحث الثانى﴾ روى الواحى عن أبى عبيدة أنه قال: أطلعت النخل إذا أخرجت طلعها وطلعها كيزانها قبل أن ينشق عن الاغريض، والاغريض يسمى طلعا أيضا. قال والطلع أول ما يرى من عذق النخلة، الواحدة طلعة. وأما (قنوان) فقال الزجاج. القنوان جمع قنو. مثل صنوان وصنو. وإذا ثنيت القنوقلت قنوان بكسر النون، فجاء هذا الجمع على لفظ الاثنين والاعراب في النون للجمع

إذا عرفت تفسير اللفظ فنقول: قوله (قنوان دانية) قال ابن عباس: يريد العراجين التى قد تدلت من الطلع دانية بمن يحتنيتها. وروى عنه أيضا انه قال: قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض قال الزجاج: ولم يقل ومنها قنوان بعيدة لأن ذكر أحد القسمين يدل على الثانى كما قال (سراويل تقيمكم الحر) ولم يقل سراويل تقيمكم البرد، لأن ذكر أحد الضدين يدل على الثانى، فكذا ههنا وقيل أيضا: ذكر الدانية في القرية، وترك البعيدة لأن النعمة في القرية أكمل وأكثر.

﴿والبحث الثالث﴾ قال صاحب الكشاف (قنوان) رفع بالابتداء (ومن النخل) خبره (ومن) طلعتها) بدل منه كأنه قيل: وحاصلة من طلع النخل قنوان، ويجوز أن يكون الخبر محذوفاً لدلالة

أخرجنا عليه تقديره ، ومخرجة من طلع النخل قنوان . ومن قرأ يخرج منه (حب متراكب) كان (قنوان) عنده معطوفا على قوله (حب) وقرى (قنوان) بضم القاف وبفتحةا على أنه اسم جمع كركب لأن فعلان ليس من باب التفسير .

ثم قال تعالى ﴿وجنات من أعناب والزيتون والرمان﴾ وفيه أبحاث .

﴿البحث الأول﴾ قرأ عاصم (جنات) بضم التاء . وهي قراءة على رضى الله عنه : والباقون (جنات) بكسر التاء . أما القراءة الأولى فلها وجهان : الأول : أن يراد . وثم جنات من أعناب أى مع النخل والثانى : أن يعطف على (قنوان) على معنى وحاصلة أو ومخرجة من النخل قنوان وجنات من أعناب وأما القراءة بالنصب فوجهها العطف على قوله (نبات كل شيء) والتقدير : وأخرجنا به جنات من أعناب ، وكذلك قوله (والزيتون والرمان) قال صاحب الكشاف : والاحسن أن يتصبا على الاختصاص كقوله تعالى (والمقيمى الصلاة) لفضل هذين الصنفين .

﴿البحث الثانى﴾ قال الفراء : قوله (والزيتون والرمان) يريد شجر الزيتون . وشجر الرمان كما قال (واسأل القرية) يريد أهلها .

﴿البحث الثالث﴾ اعلم انه تعالى ذكر ههنا أربعة أنواع من الأشجار . النخل والعنب والزيتون والرمان ، وإنما قدم الزرع على الشجر لأن الزرع غذاء ، وثمار الأشجار فواكه . والغذاء مقدم على الفاكهة ، وإنما قدم النخل على سائر الفواكه لأن التمر يجرى مجرى الغذاء بالنسبة إلى العرب ولأن الحكاء بينوا أن بينه وبين الحيوان مشابهة فى خواص كثيرة بحيث لا توجد تلك المشابهة فى سائر أنواع النبات . ولهذا المعنى قال عليه الصلاة والسلام «أكرموا عتقكم النخلة . فانها خلقت من بقية طينة آدم» وإنما ذكر العنب عقيب النخل لأن العنب أشرف أنواع الفواكه . وذلك لأنه من أول ما يظهر يصير منتفعا به إلى آخر الحال فأول ما يظهر على الشجر يظهر خيوط خضراء دقيقة حامصة الطعم لذيدة المظعم . وقد يمكن اتخاذ الطباخ منه . ثم بعده يظهر الحصرم . وهو طعام شريف للاصحاء والمرضى ، وقد يتخذ الحصرم أشربة لطيفة المذاق نافعة لأصحاب الصفراء . وقد يتخذ الطباخ منه . فكأنه أذ الطباخ الحامضة . ثم إذا تم العنب فهو أذ الفواكه وأشباها . ويمكن ادخار العنب المعلق سنة أو أقل أو أكثر ، وهو فى الحقيقة أذ الفواكه المدخرة ثم يبقى منه أربعة أنواع من المتناولات ، وهى الزبيب والدبس والخمر والخل ، ومنافع هذه الأربعة لا يمكن ذكرها إلا فى المجلدات . والخمر . وإن كان الشرع قد حرمها . ولكنه تعالى قال فى صفتها (ومنافع للناس) ثم قال (وإنهما أكبر من نفعهما) فأحسن ما فى العنب عجمه . والاطباء يتخذون منه جوارشيات عظيمة النفع للمعدة الضعيفة الرطبة . فثبت أن العنب كأنه سلطان الفواكه . وأما الزيتون

فهو أيضا كثير النفع لأنه يمكن تناوله كما هو . وينفصل أيضا عنه دهن كثير عظيم النفع في الأكل وفي سائر وجوه الاستعمال . وأما الرمان فحاله عجيب جدا ، وذلك لأنه جسم مركب من أربعة أقسام : قشره وشحمه وعجمه وماؤه

أما الأقسام الثلاثة الأولى فهي : القشر والشحم والعجم . فكلها باردة يابسة أرضية كثيفة قابضة عفصة قوية في هذه الصفات ، وأما ماء الرمان . فبالضد من هذه الصفات . فإنه لذ الأشربة والطفها وأقربها إلى الاعتدال وأشدّها مناسبة للطباع المعتدلة ، وفيه تقوية للمزاج الضعيف ، وهو غذاء من وجه ودواء من وجه . فإذا تأملت في الرمان وجدت الأقسام الثلاثة موصوفة بالكثافة التامة الأرضية . ووجدت القسم الرابع وهو ماء الرمان موصوفا باللطافة والاعتدال فكأنه سبحانه جمع فيه بين المتضادين المتغايرين ، فكانت دلالة القدرة والرحمة فيه أكمل وأتم .

واعلم أن أنواع النبات أكثر من أن تفي بشرحها مجلدات . فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذه الأقسام الأربعة التي هي أشرف أنواع النبات ، واكتفي بذكرها تنبيها على البواقى ، ولما ذكرنا قال تعالى (مشتبها وغير متشابه) وفيه مباحث : الأول : في تفسير (مشتبها) وجوه : الأول : أن هذه الفواكه قد تكون متشابهة في اللون والشكل ، مع أنها تكون مختلفة في الطعم واللذة ، وقد تكون مختلفة في اللون والشكل ، مع أنها تكون متشابهة في الطعم واللذة ، فإن الأعناب والرمان قد تكون متشابهة في الصورة واللون والشكل . ثم إنها تكون مختلفة في الحلاوة والحموضة وبالعكس . الثاني : أن أكثر الفواكه يكون ما فيها من القشر والعجم متشابهة في الطعم والخاصية . وأما ما فيها من اللحم والرطوبة فإنه يكون مختلفا في الطعم ، والثالث : قال قتادة : أوراق الأشجار تكون قريبة من التشابه . أما ثمارها فتكون مختلفة ، ومنهم من يقول : الأشجار متشابهة والثمار مختلفة ، والرابع : أقول إنك قد تأخذ العنقود من العنب فتترى جميع حباته مدركة نضيجة حلوة طيبة إلا حبات مخصوصة منها بقيت على أول حالها من الخضرة والحموضة والعفوضة . وعلى هذا التقدير : فبعض حبات ذلك العنقود متشابهة وبعضها غير متشابهة .

وبالبحث الثاني . يقال : اشتبه الشيان وتشابها كقولك استويا وتساويا . والافتعال والتفاعل يشتركان كثيرا ، وقرى (متشابهة وغير متشابهة)

(وبالبحث الثالث) إنما قال مشتبها ولم يقل مشتبهين إما اكتفاء بوصف أحدهما ، أو على تقدير : والزيتون مشتبها وغير متشابهة والرمان كذلك كقوله :

رمانى بأمر كنت منه ووالدى برىا ومن أجل الطوى رمانى

ثم قال تعالى ﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه﴾ وفيه مباحث :

﴿البحث الأول﴾ قرأ حمزة والسكسائي (ثمره) بضم التاء والميم . وقرأ أبو عمرو (ثمره) بضم التاء وسكون الميم والباقون بفتح التاء والميم . أما قراءة حمزة والسكسائي : فلها وجهان :
﴿الوجه الأول﴾ وهو الأبين أن يكون جمع ثمرة على ثمر كما قالوا : خشبة وخشب . قال تعالى (كأنهم خشب مسندة) وكذلك أكمة وأكم . ثم يخففون فيقولون أكم . قال الشاعر :

ترى الأكم فيها سجداً للجوافر

﴿والوجه الثاني﴾ أن يكون جمع ثمرة على ثمار . ثم جمع ثماراً على ثمر فيكون ثمر جمع الجمع . وأما قراءة أبي عمرو فوجهها أن تخفيف ثمر ثمر كقوله لم يرسل ورسل . وأما قراءة الباقيين فوجهها : أن الثمر جمع ثمرة ، مثل بقرة وبقرة ، وشجرة وشجر ، وخرزة وخرز .

﴿والبحث الثاني﴾ قال الواحدي : الينع النضج . قال أبو عبيدة : يقال ينع ينع . بالفتح في الماضي والكسر في المستقبل . وقال الليث : ينعت الثمرة بالكسر . وأينعت فهي تينع وتونع إنباعاً وينعاً بفتح الياء ، وينعاً بضم الياء ، والنعت يانع ومونع . قال صاحب الكشاف : وقرئ (وينعه) بضم الياء ، وقرأ ابن محيصن (ويانعه)

﴿والبحث الثالث﴾ قوله (انظروا إلى ثمره إذا أثمر) أمر بالنظر في حال الثمر في أول حدوثها . وقوله (وينعه) أمر بالنظر في حالها عند تمامها وكالها . وهذا هو موضع الاستدلال والحجة التي هي تمام المقصود من هذه الآية . ذلك لأن هذه الآثار والأزهار تتولد في أول حدوثها على صفات مخصوصة ، وعند تمامها وكالها لا تبقى على حالاتها الأولى . بل تنتقل إلى أحوال مضادة للأحوال السابقة ، مثل أنها كانت موصوفة بلون الخضرة فتصير ملونة بلون السواد أو بلون الخرة . وكانت موصوفة بالحموضة فتصير موصوفة بالحلاوة . وربما كانت في أول الأمر باردة بحسب الطبيعة ، فتصير في آخر الأمر حارة بحسب الطبيعة . فخصول هذه التبدلات والتغيرات لا بد له من سبب ، وذلك السبب ليس هو تأثير الطبائع والفصول والنجم والأفلاك . لأن نسبة هذه الأحوال بأسرها إلى جميع هذه الأجسام المتباينة متساوية متشابهة ، والنسب المتشابهة لا يمكن أن تكون أسباباً لحدوث الحوادث المختلفة ، ولما بطل إسناد حدوث هذه الحوادث إلى الطبائع والنجم والأفلاك وجب إسنادها إلى القادر المختار الحكيم الرحيم المدبر لهذا العالم على وفق الرحمة والمصلحة والحكمة . ولما نبه الله سبحانه على ما في هذا الوجه اللطيف من الدلالة قال (إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) قال القاضي : المراد لمن يطلب الإيمان بالله تعالى ، لأنه آية لمن آمن ولمن لم يؤمن ، ويحتمل أن يكون

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَ
وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ «١٠٠»

وجه تخصيص المؤمنين بالذكر أنهم الذين انتفعوا به دون غيرهم كما تقدم تقريره في قوله
(هدى للمتقين)

ولقائل أن يقول: بل المراد منه أن دلالة هذا الدليل على إثبات الاله القادر المختار ظاهرة
قوية جلية، فكان قائلاً قال: لم وقع الاختلاف بين الخلق في هذه المسألة مع وجود مثل هذه
الدلالة الجلية الظاهرة القوية؟ فأجيب عنه بأن قوة الدليل لا تنفيد ولا تنفع إلا اذا قدر الله للعبد
حصول الايمان، فكانه قيل: هذه الدلالة على قوتها وظهورها دلالة لمن سبق قضاء الله في حقه
بالايمان. فأما من سبق قضاء الله له بالكفر لم ينتفع بهذه الدلالة البتة أصلاً، فكان المقصود من
هذا التخصيص التنبيه على ما ذكرناه. والله أعلم،

قوله تعالى ﴿وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه
وتعالى عما يصفون﴾
في الآية مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر هذه البراهين الخمسة من دلائل العالم الأسفل والعالم
الأعلى على ثبوت الالهية، وكمال القدرة والرحمة. ذكر بعد ذلك أن من الناس من أثبت لله شركاء،
واعلم أن هذه المسألة قد تقدم ذكرها إلا أن المذكور ههنا غير ما تقدم ذكره وذلك لأن الذين أثبتوا
الشريك لله فرق وطوائف.

﴿الطائفة الأولى﴾ عبدة الأصنام فهم يقولون الأصنام شركاء لله في العبودية، ولكنهم معترفون
بأن هذه الأصنام لا قدرة لها على الخلق والايجاد والتكوين.

﴿والطائفة الثانية﴾ من المشركين الذين يقولون، مدبر هذا العالم هو الكواكب، وهؤلاء
فريقان منهم من يقول: إنها واجبة الوجود لذاتها، ومنهم من يقول: أنها ممكنة الوجود لذواتها
محدثة، وخالقها هو الله تعالى، إلا أنه سبحانه فوض تدبير هذا العالم الأسفل اليها وهؤلاء هم الذين
حكى الله عنهم أن الخليل صلى الله عليه وسلم ناظرهم بقوله (لأحب الآفلين) وشرح هذا
الدليل قد مضى.

﴿والطائفة الثالثة﴾ من المشركين الذين قالوا الجملة هذا العالم بمافيها من السموات والأرضين إلهان:

أحدهما فاعل الخير . والثاني فاعل الشر ، والمقصود من هذه الآية حكاية مذهب هؤلاء فهذا تقرير نظم الآية والتنبيه على ما فيها من الفوائد . فروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال قوله تعالى (وجعلوا لله شركاء الجن) نزلت في الزنادقة الذين قالوا إن الله وإليس أخوان فالله تعالى خالق الناس والدواب والأنعام والخيرات ، وإليس خالق السباع والحيات والعقارب والشرور . واعلم أن هذا القول الذى ذكره ابن عباس أحسن الوجوه المذكورة فى هذه الآية وذلك لأن بهذا الوجه يحصل لهذه الآية مزيد فائدة مغايرة لما سبق ذكره فى الآيات المتقدمة . قال ابن عباس : والذى يقوى هذا الوجه قوله تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) وإنما وصف بكونه من الجن لأن لفظ الجن مشتق من الاستتار ، والملائكة والروحانيون لا يرون بالعيون فصارت كأنهم مستترة من العيون ، فهذا التأويل أطلق لفظ الجن عليها ، وأقول : هذا مذهب المجوس . وإنما قال ابن عباس هذا قول الزنادقة . لأن المجوس يلقبون بالزنادقة . لأن الكتاب الذى زعم زرادشت أنه نزل عليه من عند الله مسمى بالزند والمنسوب إليه يسمى زندي . ثم عرب فقيل زنديق . ثم جمع فقيل زنادقة .

واعلم أن المجوس قالوا : كل ما فى هذا العالم من الخيرات فهو من يزدان وجميع ما فيه من الشرور فهو من أهرمن ، وهو المسمى بإبليس فى شرعنا ، ثم اختلفوا فالأكثرون منهم على أن أهرمن محدث ، ولهم فى كيفية حدوثه أقوال عجيبة . والأقلون منهم قالوا : إنه قديم أزلى ، وعلى القولين فقد اتفقوا على أنه شريك لله فى تدبير هذا العالم بخيرات هذا العالم من الله تعالى وشروره من إبليس فهذا شرح ما قاله ابن عباس رضى الله عنهما .

فان قيل : فعلى هذا التقدير: القوم أثبتوا لله شريكا واحدا وهو إبليس . فكيف حكى الله عنهم أنهم أثبتوا لله شركاء ؟

والجواب : أنهم يقولون عسكر الله هم الملائكة ، وعسكر إبليس هم الشياطين والملائكة فيهم كثرة عظيمة ، وهم أرواح طاهرة مقدسة وهم يلهمون تلك الأرواح البشرية بالخيرات والطاعات . والشياطين أيضاً فيهم كثرة عظيمة وهى تاتى الوسواس الخبيثة إلى الأرواح البشرية . والله مع عسكره من الملائكة يحاربون إبليس مع عسكره من الشياطين . فللهذا السبب حكى الله تعالى عنهم أنهم أثبتوا لله شركاء . من الجن فهذا تفصيل هذا القول .

إذا عرفت هذا فنقول : قوله (وخلقهم) إشارة إلى الدليل القاطع الدال على فساد كون إبليس شريكاً لله تعالى فى ملكه ، وتقريره من وجهين : الأول : أنا نقلنا عن المجوس أن الأكثرين منهم

معترفون بأن ابليس ليس بتقديم بل هو محدث .

إذا ثبت هذا فنقول : أن كل محدث فله خالق وموجد ، وماذا لك إلا الله سبحانه وتعالى فهؤلاء المجوس يلزمهم القطع بأن خالق ابليس هو الله تعالى ، ولما كان أبليس أصلاً لجميع الشرور والآفات والمفاسد والقبائح ، والمجوس سلموا أن خالقه هو الله تعالى ، فحينئذ قد سلموا أن إله العالم هو الخالق لما هو أصل الشرور والقبائح والمفاسد ، وإذا كان كذلك امتنع عليهم أن يقولوا لا بد من إلهين يكون أحدهما فاعلاً للخيرات ، والثاني يكون فاعلاً للشرور لأن بهذا الطريق ثبت أن إله الخير هو بعينه الخالق لهذا الذي هو الشر الأعظم فقوله تعالى (وخلقهم) إشارة إلى أنه تعالى هو الخالق لهؤلاء الشياطين على مذهب المجوس ، وإذا كان خالقاً لهم فقد اعترفوا بكون إله الخير فاعلاً لأعظم الشرور ، وإذا اعترفوا بذلك سقط قولهم : لا بد للخيرات من إله ، وللشرور من إله آخر .

(والوجه الثاني) في استنباط الحجة من قوله (وخلقهم) ما بينا في هذا الكتاب وفي كتاب الاربعين في أصول الدين أن ماسوى الواحد ممكن لذاته وكل ممكن لذاته فهو محدث، ينتج أن ماسوى الواحد الأحداً الحق فهو محدث، فيلزم القطع بأن ابليس وجميع جنوده يكونون موصوفين بالحدوث . وحصول الوجود بعد العدم . وحينئذ يعود الالتزام المذكور على ما قررناه ، فهذا تقرير المقصود الأصلي من هذه الآية وبالله التوفيق .

(المسألة الثانية) قوله تعالى (وجعلوا لله شركاء الجن) معناه : وجعلوا الجن شركاء لله .

فان قيل : فما الفائدة في التقديم ؟

قلنا : قال سيديويه : إنهم يقدمون الأهم الذي هم بشأنه أعنى ، فالفائدة في هذا التقديم استعظام أن يتخذ الله شريك سواء كان ملكاً أو جنياً أو إنسياً أو غير ذلك . فهذا هو السبب في تقديم اسم الله على الشركاء .

إذا عرفت هذا فنقول : قرىء (الجن) بالنصب والرفع والجر ، أما وجه النصب فالمشهور أنه بدل من قوله (شركاء) قال بعض المحققين : هذا ضعيف لأن البدل ما يقوم مقام المبدل ، فلو قيل : وجعلوا لله الجن لم يكن كلاماً مفهوماً بل الأولى جعله عطف بيان . وأما وجه القراءة بالرفع فهو أنه لما قيل (وجعلوا لله شركاء) فهذا الكلام لو وقع الاقتصار عليه لصح أن يراد به الجن والأنس والحجر والوثن فكانه قيل ومن أولئك الشركاء ؟ فقيل : الجن . وأما وجه القراءة بالجر فعلى الإضافة التي هي للتبيين .

﴿المسألة الثالثة﴾ اختلفوا في تفسير هذه الشركاء على ثلاثة أوجه : فالأول : ما ذكرناه من أن المراد منه حكاية قول من ثبت للعالم إلهين أحدهما فاعل الخير والثاني فاعل الشر .

﴿والقول الثاني﴾ أن الكفار كانوا يقولون الملائكة بنات الله وهؤلاء يقولون المراد الجن الملائكة . وإنما حسن إطلاق هذا الاسم عليهم . لأن لفظ الجن مشتق من الاستتار . والملائكة مستترون عن الأعين ، وكان يجب على هذا القائل أن يبين أنه كيف يلزم من قولهم الملائكة بنات الله ؟ قولهم يجعل الملائكة شركاء لله حتى يتم انطباق لفظ الآية على هذا المعنى . ولعله يقال : إن هؤلاء كانوا يقولون الملائكة مع أنها بنات الله فهى مدبرة لأحوال هذا العالم وحينئذ يحصل الشرك .

﴿والقول الثالث﴾ وهو قول الحسن وطائفة من المفسرين أن المراد : أن الجن دعوا الكفار

إلى عبادة الأصنام ، وإلى القول بالشرك ، فقبلوا من الجن هذا القول وأطاعوهم . فصاروا من هذا الوجه قائلين : يكون الجن شركاء لله تعالى . وأقول : الحق هو القول الأول . والقولان الآخران ضعيفان جدا . أما تفسير هذا الشرك بقول العرب الملائكة بنات الله . فهذا باطل من وجوده :

﴿الوجه الأول﴾ أن هذا المذهب قد حكاه الله تعالى بقوله (وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) فالقول باثبات البنات لله ليس إلا قول من يقول الملائكة بنات الله ، فلو فسرنا قوله (وجعلوا لله شركاء الجن) بهذا المعنى يلزم منه التكرار في الموضوع الواحد من غير فائدة ، وأنه لا يجوز .

﴿الوجه الثاني﴾ في إبطال هذا التفسير أن العرب قالوا : الملائكة بنات الله . وإثبات الولد لله غير ، وإثبات الشريك له غير ، والدليل على الفرق بين الأمرين أنه تعالى ميز بينهما في قوله (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) ولو كان أحدهما عين الآخر لكان هذا التفصيل في هذه السورة عبثاً .

﴿الوجه الثالث﴾ أن القائلين بيزدان وأهر من يصرحون بإثبات شريك لاله العالم في تدبير هذا العالم ، فصرف اللفظ عنه وحمله على إثبات البنات صرف للفظ عن حقيقته إلى مجازه من غير ضرورة وأنه لا يجوز .

﴿وأما القول الثاني﴾ وهو قول من يقول المراد من هذه الشركاء : أن الكفار قبلوا قول الجن في عبادة الأصنام . فهذا في غاية البعد لأن الداعي إلى القول بالشرك لا يجوز تسميته بكونه شريكاً لله لا بحسب حقيقة اللفظ ولا بحسب مجازه ، وأيضاً فلو حملنا هذه الآية على هذا المعنى لزم وقوع التكرير من غير فائدة ، لأن الرد على عبدة الأصنام وعلى عبدة الكواكب قد سبق على سبيل الاستقصاء ، فثبت سقوط هذين القولين ، وظهر أن الحق هو القول الذى نصرناه وقويناه .

وأما قوله تعالى ﴿وخلقهم﴾ ففيه بحثان :

﴿البحث الأول﴾ اختلفوا في أن الضمير في قوله (خلقهم) إلى ماذا يعود؟ على قولين :
 ﴿فالتقول الأول﴾ إنه عائد إلى (الجن) والمعنى انهم قالوا الجن شركاء الله ، ثم إن هؤلاء القوم اعترفوا بأن إهرمن محدث ، ثم إن في المجوس من يقول إنه تعالى تفكر في مملكة نفسه واستعظمها فحصل نوع من العجب ، فتولد الشيطان عن ذلك العجب ، ومنهم من يقول شك في قدرة نفسه فتولد من شكه الشيطان ، فهؤلاء معترفون بأن إهرمن محدث ، وأن محدثه هو الله تعالى فقوله تعالى (وخلقهم) إشارة إلى هذا المعنى ، ومتى ثبت أن هذا الشيطان مخلوق لله تعالى امتنع جعله شريكا لله في تدبير العالم . لأن الخالق أقوى وأكمل من المخلوق ، وجعل الضعيف الناقص شريكا للقوى الكامل محال في العقول .

﴿والتقول الثاني﴾ أن الضمير عائد إلى الجاعلين ، وهم الذين أثبتوا الشركه بين الله تعالى وبين الجن ، وهذا القول عندى ضعيف لوجهين : أحدهما : أنا إذا حملناه على ما ذكرناه صار ذلك اللفظ الواحد دليلا قاطعاً تاماً كاملاً في أبطال ذلك المذهب ، وإذا حملناه على هذا الوجه لم يظهر منه فائدة وثانيهما : أن عود الضمير إلى أقرب المذكورات واجب ، وأقرب المذكورات في هذه الآية هو الجن ، فوجب أن يكون الضمير عائداً إليه

﴿البحث الثاني﴾ قال صاحب الكشاف : قرىء (وخلقهم) أى اختلاقهم للافك . يعنى : وجعلو الله خلقهم حيث نسبوا ذبائحهم إلى الله في قولهم (والله أمرنا بها) ثم قال ﴿ وخرقوا له بنين وبنات بغير علم﴾ وفيه مباحث :

﴿البحث الأول﴾ أقول إنه تعالى حكى عن قوم أنهم أثبتوا إبليس شريكا لله تعالى . ثم بعد ذلك حكى عن أقوام آخرين أنهم أثبتوا لله بنين وبنات . أما الذين أثبتوا البنين فهم النصرارى وقوم من اليهود وأما الذين أثبتوا البنات فهم العرب الذين يقولون الملائكة بنات الله وقوله (بغير علم) كالتنبيه على ماهو الدليل القاطع في فساد هذا القول وفيه وجوه .

﴿الحجة الأولى﴾ أن الاله يجب أن يكون واجب الوجود لذاته ، فولده إما أن يكون واجب الوجود لذاته أو لا يكون . فان كان واجب الوجود لذاته كان مستقلاً بنفسه قائماً بذاته لا تعلق له في وجوده بالآخر ، ومن كان كذلك لم يكن والده البتة لأن الولد مشعر بالفرعية والحاجة وأما إن كان ذلك الولد ممكن الوجود لذاته فيمتدذ يكون وجوده بايجاد واجب الوجود لذاته ، ومن كان كذلك فيكون عبداً له لاولداً له . فثبت أن من عرف أن الاله ماهو ، امتنع منه أن يثبت له البنات والبنين .

بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ
كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ «١٠١»

﴿الحجة الثانية﴾ أن الولد يحتاج إليه أن يقوم مقامه بعد فناءه ، وهذا إنما يعقل في حق من يفنى ، أما من تقدس عن ذلك لم يعقل الولد في حقه .

﴿الحجة الثالثة﴾ ان الولد مشعر بكونه متولدا عن جزء من أجزاء الوالد ، وذلك إنما يعقل في حق من يكون مركبا ويمكن انفصال بعض أجزائه عنه ، وذلك في حق الواحد الفرد الواجب لذاته محال ، فحاصل الكلام ان من علم ان الاله ما حقيقته استحال ان يقول له ولد فكان قوله (وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) إشارة إلى هذه الدقيقة

﴿البحث الثانى﴾ قرأ نافع (وخرقوا) مشددة الراء . والباقون (خرقوا) خفيفة الراء . قال الواحدى : الاختيار التخفيف ، لأنها أكثر والتشديد للمبالغة والتكثير .

﴿البحث الثالث﴾ قال الفراء : معنى (خرقوا) افتعلوا وافتروا . قال : وخرقوا واخترقوا وخالقوا واخترقوا ، وافتروا واحد . وقال الليث . يقال : تخرق الكذب وتخالقه ، وحكى صاحب الكشاف : أنه سئل الحسن عن هذه الكلمة فقال : كلمة عربية كانت تفعلها . كان الرجل إذا كذب كذبة في نادى القوم يقول له بعضهم قد خرقها ، والله أعلم . ثم قال : ويجوز أن يكون من خرق الثوب إذا شقه . أى شقوا له بنين وبنات .

ثم إنه تعالى ختم الآية فقال ﴿سبحانه وتعالى عما يصفون﴾ فقوله سبحانه تنزيه لله عن كل مالا يليق به . وأما قوله (وتعالى) فلا شك أنه لا يفيد العلو في المكان ، لأن المقصود ههنا تنزيه الله تعالى عن هذه الأقوال الفاسدة ، والعلو في المكان لا يفيد هذا المعنى . ثبت أن المراد ههنا تعالى عن كل اعتقاد باطل . وقول فاسد .

فان قالوا : فعلى هذا التقدير لا يبقى بين قوله «سبحانه» وبين قوله «وتعالى» فرق قلنا : بل يبقى بينهما فرق ظاهر ، فان المراد بقوله سبحانه أن هذا القائل يسبحه وينزهه عما لا يليق به والمراد بقوله (وتعالى) كونه في ذاته متعاليا متقدسا عن هذه الصفات سواء سبحه مسبح أو لم يسبحه ، فالتسبيح يرجع إلى أقوال المسبحين . والتعالى يرجع إلى صفته الذاتية التي حصلت له لذاته لا لغيره

قوله تعالى ﴿بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخالق كل شيء﴾

وهو بكل شىء عليم﴾

اعلم أنه تعالى لما بين فساد قول طوائف أهل الدنيا من المشركين . شرع في إقامة الدلائل على فساد قول من يثبت له الولد فقال (بديع السموات والأرض)

واعلم أن تفسير قوله (بديع السموات والأرض) قد تقدم في سورة البقرة إلا أنا نشير ههنا إلى ما هو المقصود الأصلي من هذه الآية . فنقول : الإبداع عبارة عن تكوين الشىء من غير سبق مثال ، ولذلك فإن من أتى في فن من الفنون بطريقة لم يسبقه غيره فيها ، يقال : انه أبداع فيه

إذا عرفت هذا فنقول : ان الله تعالى سلم للنصارى أن عيسى حدث من غير أب ولا نطفة بل أنه إنمأحدث ودخل في الوجود . لأن الله تعالى أخرجه إلى الوجود من غير سبق الأب

إذا عرفت هذا فنقول : المقصود من الآية أن يقال إنكم إما أن تريدوا بكونه ولدا لله تعالى انه أحدثه على سبيل الإبداع من غير تقدم نطفة ووالد . وإما أن تريدوا بكونه ولد الله تعالى كما هو المألوف للمعهود من كون الانسان ولدا لأبيه . وإما أن تريدوا بكونه ولدا لله مفهوما ثالثا مغايرا لهذين المفهومين

أما الاحتمال الأول : فباطل . وذلك لأنه تعالى وان كان يحدث الحوادث في مثل هذا العالم الأسفل بناء على أسباب معلومة ووسائط مخصوصة الا أن النصارى يسلمون أن العالم الأسفل يحدث ، وإذا كان الأمر كذلك . لزمهم الاعتراف بأنه تعالى خلق السموات والأرض من غير سابقة مادة ولا مادة ، وإذا كان الأمر كذلك . وجب أن يكون إحداثه للسموات والأرض ابداعا فلو لزم من مجرد كونه مبدعا لاحداث عيسى عليه السلام كونه والد له لزم من كونه مبدعا للسموات والأرض كونه والد لها . ومعلوم أن ذلك باطل بالاتفاق ، فثبت أن مجرد كونه مبدعا لعيسى عليه السلام لا يقتضى كونه والد له ، فهذا هو المراد من قوله (بديع السموات والأرض) وإنما ذكر السموات والأرض فقط ولم يذكر ما فيهما لأن حدوث ما في السموات والأرض ليس على سبيل الإبداع ، أما حدوث ذات السموات والأرض فقد كان على سبيل الإبداع . فكان المقصود من الإلزام حاصل بذكر السموات والأرض . لا بذكر ما في السموات والأرض ، فهذا إبطال الوجه الأول

وأما الاحتمال الثانى : وهو أن يكون مراد القوم من الولادة هو الأمر المعتاد المعروف من الولادة فى الحيوانات ، فهذا أيضا باطل ويدل عليه وجوه

﴿الوجه الأول﴾ أن تلك الولادة لا تصح إلا لمن كانت له صاحبة وشهوة ، وينفصل عنه

جزء ويحتبس ذلك الجزء في باطن تلك الصاحبة . وهذه الاحوال إنما تثبت في حق الجسم الذى يصح عليه الاجتماع والافتراق والحركة والسكون والحد والنهاية والشهوة واللذة ، وكل ذلك على خالق العالم محال . وهذا هو المراد من قوله أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة .

﴿والوجه الثانى﴾ أن تحصيل الولد بهذا الطريق إنما يصح في حق من لا يكون قادراً على الخلق والايجاد والتكوين دفعة واحدة فلما أراد الولد وعجز عن تكوينه دفعة واحدة عدل إلى تحصيله بالطريق المعتاد . أما من كان خالقاً لكل الممكنات قادراً على كل المحدثات ، فاذا أراد إحداث شىء قال له كن فيكون ، ومن كان هذا الذى ذكرنا صفته ونعته ، امتنع منه احداث شخص بطريق الولادة وهذا هو المراد من قوله (وخلق كل شىء)

﴿والوجه الثالث﴾ وهو أن هذا الولد إما أن يكون قديماً أو محدثاً ، لاجاز أن يكون قديماً لأن القديم يجب كونه واجب الوجود لذاته . وما كان واجب الوجود لذاته كان غنياً عن غيره فامتنع كونه ولداً لغيره . فبقى أنه لو كان ولداً لوجب كونه حادثاً ، فنقول إنه تعالى عالم بجميع المعلومات فاما أن يعلم أن له فى تحصيل الولد كلاً ونفعاً أو يعلم أنه ليس الأمر كذلك . فان كان الأول فلا وقت يفرض أن الله تعالى خلق هذا الولد فيه إلا والداعى إلى إيجاد هذا الولد كان حاصلًا قبل ذلك ، ومتى كان الداعى إلى ايجاده حاصلًا قبله وجب حصول الولد قبل ذلك . وهذا يوجب كون ذلك الولد أزلياً وهو محال ، وان كان الثانى فقد ثبت أنه تعالى عالم بأنه ليس له فى تحصيل الولد كمال حال ولا ازدياد مرتبة فى الالهية ، واذا كان الأمر كذلك وجب أن لا يحدثه البتة فى وقت من الأوقات ، وهذا هو المراد من قوله (وهو بكل شىء عليم) وفيه وجه آخر وهو أن يقال الولد المعتاد إنما يحدث بقضاء الشهوة ، وقضاء الشهوة يوجب اللذة ، واللذة مطلوبة لذاتها ، فلو صحت اللذة على الله تعالى مع انها مطلوبة لذاتها ، وجب أن يقال إنه لا وقت إلا وعلم الله بتحصيل تلك اللذة يدعوه إلى تحصيلها قبل ذلك الوقت لأنه تعالى لما كان عالماً بكل المعلومات وجب أن يكون هذا المعنى معلوماً ، واذا كان الأمر كذلك . وجب أن يحصل تلك اللذة فى الأزل . فلزم كون الولد أزلياً ، وقد بينا أنه محال فثبت أن كونه تعالى عالماً بكل المعلومات مع كونه تعالى أزلياً يمنع من صحة الولد عليه . وهذا هو المراد من قوله (وهو بكل شىء عليم) فثبت بما ذكرنا أنه لا يمكن اثبات الولد لله تعالى بناء على هذين الاحتمالين المعلومين . فاما إثبات الولد لله تعالى بناء على احتمال ثالث فذلك باطل ، لأنه غير متصور ولا مفهوم عند العقل ، فكان القول باثبات الولادة بناء على ذلك الاحتمال الذى هو غير متصور خوفاً فى محض الجهالة وأنه باطل ، فهذا هو المقصود من هذه الآية

ذَلِكُمْ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

وَكَيْلٌ «١٠٢»

ولو أن الأولين والآخريين اجتمعوا على أن يذكروا في هذه المسألة كلاما يساويه في القوة والكمال لعجزوا عنه . فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

قوله تعالى ﴿ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل﴾

اعلم أنه تعالى لما أقام الحججة على وجود الإله القادر المختار الحكيم الرحيم وبين فساد قول من ذهب إلى الإشراك بالله ، وفصل مذاهبهم على أحسن الوجوه وبين فساد كل واحد منها بالدلائل اللائقة به . ثم حكى مذهب من أثبت لله البنين والبنات ، وبين بالدلائل القاطعة فساد القول بها فعند هذا ثبت أن إله العالم فرد واحد صمد منزه عن الشريك والنظير والضد والتسد ، ومنزه عن الأولاد والبنين والبنات ، فعند هذا صرح بالنتيجة فقال : ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل ما سواه فاعبدوه ولا تعبدوا غيره أحدا فإنه هو المصلح لمهمات جميع العباد ، وهو الذي يسمع دعاءهم ويرى ذلهم وخضوعهم ، ويعلم حاجتهم ، وهو الوكيل لكل أحد على حصول مهماته ، ومن تأمل في هذا النظم والترتيب في تقرير الدعوة إلى التوحيد والتنزيه ، وإظهار فساد الشرك ، علم أنه لا طريق أوضح ولا أصلح منه . وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال صاحب الكشاف «ذلكم» إشارة إلى الموصوف بما تقدم من الصفات وهو مبتدا وما بعده اخبار مترادفة ، وهي (الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء) أي ذلك الجامع لهذه الصفات فاعبدوه ، على معنى أن من حصلت له هذه الصفات كان هو الحقيقي بالعبادة فاعبدوه ، ولا تعبدوا أحدا سواه

﴿المسألة الثانية﴾ اعلم أنه تعالى بين في هذه السورة بالدلائل الكثيرة افتقار الخلق إلى خالق وموجد ، ومحدث ، ومبدع ، ومدبر ، ولم يذكر دليلا منفصلا يدل على نفي الشركاء ، والاضداد والانداد ، ثم انه اتبع الدلائل الدالة على وجود الصانع بأن نقل قول من أثبت لله شريكا ، فهذا القدر يكون أوجب الجزم بالتشريك من الجن ، ثم أبطله ، ثم إنه تعالى بعد ذلك أتى بالتوحيد المحض حيث قال (ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه) وعند هذا يتوجه السؤال وهو ان حاصل ما تقدم اقامة الدليل على وجود الخالق ، وتزييف دليل من أثبت لله شريكا . فهذا

التقدير كيف أوجب الجزم بالتوحيد المحض؟ فنقول: للعلماء في إثبات التوحيد طرق كثيرة، ومن جملتها هذه الطريقة. وتقريرها من وجود: الأول: قال المتقدمون الصانع الواحد كاف وما زاد على الواحد. فالقول فيه متكافئ، فوجب القول بالتوحيد أما قولنا: الصانع الواحد كاف فلان الاله القادر على كل المقدورات العالم بكل المعلومات كاف في كونه إلهًا للعلم، ومدبرًا له. وأما ان الزائد على الواحد، فالقول فيه متكافئ، فلان الزائد على الواحد لم يدل الدليل على ثبوته، فلم يكن إثبات عدد أولى من إثبات عدد آخر، فيلزم إما إثبات آلهة لانهاية لها، وهو محال. أو إثبات عدد معين مع أنه ليس ذلك العدد أولى من سائر الأعداد. وهو أيضا محال. وإذا كان القسمان باطلين لم يبق إلا القول بالتوحيد.

﴿الوجه الثاني﴾ في تقرير هذه الطريقة أن الاله القادر على كل الممكنات العالم بكل المعلومات كاف في تدبير العالم، فلو قدرنا إلهًا ثانيًا لكان ذلك اثاني إما أن يكون فاعلا وموجودا لشيء من حوادث هذا العالم أولا يكون، والأول باطل، لأنه لما كان كل واحد منهما قادر على جميع الممكنات فكل فعل يفعله أحدهما صار كونه فاعلا لذلك الفعل مانعا للآخر عن تحصيل مقوده، وذلك يوجب كون كل واحد منهما سببا لعجز الآخر. وهو محال. وإن كان الثاني لا يفعل فعلا ولا يوجد شيئا كان ناقصا معطلا، وذلك لا يصلح للالهية.

﴿والوجه الثالث﴾ في تقرير هذه الطريقة أن نقول: إن هذا الاله الواحد لا بد. وأن يكون كاملا في صفات الالهية، فلو فرضنا إلهًا ثانيًا لكان ذلك الثاني إما أن يكون مشاركا للأول في جميع صفات الكمال أولا يكون، فان كان مشاركا للأول في جميع صفات الكمال فلا بد وأن يكون متميزا عن الأول بأسر ما، اذ لو لم يحصل الامتياز بأمر من الأمور لم يحصل التعدد والاثنية. وإذا حصل الامتياز بأمر ما فذلك الأمر المميز إما أن يكون من صفات الكمال أولا يكون. فان كان من صفات الكمال مع أنه حصل الامتياز به لم يكن جميع صفات الكمال مشتركا فيه بينهما. وان لم يكن ذلك المميز من صفات الكمال، فالموصوف به يكون موصوفا بصفة ليست من صفات الكمال، وذلك نقصان. فثبت بهذه الوجوه الثلاثة أن الاله الواحد كاف في تدبير العالم والايجاد. وأن الزائد يجب نفيه فهذه الطريقة هي التي ذكرها الله تعالى ههنا في تقرير التوحيد. وأما التمسك بدليل التمانع فقد ذكرناه في سورة البقرة.

﴿المسألة الثالثة﴾ تمسك أصحابنا بقوله (خالق كل شيء) على أنه تعالى هو الخالق لأعمال العباد قالوا: أعمال العباد أشياء، والله تعالى خالق كل شيء بحكم هذه الآية. فوجب كونه تعالى خالقها

واعلم أنا أظننا الكلام في هذا الدليل في كتاب الجبر والقدر ، ونكتفي ههنا من تلك الكلمات بنكت قليلة . قالت المعتزلة : هذا اللفظ ، وان كان عاما إلا أنه حصل مع هذه الآية وجود تدل على أن أعمال العباد خارجة عن هذا العموم . فأحدهما : أنه تعالى قال (خالق كل شيء فاعبدوه) فلو دخلت أعمال العباد تحت قوله (خالق كل شيء) لصار تقدير الآية : أنا خلقت أعمالكم فافعلوها بأعيانها أنتم مرة أخرى . ومعلوم أن ذلك فاسد . وثانيها : أنه تعالى إنما ذكر قوله (خالق كل شيء) في معرض المدح والثناء على نفسه . فلو دخل تحتها أعمال العباد لخرج عن كونه مدحا وثناء لأنه لا يليق به سبحانه أن يتمدح بخالق الزنا واللواط والسرقه والكفر . وثالثها : أنه تعالى قال بعد هذه الآية (تد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه) ومن عمى فعليها ، وهذا تصريح بكون العبد مستقلا بالفعل والترك ، وأنه لا مانع له البتة من الفعل والترك ، وذلك يدل على أن فعل العبد غير مخلوق لله تعالى إذ لو كان مخلوقا لله تعالى لما كان العبد مستقلا به ، لأنه إذا أوجده الله تعالى امتنع منه الدفع ، وإذا لم يوجده الله تعالى امتنع منه التحصيل . فلما دلت هذه الآية على كون العبد مستقلا بالفعل والترك وثبت أن كونه كذلك يمنع أن يقال فعل العبد مخلوق لله تعالى ، ثبت أن ذكر قوله (فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها) يوجب تخصيص ذلك العموم . ورابعها : ان هذه الآية مذكورة عقيب قوله (وجعلوا لله شركاء الجن) وقد بينا أن المراد منه رواية مذهب المجوس في إثبات الهين للعالم . أحدهما يفعل اللذات والخيرات ، والآخر يفعل الآلام والآفات فقوله بعد ذلك (لإله إلا هو خالق كل شيء) يجب أن يكون محمولا على ابطال ذلك المذهب ، وذلك إنما يكون إذا قلنا انه تعالى هو الخالق لكل ما في هذا العالم من السباع والحشرات والأمراض والآلام ، فاذا حملنا قوله (خالق كل شيء) على هذا الوجه لم يدخل تحتها أعمال العباد . قالوا : فثبت أن هذه الدلائل الأربعة توجب خروج أعمال العباد عن عموم قوله تعالى (خالق كل شيء)

والجواب : أنا نقول الدليل العقلي القاطع قد ساعد على صحة ظاهر هذه الآية . وتقريره أن الفعل موقوف على الداعي وخالق الداعي هو الله تعالى ، ومجموع القدرة مع الداعي يوجب الفعل وذلك يقتضى كونه تعالى خالقا لأفعال العباد ، وإذا تأكد هذا الظاهر بهذا البرهان العقلي القاطع زالت الشكوك والشبهات .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله تعالى (خالق كل شيء فاعبدوه) يدل على ترتيب الأمر بالعبادة على كونه تعالى خالقا لكل الأشياء بقاء التعقيب وترتيب الحكم على الوصف بحرف الفاء مشعر بالسببية ، فهذا يقتضى أن يكون كونه تعالى خالقا للأشياء هو الموجب لكونه عبوداً على الاطلاق ، وإلا

هو المستحق للمعبودية ، فهذا يشعر بصحة ما يذكره بعض أصحابنا من أن الاله عبارة عن القادر على الخلق والابداع والايجاد والاختراع .

﴿المسألة الخامسة﴾ احتج كثير من المعتزلة بقوله (خالق كل شيء) على نفي الصفات . وعلى كون القرآن مخلوقا . أما نفي الصفات فلأنهم قالوا : لو كان تعالى عالما بالعلم قادرا بالقدرة . لكان ذلك العلم والقدرة إما أن يقال : إنهما قديمان . أو محدثان . والأول باطل . لأن عموم قوله (خالق كل شيء) يقتضى كونه خالقا لكل الأشياء أدخلنا التخصيص في هذا العموم بحسب ذاته تعالى ضرورة أنه يمتنع أن يكون خالقا لنفسه . فوجب أن يبقى على عمومه فيما سواه . والقول باثبات الصفات القديمة يقتضى مزيد التخصيص في هذا العموم . وأنه لا يجوز . والثاني : وهو القول بحدوث علم الله وقدرته . فهو باطل بالاجماع . ولأنه يلزم افتقار إيجاد ذلك العلم والقدرة إلى سبق علم آخر وقدرة أخرى . وأن ذلك محال . وأما تمسكهم بهذه الآية على كون القرآن مخلوقا . فقالوا : القرآن شيء وكل شيء فهو مخلوق لله تعالى بحكم هذا العموم . فلزم كون القرآن مخلوقا لله تعالى أقصى ما في هذا الباب أن هذا العموم دخله التخصيص في ذات الله تعالى . إلا أن العام المخصوص حجة في غير محل التخصيص . ولذلك فإن دخول هذا التخصيص في هذا العموم لم يمنع أهل السنة من التمسك به في إثبات أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى .

وجواب أصحابنا عنه : أنا نخص هذا العموم بالدلائل الدالة على كونه تعالى عالما بالعلم قادرا بالقدرة ، وبالدلائل الدالة على أن كلام الله تعالى قديم .

﴿المسألة السادسة﴾ قوله تعالى (وهو على كل شيء وكيل) المراد منه أن يحصل للعبد كمال التوحيد وتقريره ، وهو أن العبد وإن كان يعتقد أنه لا إله إلا هو . وأنه لا مدبر إلا الله تعالى . إلا أن هذا العالم عالم الأسباب .

وسمعت الشيخ الامام الزاهد الوالد رحمه الله يقول : لولا الأسباب لما ارتاب مرتاب . وإذا كان الأمر كذلك . فقد يعلق الرجل القلب بالأسباب الظاهرة . فتارة يعتمد على الأمير . وتارة يرجع في تحصيل مهماته إلى الوزير ، فحينئذ لا ينال إلا الحرمان ولا يجد إلا تكثير الأحزان ، والحق تعالى قال (وهو على كل شيء وكيل) والمقصود أن يعلم الرجل أنه لا حافظ إلا الله . ولا مصلح للمهمات إلا الله . فحينئذ ينقطع طمعه عن كل ما سواه . ولا يرجع في مهم من المهمات إلا إليه .

﴿المسألة السابعة﴾ أنه قال : قبل هذه الآية بقليل (وخلق كل شيء) وقال ههنا (خالق كل شيء) وهذا كال تكرار .

لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ «١٠٣»

والجواب من وجوه : الأول : أن قوله (وخلق كل شيء) إشارة إلى الماضي .
أما قوله «خالق كل شيء» فهو اسم الفاعل ، وهو يتناول الأوقات كلها ، والثاني : وهو التحقيق أنه تعالى ذكر هناك قوله (وخالق كل شيء) ليجعله مقدمة في بيان نفي الأولاد ، وههنا ذكر قوله (خالق كل شيء) ليجعله مقدمة في بيان أنه لا معبود إلا هو ، والحاصل أن هذه المقدمة مقدمة توجب أحكاما كثيرة وتنتائج مختلفة . فهو تعالى يذكرها مرة بعد مرة . ليفرع عليها في كل موضع ما يليق بها من النتيجة .

﴿المسألة الثالثة﴾ لقائل أن يقول : الإله هو الذي يستحق أن يكون معبودا ، فقوله (لا إله إلا هو) معناه لا يستحق العبادة إلا هو ، فما الفائدة في قوله بعد ذلك (فاعبدوه) فان هذا يوم التكرير .

والجواب : قوله (لا إله إلا هو) أى لا يستحق العبادة إلا هو ، وقوله (فاعبدوه) أى لا تعبدوا غيره .

﴿المسألة التاسعة﴾ القوم كانوا معترفين بوجود الله تعالى كما قال (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) وما أطلقوا لفظ الله على أحد سوى الله سبحانه ، كما قال تعالى (هل تعلم له سميا) فقال (ذلكم الله ربكم) أى الشيء الموصوف بالصفات التي تقدم ذكرها هو الله تعالى ، ثم قال بعده (ربكم) يعنى الذى يريكم ويحسن اليكم بأصناف التربية ووجوه الاحسان ، وهى أقسام بلغت فى الكثرة إلى حيث يعجز العقل عن ضبطها ، كما قال (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) ثم قال ﴿لا إله إلا هو﴾ يعنى أنكم لما عرفتم وجود الإله المحسن المتفضل المتكرم فاعلموا أنه لا إله سواه ولا معبود سواه .

ثم قال ﴿خالق كل شيء﴾ يعنى أنما صح قولنا : لا إله سواه ، لأنه لا خالق للخلق سواه ، ولا مدبر للعالم إلا هو . فهذا الترتيب ترتيب مناسب مفيد .

قوله تعالى ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾
فى هذه الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى تجوز رؤيته والمؤمنين . يروونه يوم القيامة من وجوه : الأول : فى تقرير هذا المطلوب أن نقول : هذه الآية تدل على أنه تعالى تجوز رؤيته .

وإذا ثبت هذا وجب القطع بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة .
 ﴿أما المقام الأول﴾ فتقريره : أنه تعالى تمدح بقوله (لا تدركه الأبصار) وذلك بما يساعد
 الخصم عليه ، وعليه بنوا استدلالهم في إثبات مذهبهم في نفي الرؤية .
 وإذا ثبت هذا فنقول : لو لم يكن تعالى جائز الرؤية لما حصل التمدح بقوله (لا تدركه
 الأبصار) ألا ترى أن المعدوم لا تصح رؤيته . والعلوم والقدرة والارادة والروائح والطعوم لا يصح
 رؤية شيء منها ، ولا مدح شيء منها في كونها بحيث لا تصح رؤيتها . فثبت أن قوله (لا تدركه
 الأبصار) يفيد المدح ، وثبت أن ذلك إنما يفيد المدح لو كان صحيح الرؤية ، وهذا يدل على أن
 قوله تعالى (لا تدركه الأبصار) يفيد كونه تعالى جائز الرؤية . وتسام التحقيق فيه أن الشيء إذا
 كان في نفسه بحيث يمنع رؤيته ، فحينئذ لا يلزم من عدم رؤيته مدح وتعظيم للشيء . أما إذا كان في
 نفسه جائز الرؤية . ثم إنه قدر على حجب الأبصار عن رؤيته وعن إدراكه كانت هذه القدرة
 الكاملة دالة على المدح والعظمة . فثبت أن هذه الآية دالة على أنه تعالى جائز الرؤية بحسب ذاته .
 وإذا ثبت هذا وجب القطع بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة . والدليل عليه أن القائل قائلان :
 قائل قال بجواز الرؤية مع أن المؤمنين يرونه . وقائل قال لا يرونه ولا تجوز رؤيته . فأمّا القول
 بأنه تعالى تجوز رؤيته مع أنه لا يراه أحد من المؤمنين فهو قول لم يقل به أحد من الأمة فكان
 باطلا . فثبت بما ذكرنا أن هذه الآية تدل على أنه تعالى جائز الرؤية في ذاته . وثبت أنه متى كان الأمر
 كذلك ، وجب القطع بأن المؤمنين يرونه . فثبت بما ذكرنا دلالة هذه الآية على حصول الرؤية
 وهذا استدلال لطيف من هذه الآية .

﴿الوجه الثاني﴾ أن نقول المراد بالأبصار في قوله (لا تدركه الأبصار) ليس هو نفس الأبصار
 فإن البصر لا يدرك شيئا البتة في موضع من المواضع . بل المدرك هو المبصر فوجب القطع بأن
 المراد من قوله (لا تدركه الأبصار) هو أنه لا يدركه المبصرون وإذا كان كذلك كان قوله (وهو
 يدرك الأبصار) المراد منه وهو يدرك المبصرين ، ومعتزلة البصرة يوافقوننا على أنه تعالى يبصر
 الأشياء فكان هو تعالى من جملة المبصرين فقوله (وهو يدرك الأبصار) يقتضى كونه تعالى مبصرا
 لنفسه . وإذا كان الأمر كذلك كان تعالى جائز الرؤية في ذاته ، وكان تعالى يرى نفسه . وكل من
 قال إنه تعالى جائز الرؤية في نفسه قال : إن المؤمنين يرونه يوم القيامة فصارت هذه الآية دالة
 على أنه جائز الرؤية وعلى أن المؤمنين يرونه يوم القيامة . وإن أردنا أن نزيد هذا الاستدلال
 اختصارا قلنا : قوله تعالى (وهو يدرك الأبصار) المراد منه إما نفس البصر أو المبصر ، وعلى

التقديرين : فيلزم كونه تعالى مبصرا لا بصار نفسه ، وكونه مبصرا لذات نفسه . وإذا ثبت هذا وجب أن يراه المؤمنون يوم القيامة ضرورة أنه لا قائل بالفرق .

(الوجه الثالث) في الاستدلال بالآية أن لفظ (الابصار) صيغة جمع دخل عليها الألف واللام فهي تفيد الاستغراق فقوله (لا تدركه الابصار) يفيد أنه لا يراه جميع الابصار ، فهذا يفيد سلب العموم ولا يفيد عموم السلب .

إذا عرفت هذا فنقول : تخصيص هذا السلب بالمجموع يدل على ثبوت الحكم في بعض أفراد المجموع . ألا ترى أن الرجل إذا قال إن زيدا ما ضربه كل الناس فانه يفيد أنه ضربه بعضهم .

فاذا قيل : إن محمدا صلى الله عليه وسلم ما آمن به كل الناس أفاد أنه آمن به بعض الناس ، وكذا قوله (لا تدركه الابصار) معناه : أنه لا تدركه جميع الابصار ، فوجب أن يفيد أنه تدركه بعض الابصار . أقصى ما في الباب أن يقال : هذا تمسك بدليل الخطاب . فنقول : هب أنه كذلك إلا أنه دليل صحيح لأن بتقدير أن لا يحصل الإدراك لأحد البتة كان تخصيص هذا السلب بالمجموع من حيث هو مجموع عبثا ، وصون كلام الله تعالى عن العبث واجب .

(الوجه الرابع) في التمسك بهذه الآية ما نقل أن ضرار بن عمرو الكوفي كان يقول : إن الله تعالى لا يرى بالعين ، وأنما يرى بحاسة سادسة يخلقها الله تعالى يوم القيامة ، واحتج عليه بهذه الآية فقال : دلت هذه الآية على تخصيص نفي إدراك الله تعالى بالبصر ، وتخصيص الحكم بالشئ يدل على أن الحال في غيره بخلافه ، فوجب أن يكون ادراك الله بغير البصر جائزا في الجملة ، ولما ثبت أن سائر الحواس الموجودة الآن لا تصلح لذلك ثبت أن يقال : إنه تعالى يخلق يوم القيامة حاسة سادسة بها تحصل رؤية الله تعالى وإدراكه ، فهذه وجود أربعة مستنبطة من هذه الآية يمكن العويل عليها في اثبات أن المؤمنين يرون الله في القيامة .

(المسألة الثانية) في حكاية استدلال المعتزلة بهذه الآية في نفي الرؤية .

اعلم أنهم يحتجون بهذه الآية من وجهين : الأول : أنهم قالوا : الإدراك بالبصر عبارة عن الرؤية . بدليل أن قائلا لو قال أدركته بصرى وما رأيته ، أو قال رأيته وما أدركته بصرى فانه يكون كلامه متناقضا ، فثبت أن الإدراك بالبصر عبارة عن الرؤية .

إذا ثبت هذا فنقول : قوله تعالى (لا تدركه الابصار) يقتضى أنه لا يراه شئ من الابصار في شئ من الأحوال ، والدليل على صحة هذا العموم وجهان : الأول : يصح استثناء جميع الاشخاص وجميع الأحوال عنه فيقال : لا تدركه الابصار إلا بصر فلان ، وإلا في الحالة الفلانية والاستثناء

يخرج من الكلام ما لولاه لوجب دخوله . فثبت أن عموم هذه الآية يفيد عموم النفي عن كل الاشخاص في جميع الاحوال . وذلك يدل على أن أحدا لا يرى الله تعالى في شيء من الاحوال .

(الوجه الثاني) في بيان أن هذه الآية تفيد العموم أن عائشة رضى الله عنها لما أنكرت قول ابن عباس في أن محمدا صلى الله عليه وسلم رأى ربه ليلة المعراج تمسكت في نصرته مذهب نفسها بهذه الآية ، ولو لم تكن هذه الآية مفيدة للعموم بالنسبة إلى كل الاشخاص وكل الاحوال لما تم ذلك الاستدلال ، ولا شك أنها كانت من أشد الناس علما بلغة العرب . فثبت أن هذه الآية دالة على النفي بالنسبة إلى كل الاشخاص وذلك يفيد المطلوب .

(الوجه الثاني) في تقرير استدلال المعتزلة بهذه الآية أنهم قالوا : إن ما قبل هذه الآية إلى هذا الموضع مشتمل على المدح والثناء . وقوله بعد ذلك (وهو يدرك الأبصار) أيضا مدح وثناء فوجب أن يكون قوله (لاتدركه الأبصار) مدحا وثناء ، وإلا لزم أن يقال : إن ما ليس بمدح وثناء وقع في خلال ما هو مدح وثناء . وذلك يوجب الركك وهي غير لائقة بكلام الله .

إذا ثبت هذا فنقول : كل ما كان عدمه مدحا ولم يكن ذلك من باب الفعل كان ثبوته نقصا في حق الله تعالى ، والنقص على الله تعالى محال ، لقوله (لاتأخذه سنة ولا نوم) وقوله (ليس كشيء شيء) وقوله (لم يلد ولم يولد) إلى غير ذلك . فوجب أن يقال كونه تعالى مرثيا محال .

واعلم أن القوم إنما قيدوا ذلك بما لا يكون من باب الفعل لأنه تعالى تمدح بنبي الظلم عن نفسه في قوله (وما الله يريد ظلما للعالمين) وقوله (وما ربك بظلام للعبيد) مع أنه تعالى قادر على الظلم عنهم ، فذكروا هذا القيد دفعا لهذا النقص عن كلامهم . فهذا غاية تقرير كلامهم في هذا الباب . والجواب عن الوجه الأول من وجود : الأول : لا نسلم أن إدراك البصر عبارة عن الرؤية والدليل عليه : أن لفظ الإدراك في أصل اللغة عبارة عن اللجوق والوصول قال تعالى (قال أصحاب موسى انا لمدركون) أى للمحققون وقال (حتى إذا أدركه الغرق) أى لحقه . ويقال : أدرك فلان فلانا ، وأدرك الغلام أى بلغ الحلم . وأدركت الثمرة أى نضجت . فثبت أن الإدراك هو الوصول إلى الشيء .

إذا عرفت هذا فنقول : المرثى إذا كان له حد ونهاية وأدركه البصر بجميع حدوده وجوانبه ونهاياته . صار كذلك الابصار أحاط به فتسمى هذه الرؤية إدراكا . أما إذا لم يحط البصر بجوانب المرثى لم تسم تلك الرؤية إدراكا . فالحاصل أن الرؤية جنس تحتها نوعان : رؤية مع الاحاطة . ورؤية لاعم الاحاطة . والرؤية مع الاحاطة هى المسماة بالادراك فنفي الادراك . يفيد نفي نوع واحد من

نوعى الرؤية . ونفى النوع لا يوجب نفي الجنس . فلم يلزم من نفي الادراك عن الله تعالى نفي الرؤية عن الله تعالى ، فهذا وجه حسن مقبول في الاعتراض على كلام الخصم .
فان قالوا لما يثبت أن الادراك أمر مغاير للرؤية فقد أفسدتم على أنفسكم الوجوه الأربعة التي تمسكتكم بها في هذه الآية في إثبات الرؤية على الله تعالى .

قائنا : هذا بعيد لأن الادراك أخص من الرؤية وإثبات الأخص يوجب إثبات الأعم . وأما نفي الأخص لا يوجب نفي الأعم . فثبت أن البيان الذي ذكرناه يبطل كلامكم ولا يبطل كلامنا .

﴿الوجه الثاني﴾ في الاعتراض أن نقول : هب أن الادراك بالبصر عبارة عن الرؤية ، لكن لم قلتم أن قوله لاتدركه الأبصار يفيد عموم النفي عن كل الأشخاص وعن كل الأحوال وفي كل الأوقات ؟ وأما الاستدلال بصحة الاستثناء على عموم النفي فعارض بصحة الاستثناء عن جمع القلة مع أنها لا تفيد عموم النفي بل نسلم أنه يفيد العموم إلا أن نفي العموم غير ، وعموم النفي غير ، وقد دللنا على أن هذا اللفظ لا يفيد إلا نفي العموم . ويبدأ أن نفي العموم يوجب ثبوت الخصوص ، وهذا هو الذي قررناه في وجه الاستدلال . وأما قوله إن عائشة رضی الله عنها تمسكت بهذه الآية في نفي الرؤية فنقول : معرفة مفردات اللغة إنما تسكتسب من علماء اللغة ، فأما كيفية الاستدلال بالدليل فلا يرجع فيه إلى التقليد ، وبالجملة فالدليل العقلي دل على أن قوله (لاتدركه الأبصار) يفيد نفي العموم . وثبت بصريح العقل أن نفي العموم مغاير لعموم النفي ومقصودهم إنما يتم لو دلت الآية على عموم النفي . فسقط كلامهم

﴿الوجه الثالث﴾ أن نقول صيغة الجمع كما تحمل على الاستغراق فقد تحمل على المعهود السابق أيضاً ، وإذا كان كذلك فقوله (لاتدركه الأبصار) يفيد أن الأبصار المعهودة في الدنيا لاتدركه ، ونحن نقول بموجبه فان هذه الأبصار وهذه الأحداق مادامت تبقى على هذه الصفات التي هي موصوفة بها في الدنيا لاتدرك الله تعالى ، وإنما تدرك الله تعالى إذا تبدلت صفاتها وتغيرت أحوالها فلم قلتم أن عند حصول هذه التغيرات لاتدرك الله ؟

﴿الوجه الرابع﴾ سلطنا أن الأبصار البتة لاتدرك الله تعالى فلم لا يجوز حصول إدراك الله تعالى بحاسة سادسة مغايرة لهذه الحواس كما كان ضرار بن عمرو يقول به ؟ وعلى هذا التقدير فلا يبقى في التمسك بهذه الآية فائدة .

﴿الوجه الخامس﴾ هب أن هذه الآية عامة إلا أن الآيات الدالة على إثبات رؤية الله تعالى خاصة والخاص مقدم على العام . وحينئذ ينتقل الكلام من هذا المقام إلى بيان أن تلك الآيات هل

تدل على حصول رؤية الله تعالى أم لا ؟

(الوجه السادس) أن نقول بموجب الآية فنقول: سلمنا أن الأبصار لاتدرك الله تعالى ، فلم قلتم إن المبصرين لا يدركون الله تعالى ؟ فهذا مجموع الأسئلة على الوجه الأول . وأما الوجه الثاني فقد بينا أنه يمتنع حصول التمدح بنفى الرؤية لو كان تعالى في ذاته بحيث تمتنع رؤيته . بل إنما يحصل التمدح لو كان بحيث تصح رؤيته ، ثم إنه تعالى يحجب الأبصار عن رؤيته . وبهذا الطريق يسقط كالمهم بالكلية ، ثم نقول : إن النفي يمتنع أن يكون سبباً لحصول المدح والثناء . وذلك لأن النفي المحض والعدم الصرف لا يكون موجباً للمدح والثناء . والعلم به ضروري . بل إذا كان النفي دليلاً على حصول صفة ثابتة من صفات المدح والثناء . قيل : بأن ذلك النفي يوجب المدح . ومثاله أن قوله (لا تأخذه سنة ولا نوم) لا يفيد المدح نظراً إلى هذا النفي . فإن الجماد لا تأخذه سنة ولا نوم إلا أن هذا النفي في حق الباري تعالى يدل على كونه تعالى عالماً بجميع المعلومات أبداً من غير تبدل ولا زوال وكذلك قوله (وهو يطعم ولا يطعم) يدل على كونه قائماً بنفسه غنياً في ذاته لأن الجماد أيضاً لا يأكل ولا يطعم . إذا ثبت هذا فنقول : قوله (لاتدركه الابصار) يمتنع أن يفيد المدح والثناء إلا إذا دل على معنى موجود يفيد المدح والثناء ، وذلك هو الذي قلناه ، فإنه يفيد كونه تعالى قادراً على حجب الأبصار ومنعها عن إدراكه ورؤيته . وبهذا التقرير فإن الكلام ينقلب عليهم حجة . فسقط استدلال المعتزلة بهذه الآية من كل الوجوه .

(المسألة الثالثة) اعلم أن القاضى ذكر في تفسيره وجوهاً أخرى تدل على نفى الرؤية وهي في الحقيقة خارجة عن التمسك بهذه الآية ومنفصلة عن علم التفسير وخوض في علم الأصول ، ولما فعل القاضى ذلك فنحن نقلها ونجيب عنها . ثم نذكر لأصحابنا وجوهاً دالة على صحة الرؤية . أما القاضى فقد تمسك بوجوه عقلية أولها : أن الحاسة إذا كانت سليمة وكان المرئى حاضراً وكانت الشرائط المعتبرة حاصلة وهي أن لا يحصل القرب القريب ولا البعد البعيد ولا يحصل الحجاب ويكون المرئى مقابلاً أو في حكم المقابل فإنه يجب حصول الرؤية . إذ لو جاز مع حصول هذه الأمور أن لا تحصل الرؤية جاز أن يكون بحضرتنا بوقات وطبقات ولا نسمعها ولا نراها . وذلك يوجب السفسطة .

قالوا إذا ثبت هذا فنقول : إن انتفاء القرب القريب والبعد البعيد والحجاب وحصول المقابلة في حق الله تعالى يمتنع ، فلو صح رؤيته لوجب أن يكون المقتضى لحصول تلك الرؤية هو سلامة الحاسة وكون المرئى بحيث تصح رؤيته . وهذان المعنيان حاصلان في هذا الوقت . فلو كان بحيث تصح رؤيته لوجب أن تحصل رؤيته في هذا الوقت . وحيث لم تحصل هذه الرؤية علمنا أنه يمتنع الرؤية .

﴿والحجة الثانية﴾ أن كل ما كان مرئياً كان مقابلاً أو في حكم المقابل والله تعالى ليس كذلك، فوجب أن تمتنع رؤيته .

﴿والحجة الثالثة﴾ قال القاضي : ويقال لهم كيف يراه أهل الجنة دون أهل النار؟ إما أن يقرب منهم أو يقابلهم فيكون حالهم معه بخلاف أهل النار وهذا يوجب أنه جسم يجوز عليه القرب والبعد والحجاب .

﴿والحجة الرابعة﴾ قال القاضي : إن قائم إن أهل الجنة يرونه في كل حال حتى عند الجماع وغيره فهو باطل ، أو يرونه في حال دون حال وهذا أيضاً باطل ، لأن ذلك يوجب أنه تعالى مرة يقرب وأخرى يبعد . وأيضاً فرويته أعظم اللذات ، وإذا كان كذلك وجب أن يكونوا مشتهين لتلك الرؤية أبداً . فإذا لم يروه في بعض الأوقات وقعوا في الغم والحزن وذلك لا يليق بصفات أهل الجنة . فهذا مجموع ما ذكره في كتاب التفسير . واعلم أن هذه الوجود في غاية الضعف .

﴿أما الوجه الأول﴾ فيقال له هب أن رؤية الأجسام والأعراض عند حصول سلامة الحاسة وحضور المرئى وحصول سائر الشرائط واجبة ، فلم قائم إنه يلزم منه أن يكون رؤية الله تعالى عند سلامة الحاسة وعند كون المرئى بحيث يصح رؤيته واجبة؟ ألم تعلموا أن ذاته تعالى مخالفة لسائر الذوات ، ولا يلزم من ثبوت حكم في شيء ثبوت مثل ذلك الحكم فيما يخالفه ، والعجب من هؤلاء المعتزلة أن أولهم وآخرهم عولوا على هذا الدليل وهم يدعون الفطنة التامة والكياسة الشديدة ولم يتنبه أحد منهم لهذا السؤال ولم يخطر بباله ركاكة هذا الكلام .

﴿وأما الوجه الثاني﴾ فيقال له إن النزاع بيننا وبينك وقع في أن الموجود الذي لا يكون مختصاً بمكان وجهة هل يجوز رؤيته أم لا؟ فاما أن تدعوا أن العلم بامتناع رؤية هذا الموجود الموصوف بهذه الصفة علم بديهى أو تقولوا أنه علم استدلالى ، والأول باطل . لأنه لو كان العلم به بديهياً لما وقع الخلاف فيه بين العقلاء . وأيضاً فبتقدير أن يكون هذا العلم بديهياً كان الاشتغال بذكر الدليل عبثاً فاتركوا الاستدلال واكتفوا بادعاء البديهية . وإن كان الثانى فنقول : قولكم المرئى يجب أن يكون مقابلاً أو في حكم المقابل إعادة لعين الدعوى ، لأن حاصل الكلام أنكم قلتم : الدليل على أن ما لا يكون مقابلاً ولا في حكم المقابل لا تجوز رؤيته ، أن كل ما كان مرئياً فانه يجب أن يكون مقابلاً أو في حكم المقابل ، ومعلوم أنه لا فائدة في هذا الكلام إلا إعادة الدعوى

﴿وأما الوجه الثالث﴾ فيقال له لم لا يجوز أن يقال إن أهل الجنة يرونه وأهل النار لا يرونه؟ لا لأجل القرب والبعد كما ذكرت ، بل لأنه تعالى يخلق الرؤية في عيون أهل الجنة ولا يخلقها

في عيون أهل النار فلو رجعت في إبطال هذا الكلام إلى أن تجوز به يفضى إلى تجوز أن يكون بحضرتنا بوقات وطبقات ولا نراها ولا نسمعها ، كان هذا رجوعا إلى الطريقة الأولى ، وقد سبق جوابها .

﴿وأما الوجه الرابع﴾ فيقال لم لا يجوز أن يقال : إن المؤمنين يرون الله تعالى في حال دون حال . أما قوله فهذا يقتضى أن يقال : إنه تعالى مرة يقرب ومرة يبعد . فيقال هذا عود إلى أن الأبصار لا يحصل إلا عند الشرائط المذكورة ، وهو عود إلى الطريق الأول ، وقد سبق جوابه ، وقوله ثانيا : الرؤية أعظم للذات ، فيقال له إنها وان كانت كذلك إلا أنه لا يبعد أن يقال إنهم يشتهونها في حال دون حال ، بدليل أن سائر لذات الجنة ومنافعها طيبة لذيدة ثم انها تحصل في حال دون حال فكذا ههنا . فهذا تمام الكلام في الجواب عن الوجوه التي ذكرها في هذا الباب .

﴿المسألة الرابعة﴾ في تقرير الوجوه الدالة على أن المؤمنين يرون الله تعالى ونحن نعددها هنا عدا ، ونحيل تقريرها إلى المواضع الثلاثة بها . فالأول : أن موسى عليه السلام طلب الرؤية من الله تعالى ، وذلك يدل على جواز رؤية الله تعالى . والثاني : أنه تعالى علق الرؤية على استقرار الجبل حيث قال (فإن استقره كأنه فسوف تراني) واستقرار الجبل جائز والمعلق على الجائز جائز ، وهذان الدليلان سيأتى تقريرهما إن شاء الله تعالى في سورة الاعراف .

﴿الحجة الثالثة﴾ التمسك بقوله (لاتدركه الأبصار) من الوجوه المذكورة .
 ﴿الحجة الرابعة﴾ التمسك بقوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى) وزيادة وتقريره قد ذكرناه في سورة يونس .

﴿الحجة الخامسة﴾ التمسك بقوله تعالى (فمن كان يرجوا لقاء ربه) وكذا القول في جميع الآيات المشتملة على اللقاء وتقريره قد مر في هذا التفسير مرارا وأطوارا
 ﴿الحجة السادسة﴾ التمسك بقوله تعالى (وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا) فإن إحدى القراءات في هذه الآية (ملكا) بفتح الميم وكسر اللام . وأجمع المسلمون على أن ذلك الملك ليس إلا الله تعالى . وعندى التمسك بهذه الآية أقوى من التمسك بغيرها .

﴿الحجة السابعة﴾ التمسك بقوله تعالى (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) وتخصيص الكفار بالحجب يدل على أن المؤمنين لا يكونون محجوبين عن رؤية الله عز وجل .

﴿الحجة الثامنة﴾ التمسك بقوله تعالى (ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى) وتقرير هذه الحجة سيأتى في تفسير سورة النجم .

﴿الحجة التاسعة﴾ أن القلوب الصافية مجبولة على حب معرفة الله تعالى على أكمل الوجوه ، وأكمل

طرق المعرفة هو الرؤية . فوجب أن تكون رؤية الله تعالى مطلوبة لكل أحد ، وإذا ثبت هذا وحب القطع بوصولها لقوله تعالى (ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم)

(الحجة العاشرة) قوله تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً) دلت هذه الآية على أنه تعالى جعل جميع جنات الفردوس نزلاً للمؤمنين ، والاقتصار فيها على النزل لا يجوز . بل لا بد وأن يحصل عقيب النزل تشریف أعظم حالاً من ذلك النزل ، وما ذاك إلا الرؤية .

(الحجة الحادية عشرة) قوله تعالى (وجود يومئذ ناظرة إلى ربها ناظرة) وتقرير كل واحد من هذه الوجوه سيأتي في الموضوع اللاحق به من هذا الكتاب . وأما الأخبار فكثيرة منها الحديث المشهور وهو قوله عليه السلام «سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته» واعلم أن تشبيهه وقع في تشبيه الرؤية بالرؤية في الجلاء والوضوح . لافي تشبيه المرئي بالمرئي . ومنها ما اتفق الجمهور عليه من أنه صلى الله عليه وسلم قرأ قوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) فقال الحسنى هي الجنة . والزيادة النظر إلى وجه الله ، ومنها أن الصحابة رضی الله عنهم اختلفوا في أن النبي صلى الله عليه وسلم هل رأى الله ليلة المعراج ، ولم يكفر بعضهم بعضاً بهذا السبب؟ وما نسبه إلى البدعة والضلالة . وهذا يدل على أنهم كانوا مجتمعين على أنه لا امتناع عقلاً في رؤية الله تعالى ، فهذا جملة الكلام في سمعيات مسألة الرؤية .

(المسألة الخامسة) دل قوله تعالى (وهو يدرك الأبصار) على أنه تعالى يرى الأشياء ويبصرها ويدركها . وذلك لأنه إما أن يكون المراد من الأبصار عين الأبصار . أو المراد منه المبصرين ، فإن كان الأول . وجب الحكم بكونه تعالى رائيًا للرؤية الرائيين ولأبصار المبصرين ، وكل من قال ذلك قال إنه تعالى يرى جميع المرئيات والمبصرات . وإن كان الثاني وجب الحكم بكونه تعالى رائيًا للمبصرين ، فعلى كلا التقديرين تدل هذه الآية على كونه تعالى مبصراً للمبصرات رائيًا للمرئيات .

(المسألة السادسة) قوله تعالى (وهو يدرك الأبصار) يفيد الحصر معناه أنه تعالى هو يدرك الأبصار ولا يدركها غير الله تعالى ، والمعنى أن الأمر الذي به يصير الحى رائيًا للمرئيات ومبصراً للمبصرات ومدركاً للمدركات ، أمر عجيب وماهية شريفة ، لا يحيط العقل بكنهها . ومع ذلك فإن الله تعالى مدرك لحقيقتها مطلع على ماهيتها ، فيكون المعنى من قوله (لا تدركه الأبصار) هو أن شيئاً من القوى المدركة لا تحيط بحقيقته ، وأن عقلاً من العقول لا يقف على كنهه صمدية ، فكلت الأبصار عن إدراكه ، وارتدعت العقول عن الوصول إلى ميادين عزته ،

قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ

بَحْفِظُ «١٠٤»

وكما أن شيئاً لا يحيط به ، فعلمه يحيط بالكل ، وإدراكه متناول للكل . فهذا كيفية نظم هذه الآية .

﴿المسألة السابعة﴾ قوله (وهو اللطيف الخبير) اللطافة ضد الكثافة . والمراد منه الرقة ، وذلك في حق الله تمتع ، فوجب المصير فيه إلى التأويل ، وهو من وجود :

﴿الوجه الأول﴾ المراد لطف صنعه في تركيب أبدان الحيوانات من الأجزاء الدقيقة ، والأغشية الرقيقة والمنافذ الضيقة التي لا يعلمها أحد إلا الله تعالى .

﴿الوجه الثاني﴾ أنه سبحانه لطيف في الانعام والرافة والرحمة .

﴿والوجه الثالث﴾ أنه لطيف بعباده ، حيث يثني عليهم عند الطاعة . ويأمرهم بالتوبة عند المعصية ، ولا يقطع عنهم سواد رحمته سواء كانوا مطيعين أو كانوا عصاة .

﴿الوجه الرابع﴾ إنه لطيف بهم حيث لا يأمرهم فوق طاقتهم . وبنعم عليهم بما هو فوق استحقاقهم . وأما الخبير : فهو من الخبر وهو العلم ، والمعنى أنه لطيف بعباده مع كونه عالماً بما هم عليه من ارتكاب المعاصي والاقدام على القبائح . وقال صاحب الكشاف (اللطيف) معناه : أنه ياطف عن أن تتركه الأبصار (الخبير) بكل لطيف ، فهو يدرك الأبصار . ولا ياطف شيء عن إدراكه ، وهذا وجه حسن .

قوله تعالى ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ﴾ في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنه تعالى لما قرر هذه البيانات الظاهرة . والدلائل القاطرة في هذه المطالب العالية الشريفة الالهية . عاد إلى تقرير أمر الدعوى والتبليغ والرسالة فقال (قد جاءكم بصائر من ربكم) والبصائر جمع البصيرة . وكما أن البصر اسم للدراك التام الكامل الحاصل بالعين التي في الرأس ، فالبصيرة اسم للدراك التام الحاصل في القلب . قال تعالى (بل الانسان على نفسه بصيرة) أي له من نفسه معرفة تامة . وأراد بقوله (قد جاءكم بصائر من ربكم) الآيات المتقدمة . وهي في أنفسها ليست بصائر إلا أنها لقوتها وجلالتها توجب البصائر لمن عرفها . ووقف على حقائقها . فلما كانت هذه الآيات أسباباً لحصول البصائر . سميت هذه الآيات أنفسها بالبصائر . والمقصود من هذه الآية بيان ما يتعلق بالرسول وما لا يتعلق به .

وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ «١٠٥»

﴿أما القسم الأول﴾ وهو الذى يتعلق بالرسول ، فهو الدعوة إلى الدين الحق ، وتبليغ الدلالة والبيّنات فيها ، وهو أنه عليه السلام ما قصر فى تبليغها وإيضاحها وإزالة الشبهات عنها ، وهو المراد من قوله (قد جاءكم بصائر من ربكم)

﴿وأما القسم الثانى﴾ وهو الذى لا يتعلق بالرسول ، فاقدامهم على الايمان وترك الكفر ، فان هذا لا يتعلق بالرسول ، بل يتعلق باختيارهم ، ونفعه وضره عائد إليهم ، والمعنى من أبصر الحق وآمن فلنفسه أبصر ، وإياها نفع ، ومن عمى عنه فعلى نفسه عمى وإياها ضر بالعمى (وما أنا عليكم بحفيظ) احفظ أعمالكم وأجاز بكم عليها . إنما أنا منذر والله هو الحفيظ عليكم .

﴿المسألة الثانية﴾ فى أحكام هذه الآية . وهى أربعة ذكرها القاضى : فالأول : الغرض بهذه البصائر أن ينتفع بها اختيارا استحق بها الثواب لا أن يحمل عليها أو يلجأ إليها ، لأن ذلك يبطل هذا الغرض . والثانى : أنه تعالى إنما دلنا وبين لنا منافع ، وأغراض المنافع تعود لنا للمنافع تعود إلى الله تعالى . والثالث : أن المرء بعدوله عن النظر والتدبر يضر بنفسه . ولم يؤت إلا من قبله لامن قبل ربه . والرابع : أنه متمكن من الأمرين ، فلذلك قال (فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها) قال : وفيه إبطال قول المجبرة فى المخلوق ، وفى أنه تعالى يكلف بلا قدرة .

واعلم أنه متى شرعت المعتزلة فى الحكمة والفلسفة والأمر والنهى ، فلا طريق فيه لإمعارضته بسؤال الداعى فانه يهدم كل ما يدكرونه .

﴿المسألة الثالثة﴾ المراد من الابصار ههنا العلم ، ومن العمى الجهل ، ونظيره قوله تعالى (فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور)

﴿المسألة الرابعة﴾ قال المفسرون قوله (فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها) معناه لا آخذكم بالايمان أخذ الحفيظ عليكم والوكيل . قالوا : وهذا إنما كان قبيل الأمر بالقتال ، فلما أمر بالقتال صار حفيظا عليهم . ومنهم من يقول آية القتال فاسخة لهذه الآية ، وهو بعيد فكان هؤلاء المفسرين دشغوفون بتسكثير النسخ من غير حاجة اليه ، والحق ما تقرره أصحاب أصول الفقه إن الأصل عدم النسخ ، فوجب السعى فى تقليده بقدر الامكان

قوله تعالى ﴿وكذلك نصرَف الآيات وليقولوا درست ولنبيته لقوم يعلمون﴾
اعلم انه تعالى لما تمم الكلام فى الالهيات إلى هذا الموضع شرع من هذا الموضع فى إثبات

النبوات فبدأ تعالى بحكاية شبهات المنكرين لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم .
 ﴿فالشبهة الأولى﴾ قولهم يا محمد إن هذا القرآن الذى جئتنا به كلام تستفيد من
 مدارس العلماء ومباحثة الفضلاء . وتنظمه من عند نفسك . ثم تقرأه علينا . وتزعم أنه
 وحى نزل عليك من الله تعالى ، ثم أنه تعالى أجاب عنه بالوحود الكثيرة . فهذا تقرير
 النظم ، وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن المراد من قوله (وكذلك نصرَف الآيات) يعنى أنه تعالى يأتى بها
 متواترة حالا بعد حال ، ثم قال (وليقولوا درست) وفيه مباحث .

﴿البحث الأول﴾ حكى الواحدى : فى قوله درس الكتاب قولين : الأول : قال الأصمى
 أصله من قولهم : درس الطعام إذا داسه ، يدرسه دراسا والدراس الدياس بلغة أهل الشام قال :
 ودرس الكلام من هذا أى يدرسه فيخف على لسانه . والثانى : قال أبو الهيثم درست الكتاب
 أى ذلته بكثرة القراءة حتى خف حفظه ، من قولهم درست الثوب أى درسته دراسا فهو مدروس
 ودریس ، أى أخلقته ، ومنه قيل للثوب الخاق دريس لأنه قد لان . والدراسة الرياضة . ومنه درست
 السورة حتى حفظتها ، ثم قال الواحدى : وهذا القول قريب مما قاله الأصمى بل هو نفسه لأن
 المعنى يعود فيه إلى التدليل والتلين .

﴿البحث الثانى﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو دارست بالالف ونصب التاء . وهو قراءة ابن
 عباس ومجاهد وتفسيرها قرأت على اليهود وقرؤا عليك ، وجرت بينك وبينهم مدارس وهذا كربة ، ويقوى
 هذه القراءة قوله تعالى (إن هذا إلا إفك افتراه وأعاناه عليه قوم آخرون) وقرأ ابن عامر (درست) أى هذه
 الاخبار التى تولتها علينا قديمة قد درست وانمحت . وضعت من الدرس الذى هو تعنى الأثر وإحفاء الرسم .
 قال الأزهرى من قرأ (درست) فعناه تقادمت أى هذا الذى تلوته علينا قد تقادم وتطول وهو من
 قولهم درس الأثر يدرس دروسا .

واعلم أن صاحب الكشاف روى ههنا قرأت أخرى : فاحداها : (درست) بضم الراء مبالغة
 فى (درست) أى اشتد دروسها . وثانيها (درست) على البناء المفعول بمعنى قدمت وعفت . وثالثها :
 (دارست) وفسروها بدارست اليهود ومحمدا . ورابعها (درس) أى درس محمد . وخامسها (دارسات)
 على معنى هى دارسات أى قديمات أو ذات درس كعيشة راضية .

﴿البحث الثالث﴾ «الواو» فى قوله (وليقولوا) عطف على ضمير والتقدير وكذلك نصرَف
 الآيات لتلزمهم الحجة وليقولوا لخذف المعطوف عليه لوضوح معناه .

(البحث الرابع) اعلم أنه تعالى قال (وكذلك نصرف الآيات) ثم ذكر الوجه الذى لأجله نصرف هذه الآيات وهو أمران: أحدهما قوله تعالى (وليقولوا درست) والثانى قوله (ولئيبته لقوم يعلمون) أما هذا الوجه الثانى فلا إشكال فيه لأنه تعالى بين أن الحكمة فى هذا التصريف أن يظهر منه البيان والفهم والعلم. وإنما الكلام فى الوجه الأول وهو قوله (وليقولوا درست) لأن قولهم للرسول درست كفر منهم بالقرآن والرسول، وعند هذا الكلام عادت بحث مسألة الجبر والقدر. فأما أصحابنا فأنهم أجروا الكلام على ظاهره فقالوا معناه إننا ذكرنا هذه الدلائل حالاً بعد حال ليقول بعضهم درست فيزداد كفرة على كفر، وتثبيتاً لبعضهم فيزداد إيماناً على إيمان، ونظيره قوله تعالى (يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً) وقوله (وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً الى رجسهم) وأما المعتزلة فقد تحيروا. قال الجبائى والقاضى: وليس فيه إلا أحد وجهين: الأول: أن يحمل هذا الإثبات على النفى، والتقدير: وكذلك نصرف الآيات لثلاثا يقولوا درست. ونظيره قوله تعالى (يبين الله لكم أن تضلوا) ومعناه: لثلاثا تضلوا. والثانى: أن تحمل هذه اللام على لام العاقبة. والتقدير: أن عاقبة أمرهم عند تصرفنا هذه الآيات أن يقولوا هذا القول مستندين الى اختيارهم، عادلين عما يلزم من النظر فى هذه الدلائل. هذا غاية كلام القوم فى هذا الباب.

ولقائل أن يقول: أما الجواب الأول فضعيف من وجهين: الأول: أن حمل الإثبات على النفى تحريف لكلام الله وتغييره، وفتح هذا الباب يوجب أن لا يبقى وثوق لا بنفيه ولا بإثباته، وذلك يخرج عن كونه حجة وأنه باطل. والثانى: أن بتقدير أن يجوز هذا النوع من التصرف فى الجملة، إلا أنه غير لائق البتة بهذا الموضع، وذلك لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يظهر آيات القرآن نجماً نجماً، والكفار كانوا يقولون: إن محمداً يضم هذه الآيات بعضها الى بعض ويتفكر فيها ويصلحها آية فآية ثم يظهرها. ولو كان هذا بوحى نازل اليه من السماء، فلم لا يأت بهذا القرآن دفعة واحدة؟ كما أن موسى عليه السلام أتى بالتوراة دفعة واحدة.

إذا عرفت هذا فنقول: إن تصرف هذه الآيات حالاً لحالاً هى التى أوقعت الشبهة للقوم فى أن محمداً صلى الله عليه وسلم، إنما يأتى بهذا القرآن على سبيل المدارس مع التفكير والمذاكرة مع أقوام آخرين وعلى ما يقول الجبائى والقاضى فانه يقتضى أن يكون تصرف هذه الآيات حالاً بعد حال يوجب أن يمتنعوا من القول بأن محمداً عليه الصلاة والسلام إنما أتى بهذا القرآن على سبيل المدارس والمذاكرة. فثبت أن الجواب الذى ذكره إنما يصح لو جعلنا تصرف الآيات علة لأن يمتنعوا من ذلك القول. مع أننا نأين أن تصرف الآيات، هو الموجب لذلك القول فسقط هذا الكلام.

اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ
 الْمُشْرِكِينَ «١٠٦» وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ
 عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ «١٠٧»

وأما الجواب الثاني: وهو حمل اللام على لام العاقبة . فهو أيضاً بعيد لأن حمل هذه اللام على لام العاقبة مجاز ، وحمله على لام الغرض حقيقة . والحقيقة أقوى من المجاز فلو قلنا «اللام» في قوله (وليقولوا درست) لام العاقبة في قوله (ولنبينه لقوم يعلمون) للحقيقة فقد حصل تقديم المجاز على الحقيقة في الذكر وأنه لا يجوز . ثبت بما ذكرنا ضعف هذين الجوابين وأن الحق ما ذكرنا أن المراد منه عين المذكور في قوله تعالى (يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً) ومما يؤكد هذا التأويل قوله (ولنبينه لقوم يعلمون) يعني أنا ما بيناه لإلهؤلاء . فأما الذين لا يعلمون فما بينا هذه الآيات لهم ، ولما دل هذا على أنه تعالى ما جعله بيانا إلا للؤمنين ثبت أنه جعله ضلالا للكافرين وذلك ما قلنا . والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين ﴾ اعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار أنهم ينسبون في إظهار هذا القرآن إلى الافتراء أو إلى أنه يدارس أقواما ويستفيد هذه العلوم منهم ثم ينظمها قرآناً ويدعى أنه نزل عليه من الله تعالى ، أتبعه بقوله (اتبع ما أوحى إليك من ربك) لتلا يصير ذلك القول سببا لغتوره في تبليغ الدعوة والرسالة ، والمقصود تقوية قلبه وإزالة الحزن الذي حصل بسبب سماع تلك الشبهة . ونبه بقوله (لا إله إلا هو) على أنه تعالى لما كان واحدا في الإلهية فانه يجب طاعته . ولا يجوز الاعراض عن تكاليفه بسبب جهل الجاهلين وزيف الزائعين .

وأما قوله ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ فقول: المراد ترك المقابلة . فلذلك قالوا إنه منسوخ ، وهذا ضعيف لأن الأمر بترك المقابلة في الحال لا يفيد الأمر بتركها دائما . وإذا كان الأمر كذلك لم يجب التزام النسخ . وقيل المراد ترك مقابلتهم فيما يأتونه من سفه . وأن يعدل صلوات الله عليه إلى الطريق الذي يكون أقرب إلى القبول وأبعد عن التنفير والتغليظ .

قوله تعالى ﴿ ولو شاء الله ما اشركوا وما جعلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل ﴾

اعلم أن هذا الكلام أيضا متعلق بقولهم للرسول عليه السلام إنما جمعت هذا القرآن من مدارس الناس ومذاكرتهم ، فكأنه تعالى يقول له لا تلتفت الى سفاهات هؤلاء الكفار ، ولا يثقلن عليك كفرهم . فاني لو أردت ، إزالة الكفر عنهم لقدرت ، ولكني تركتهم مع كفرهم ، فلا ينبغي أن تشغل قلبك بكلماتهم .

واعلم أن أصحابنا تسمكوا بقوله تعالى (ولو شاء الله ما أشركوا) والمعنى : ولو شاء الله أن لا يشركوا ما أشركوا ، وحيث لم يحصل الجزاء علينا أنه لم يحصل الشرط ، فعلينا أن مشيئة الله تعالى بعدم إشراكهم غير حاصلة . قالت المعتزلة : ثبت بالدليل أنه تعالى أراد من الكل الايمان ، وما شاء من أحد الكفر والشرك ، وهذه الآية تقتضى أنه تعالى ماشاء من الكل الايمان ، فوجب التوفيق بين الدليلين فيحمل مشيئة الله تعالى لايمانهم على مشيئة الايمان الاختياري الموجب للثواب والثناء ويحمل عدم مشيئته لايمانهم على الايمان الحاصل بالقهر والجبر والاجاء . يعنى أنه تعالى ماشاء منهم أن يحملهم على الايمان على سبيل القهر والاجاء ، لأن ذلك يبطل التكليف ويخرج الانسان عن استحقاق الثواب . هذا ما عول القوم عليه في هذا الباب ، وهو في غاية الضعف وبدل عليه وجوه : الأول : لاشك أنه تعالى هو الذى أقدر الكافر على الكفر فقدره الكفر إن لم تصلح للايمان فخالق تلك القدرة لاشك أنه كان مريدا للكفر ، وان كانت صالحة للايمان لم يترجح جانب الكفر على جانب الايمان إلا عند حصول داع يدعو الى الايمان ، وإلا لزم رجحان أحد طرفي الممكن على الآخر لا المرجح وهو محال ، وبمجموع القدرة مع الداعي الى الكفر يوجب الكفر ، وإذا كان خالق القدرة والداعي هو الله تعالى ، وثبت أن مجموعهما يوجب الكفر . ثبت أنه تعالى قد أراد الكفر من الكافر . الثاني : في تقرير هذا الكلام أن نقول : إنه تعالى كان عالما بعدم الايمان من الكافر ، ووجود الايمان مع العلم بعدم الايمان متضادان ومع وجود أحد الضدين كان حصول الضد الثانى محالا ، والمحال مع العلم بكونه محالا غير مراد ، فامتنع أن يقال إنه تعالى يريد الايمان من الكافر . الثالث : هب أن الايمان الاختياري أفضل وأنفع من الايمان الحاصل بالجبر والقهر إلا أنه تعالى لما علم أن ذلك الانفع لا يحصل البتة ، فقد كان يجب في حكمته ورحمته أن يخلق فيه الايمان على سبيل الاجاء . لأن هذا الايمان وان كان لا يوجب الثواب العظيم ، فأقل ما فيه أن يخلصه من العقاب العظيم ، فترك إيجاد هذا الايمان فيه على سبيل الاجاء يوجب وقوعه في أشد العذاب . وذلك لا يليق بالرحمة والاحسان ومثاله أن من كان له ولد عزيز وكان هذا الأب في غاية الشفقة وكان هذا الولد واقفا على طرف البحر فيقول الوالد له : غص في

وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ
زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾

قعر هذا البحر لتستخرج الآلى العظيمة الرفيعة العالية منه . وعلم الوالد قطعاً أنه إذا غاص في البحر هلك وغرق ، فهذا الأب ان كان ناظراً في حقه مشفقاً عليه وجب عليه أن يمنعه من الغوص في قعر البحر ويقول له : اترك طلب تلك الآلى فانك لا تجدها وتهلك ، ولكن الأولى لك أن تكتفى بالرزق القليل مع السلامة ، فأما أن يأمره بالغوص في قعر البحر مع اليقين التام بأنه لا يستفيد منه إلا الهلاك فهذا يدل على عدم الرحمة وعلى السعى في الاهلاك فكذا ههنا والله أعلم .

واعلم أنه تعالى لما بين أنه لا قدرة لأحد على ازالة الكفر عنهم ختم الكلام بما يكمل معه تبصير الرسول عليه السلام ، وذلك أنه تعالى بين له قدر ماجعل اليه فذكر أنه تعالى ماجعله عليهم حفيظاً ولا وكيلاً على سبيل المنع لهم ، وإنما فوض اليه البلاغ بالأمر والنهي في العمل والعلم وفي البيان بذكر الدلائل والتنبية عليها فان انقادوا للمقبول فنفعه عائد اليهم ، وإلا فضرره عائد عليهم وعلى التقديرين فلا يخرج صلى الله عليه وسلم من الرسالة والنبوة والتبليغ .

قوله تعالى ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم كذلك زيناً لكل

أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون﴾

اعلم أن هذا الكلام أيضاً متعلق بقولهم للرسول عليه السلام : إنما جمعت هذا القرآن من مدارس الناس ومذاكرتهم ، فإنه لا يبعد أن بعض المسلمين إذا سمعوا ذلك الكلام من الكفار غضبوا وشتموا آلهتهم على سبيل المعارضة ، فنهى الله تعالى عن هذا العمل ، لأنك متى شتمت آلهتهم غضبوا فربما ذكروا الله تعالى بما لا ينبغي من القول ، فلأجل الاحتراز عن هذا المحذور وجب الاحتراز عن ذلك المقال . وبالجملة فهو تنبيه على أن خصمك إذا شافهك بجهل وسفاهة لم يجز لك أن تقدم على مشافهته بما يجرى مجرى كلامه فان ذلك يوجب فتح باب المشامة والسفاهة وذلك لا يليق بالعقلاء ، وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ ذكروا في سبب نزول الآية وجوها : الأول : قال ابن عباس : لما نزل (إنكم

وماتعبدون من دون الله حسب جهنم) قال المشركون : لئن لم تنته عن سب آلهتنا وشتمها لنهجون إهلك فنزلت هذه الآية أقول : لى ههنا إشكالان : الأول : أن الناس اتفقوا على أن هذه السورة نزلت دفعة واحدة فكيف يمكن أن يقال : إن سبب نزول هذه الآية كذا وكذا . الثاني : أن

الكفار كانوا مقرين بالاله تعالى وكانوا يقولون : إنما حسنت عبادة الأصنام لتصير شفعا لهم عند الله تعالى ، وإذا كان كذلك ، فكيف يعقل إقدامهم على شتم الله تعالى وسبه .

(والقول الثاني) في سبب نزول هذه الآية . قال السدي : لما قربت وفاة أبي طالب قالت قریش : ندخل عليه ونطلب منه أن ينهى ابن أخيه عنا فانا نستحي أن نقتله بعد موته فتقول العرب : كان يمنعه فلما مات قتلوه . فانطلق أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحرث مع جماعة اليه وقالوا له : أنت كبيرنا وخاطبوه بما أرادوا . فدعا محمدا عليه الصلاة والسلام وقال : هؤلاء قومك وبنو عمك يطلبون منك أن تتركهم على دينهم ، وأن يتركوك عن دينك فقال عليه الصلاة والسلام «قولوا لا إله إلا الله» فأبوا فقال أبو طالب : قل غير هذه الكلمة فان قومك يكرهونها . فقال عليه الصلاة والسلام «ما أنا بالذي أقول غيرها حتى تأتونني بالشمس فتضعوها في يدي فقالوا له اترك شتم آلهتنا وإلا شتمناك . ومن يأمرك بذلك فذلك قوله تعالى (فيسبوا الله عدوا بغير علم)

واعلم أنا قد دللنا على أن القوم كانوا مقرين بوجود الاله تعالى فاستحال إقدامهم على شتم الاله بل ههنا احتمالات : أحدها : أنه ربما كان بعضهم قائلًا بالدهر ونفى الصانع فما كان يبالي بهذا النوع من السفاهة . وثانيها : أن الصحابة متى شتموا الأصنام فهم كانوا يشتمون الرسول عليه الصلاة والسلام فالله تعالى أجرى شتم الرسول مجرى شتم الله تعالى كما في قوله (ان الذين يباعدونك إنما يباعدون الله) وكقوله (ان الذين يؤذون الله) وثالثها : أنه ربما كان في جهالهم من كان يعتقد أن شيطانًا يحمله على ادعاء النبوة والرسالة . ثم إنه لجهله كان يسمى ذلك الشيطان بأنه إله محمد عليه الصلاة والسلام فكان يشتم إله محمد بناء على هذا التأويل .

(المسألة الثانية) لقائل أن يقول : إن شتم الأصنام من أصول الطاعات ، فكيف يحسن من الله تعالى أن ينهى عنها .

والجواب : أن هذا الشتم ، وإن كان طاعة . إلا أنه إذا وقع على وجه يستلزم وجود منكر عظيم ، وجب الاحتراز منه ، والأمر ههنا كذلك ، لأن هذا الشتم كان يستلزم إقدامهم على شتم الله وشتم رسوله ، وعلى فتح باب السفاهة ، وعلى تنفيرهم عن قبول الدين ، وإدخال الغيظ والغضب في قلوبهم ، فلكونه مستلزما لهذه المنكرات ، وقع النهي عنه .

(المسألة الثالثة) قرأ الحسن (فيسبوا الله عدوا) بضم العين وتشديد الواو ، ويقال : عدا فلان عدوا وعدوا وعدوانا وعدا . أى ظلم ظلما جاوز القدر . قال الزجاج : وعدوا منصوب على المصدر . لأن المعنى فعدوا وعدوا . قال : ويجوز أن يكون بارادة اللام ، والمعنى : فينسبوا الله للظلم .

﴿المسألة الرابعة﴾ قال الجبائي : دلت هذه الآية على أنه لا يجوز أن يفعل بالكفر ما يزدادون به بعدا عن الحق ونفورا . إذ لو جاز أن يفعله لجاز أن يأمر به ، وكان لا ينهى عما ذكرنا . وكان لأيا أمر بالرفق بهم عند الدعاء . كقوله لموسى وهرون (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) وذلك يبين بطلان مذهب المجبرة .

﴿المسألة الخامسة﴾ قالوا هذه الآية تدل على أن الأمر بالمعروف قد يقبح إذا أدى إلى ارتكاب منكر ، والنهي عن المنكر يقبح إذا أدى إلى زيادة منكر ، وغلبة الظن قائمة مقام العلم في هذا الباب وفيه تأديب لمن يدعو إلى الدين . لئلا يتشاغل بما لا فائدة له في المطلوب ، لأن وصف الأوثان بانها جمادات لا تنفع ولا تضر يكفي في القدح في إلهيتها ، فلا حاجة مع ذلك إلى شتمها .

وأما قوله تعالى ﴿كذلك زينا لكل أمة عملهم﴾ فاحتج أصحابنا بهذا على أنه تعالى هو الذي زين للكافر الكفر ، وللمؤمن الإيمان . وللعاصي المعصية . وللطبع الطاعة . قال الكعبي : حمل الآية على هذا المعنى محال . لأنه تعالى هو الذي يقول (الشیطان سول لهم) ويقول (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) ثم إن القوم ذكروا في الجواب وجوها : الأول : قال الجبائي : المراد زينا لكل أمة تقدمت ما أمرناهم به من قبول الحق والكعبى أيضا ذكر عين هذا الجواب فقال : المراد أنه تعالى زين لهم ما ينبغي أن يعملوا وهم لا ينتهون . الثانى : قال آخرون : المراد زينا لكل أمة من أمة الكفر سوء عملهم ، أى خيلناهم وشأنهم وأمهلتناهم حتى حسن عندهم سوء عملهم . والثالث : أمهلتنا الشيطان حتى زين لهم ، والرابع : زيناه في زعمهم وقولهم : إن الله أمرنا بهذا وزينه لنا هذا مجموع التأويلات المذكورة في هذه الآية . والكل ضعيف وذلك لأن الدليل العقلى القاطع دل على صحة ما أشعر به ظاهر هذا النص . وذلك لانا بينا غير مرة أن صدور الفعل عن العبد يتوقف على حصول الداعى . وبيننا أن تلك الداعية لا بد وأن تكون بخلق الله تعالى ، ولا معنى لتلك الداعية الا علمه واعتقاده أو ظنه باشتغال ذلك الفعل على نفع زائد ، ومصالحة راجحة ، وإذا كانت تلك الداعية حصلت بفعل الله تعالى . وتلك الداعية لا معنى لها إلا كونه معتقدا لاشتغال ذلك الفعل على النفع الزائد ، والمصلحة الراجحة .

ثبت أنه يمتنع أن يصدر عن العبد فعل ، ولا قول ولا حركة ولا سكون . إلا إذا زين الله تعالى ذلك الفعل فى قلبه وضميره واعتقاده . وأيضا الانسان لا يختار الكفر والجهل ابتداء مع العلم بكونه كفرا وجهلا . والعلم بذلك ضرورى بل إنما يختاره لا اعتقاده كونه إيمانا وعلمنا وصدقا وحقا فلولا سابقة الجهل الأول لما اختار هذا الجهل . الثانى : ثم انا ننقل الكلام إلى أنه لم يختار ذلك

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ
عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَيُؤْمِنُونَ «١٠٩»

الجهل السابق، فان كان ذلك لسابقة جهل آخر فقد لزم أن يستمر ذلك إلى ما لا نهاية له من الجهالات وذلك محال ، ولما كان ذلك باطلا وجب انتهاء تلك الجهالات إلى جهل أول يخلقه الله تعالى فيه ابتداء . وهو بسبب ذلك الجهل ظن في الكفر كونه ايمانا وحقاوعلمها وصدقا ، فثبت انه يستحيل من الكافر اختيار الجهل والكفر إلا إذا زين الله تعالى ذلك الجهل في قلبه ، فثبت بهذين البرهانين القاطعين القطعيين أن الذي يدل عليه ظاهر هذه الآية هو الحق الذي لا محيد عنه ، وإذا كان الأمر كذلك ، فقد بطلت التأويلان المذكورة بأسرها ، لأن المصير إلى التأويل إنما يكون عند تعذر حمل الكلام على ظاهره . أما لما قام الدليل على أنه لا يمكن العدول عن الظاهر ، فقد سقطت هذه التكليفات بأسرها والله أعلم . وأيضاً فقوله تعالى (كذلك زيننا لكل أمة عملهم) بعد قوله (فديسبوا الله عدوا بغير علم) مشعر بأن إقدامهم على ذلك المنكر إنما كان بتزيين الله تعالى . فاما أن يحمل ذلك على أنه تعالى زين الأعمال الصالحة في قلوب الأمم ، فهذا كلام منقطع عما قبله ، وأيضاً فقوله (كذلك زيننا لكل أمة عملهم) يتناول الأمم الكافرة والمؤمنة ، فتخصيص هذا الكلام بالأمة المؤمنة ترك لظاهر العموم ، وأما سائر التأويلات ، فقد ذكرها صاحب الكشاف : وسقوطها لا يخفى ، والله أعلم .

أما قوله تعالى ﴿ ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون ﴾ فالمقصود منه أن أمرهم مفوض إلى الله تعالى ، وأن الله تعالى عالم بأحوالهم . مطلع على ضمائرهم . ورجوعهم يوم القيامة إلى الله فيجازى كل أحد بمقتضى عمله إن خيرا نخير . وإن شرا فشر .

قوله تعالى ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾

اعلم أنه تعالى حكى عن الكفار شبهة توجب الطعن في نبوته ، وهى قولهم ان هذا القرآن إنما جئتنا به لانك تدارس العلماء ، وتباحث الأقسام الذين عرفوا التوراة والانجيل . ثم تجمع هذه السور وهذه الآيات بهذا الطريق . ثم إنه تعالى أجاب عن هذه الشبهة بمسابق ، وهذه الآية مشتملة على شبهة أخرى وهى قولهم له إن هذا القرآن كيفما كان أمره ، فليس من جنس المعجزات البتة ، ولو

أنك يا محمد جئنا بمعجزة قاهرة وبينه ظاهرة لآمنابك ، وحلفوا على ذلك وبالغوا في تأكيد ذلك الحلف ، فالمقصود من هذه الآية تقرير هذه الشبهة . وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال الواحدى . إنما سمي اليمين بالقسم لأن اليمين موضوعة لتوكيد الخبر الذى يخبر به الانسان : إما مثبتاً للشيء ، وإما نافياً . ولما كان الخبر يدخله الصدق والكذب احتاج المخبر إلى طريق به يتوسل إلى ترجيح جانب الصدق على جانب الكذب ، وذلك هو الحلف ولما كانت الحاجة إلى ذكر الحلف ، إنما تحصل عند انقسام الناس عند سماع ذلك الخبر إلى مصدق به ومكذب به . سمو الحلف بالقسم ، وبنوا تلك الصيغة على - أفعل - فقالوا . أقسم فلان يقسم إقساماً : وأرادوا أنه أكد القسم الذى اختاره وأحال الصدق إلى القسم الذى اختاره بواسطة الحلف واليمين .

﴿المسألة الثانية﴾ ذكروا فى سبب النزول وجوها : الأول : قالوا لما نزل قوله تعالى (إن نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) أقسم المشركون بالله لئن جاءهم آية ليؤمنن بها فنزلت هذه الآية . الثانى : قال محمد بن كعب القرظى : إن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم تخبرنا أن موسى ضرب الحجر بالعصا فانفجر الماء . وأن عيسى أحيا الميت ، وأن صالحاً أخرج الناقة من الجبل ، فأتنا أيضاً أنت بآية لئصدقك فقال عليه الصلاة والسلام «ما الذى تحبون» فقالوا أن تجعل لنا الصفا ذهباً . وحلفوا لئن فعل ليتبعونه أجمعون . فقام عليه الصلاة والسلام يدعو . فجاءه جبريل عليه السلام فقال إن شئت كان ذلك . ولئن كان فلم يصدقوا عنده ، ليعذبنهم ، وإن تركوا تاب على بعضهم . فقال صلى الله عليه وسلم «بل يتوب على بعضهم» فأنزل الله تعالى هذه الآية

﴿المسألة الثالثة﴾ ذكروا فى تفسير قوله (جهد أيمانهم) وجوها : قال السكبي ومقاتل : إذا حلف الرجل بالله فهو جهديمنه . وقال الزجاج : بالغوا فى الايمان وقوله (لئن جاءهم آية) اختلفوا فى المراد بهذه الآية . فقيل : ماروينا من جعل الصفا ذهباً . وقيل : هى الأشياء المذكورة فى قوله تعالى (وقالوا لن تؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً) وقيل : إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخبرهم بأن عذاب الاستئصال كان ينزل بالأمم المتقدمين الذين كذبوا أنبياءهم فالمشركون طلبوا مثلها .

وقوله ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾ ذكروا فى تفسير لفظه (عند) وجوها . فيجتملى أن يكون المعنى أنه تعالى هو المختص بالقدرة على أمثال هذه الآيات دون غيره لأن المعجزات الدالة على النبوات شرطها أن لا يقدر على تحصيلها أحد إلا الله سبحانه وتعالى : ويحتمل أن يكون المراد

بالعندية أن العلم بأن إحداث هذه المعجزات هل يقتضى إقدام هؤلاء الكفار على الإيمان أم لا ليس إلا عند الله؟ ولفظ العندية بهذا المعنى كما في قوله (وعنده مفاتيح الغيب) ويحتمل أن يكون المراد أنها وإن كانت في الحال معدومة: إلا أنه تعالى متى شاء إحداثها أحدثها، فهي جارية مجرى الأشياء الموضوعة عند الله يظهرها متى شاء، وليس لكم أن تتحكموا في طلبها ولفظ (عند) بهذا المعنى هنا كما في قوله (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه).

ثم قال تعالى ﴿وما يشعركم﴾ قال أبو علي «ما» استفهام وفاعل يشعركم ضمير «ما» والمعنى: وما يدريك إيمانهم؟ حذف المفعول، وحذف المفعول كثير. والتقدير: وما يدريك إيمانهم، أى بتقدير أن تجيئهم هذه الآيات فهم لا يؤمنون. وقوله (أها إذا جاءت لا يؤمنون) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (إنها) بكسر الهمزة على الاستئناف وهى القراءة الجيدة. والتقدير: أن الكلام تم عند قوله (وما يشعركم) أى وما يشعركم ما يكون منهم ثم ابتداء فقال (أها إذا جاءت لا يؤمنون) قال سيبويه: سألت الخليل عن القراءة بفتح الهمزة فى أن وقلت لم لا يجوز أن يكون التقدير ما يدريك أنه لا يفعل؟ فقال الخليل: إنه لا يحسن ذلك ههنا لأنه لو قال (وما يشعركم أنها) بالفتح لصار ذلك عذراً لهم، هذا كلام الخليل. وتفسيره إنما يظهر بالمثال فإذا اتخذت ضيافة وطلبت من رئيس البلد أن يحضر فلم يحضر، فقل لك لو ذهبت أنت بنفسك إليه لحضر، فإذا قلت وما يشعركم أنى لو ذهبت إليه لحضر كان المعنى: أنى لو ذهبت إليه بنفسى فانه لا يحضر أيضاً فكذا ههنا قوله (وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون) معناه أنها إذا جاءت آمنوا. وذلك يوجب مجيء هذه الآيات ويصير هذا الكلام عذراً للكفار فى طلب تلك الآيات، والمقصود من الآية دفع حجتهم فى طلب الآيات، فهذا تقرير كلام الخليل وقرأ الباقر من القراء (أها) بالفتح وفى تفسيره وجوه: الأول: قال الخليل (أن) بمعنى لعل تقول العرب أنت السوق أنك تشتري لنا شيئاً أى لعلك، فكأنه تعالى قال لعلها إذا جاءت لا يؤمنون قال الواحدي (أن) بمعنى لعل كثير فى كلامهم قال الشاعر:

أرى جواداً مات هو لا لأنى أرى ماترينى أو بخيلاً مخلداً

وقال آخر هل آتم عاجلون بنا لأنا نرى العرصات أو أثر الخيام

وقال عدى بن حاتم:

أعاذل ما يدريك أن منيتى إلى ساعة فى اليوم أو فى ضحى الغد

وقال الواحدي: وفسر على - لعل منيتى - روى صاحب الكشاف أيضاً فى هذا المعنى

قول امرئ القيس:

عوجا على الظلل المحيل لأننا نبكى الديار كما بكى ابن خذام

قال صاحب الكشاف ويقوى هذا الوجه قراءة أبي (لعلها إذا جاءت به لا يؤمنون) (الوجه الثاني) في هذه القراءة أن تجعل (لا) صلة ومثله (مامنعك أن لا تسجد) معناه أن تسجد وكذلك قوله (وحرام على قرية أهلكتناها أنهم لا يرجعون) أي يرجعون فكذا ههنا التقدير وما يشعركم أنها إذا جاءت يؤمنون والمعنى : أنها لو جاءت لم يؤمنوا قال الزجاج . وهذا الوجه ضعيف لأن ما كان لغواً يكون لغواً على جميع التقديرات ومن قرأ (إنها) بالكسر فكلمة (لا) في هذه القراءة ليست بلغو فثبت أنه لا يجوز جعل هذا اللفظ لغواً. قال أبو علي الفارسي : لم لا يجوز أن يكون لغواً على أحد التقديرين ويكون مفيداً على التقدير الثاني ؟ واختلاف القراء أيضاً في قوله (لا يؤمنون) فقرأ بعضهم بالياء وهو الوجه لأرب قوله (وأقسموا بالله) إنما يراد به قوم مخصوصون . والدليل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة) وليس كل الناس بهذا الوصف ، والمعنى وما يشعركم أيها المؤمنون لعلمهم إذا جاءتهم الآية التي اقترحوها لم يؤمنوا فالوجه الياء وقرأ حمزة وابن عامر بالتاء وهو على الانصراف من الغيبة إلى الخطاب . والمراد بالخطابين في (تؤمنون) هم الغائبون المقسمون الذين أخبر الله عنهم أنهم لا يؤمنون ، وذهب مجاهد وابن زيد إلى أن الخطاب في قوله (وما يشعركم) للكفار الذين أقسموا . قال مجاهد وما يدريكم أنكم تؤمنون إذا جاءت ، وهذا يقوى قراءة من قرأ (تؤمنون) بالتاء . على ما ذكرنا أولاً : الخطاب في قوله (وما يشعركم) للكفار الذين أقسموا . وعلى ما ذكرنا ثانياً : الخطاب في قوله (وما يشعركم) للمؤمنين ، وذلك لأنهم تمنوا نزول الآية ليؤمن المشركون وهو الوجه كأنه قيل للمؤمنين تتمنون ذلك وما يدريكم أنهم يؤمنون ؟

(المسألة الرابعة) حاصل الكلام أن القوم طلبوا من الرسول معجزات قوية وحلفوا أنها لو ظهرت لآمنوا ، فبين الله تعالى أنهم وإن حلفوا على ذلك ، إلا أنه تعالى عالم بأنها لو ظهرت لم يؤمنوا ، وإذا كان الأمر كذلك لم يجب في الحكمة إيجابهم إلى هذا المطلوب . قال الجبائي والقاضي : هذه الآية تدل على أحكام كثيرة متعلقة بنصرة الاعتزال .

الحكم الأول

أنها تدل على أنه لو كان في المعلوم لطف يؤمنون عنده لفعله لا محالة . إذ لو جاز أن لا يفعله لم يكن لهذا الجواب فائدة ، لأنه إذا كان تعالى لا يجيبهم إلى مطلوبهم سواء أمروا أو لم يؤمنوا لم يكن تعليق ترك الاجابة بأنهم لا يؤمنون عنده منتظماً مستقيماً ، فهذه الآية تدل على أنه تعالى يجب عليه أن يفعل كل ما هو في مقدوره من الاطاف والحكمة .

وَنَقْلِبَ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ
يَعْمَهُونَ «١١٠»

الحكم الثاني

أن هذا الكلام إنما يستقيم لو كان لظهار هذه المعجزات أثر في حملهم على الإيمان ، وعلى قول المجبرة ذلك باطل . لأن عندهم الإيمان إنما يحصل بخلق الله تعالى ، فإذا خلقه حصل ، وإذا لم يخلقه لم يحصل . فلم يكن لفعل اللطاف أثر في حمل المكلف على الطاعات . وأقول هذا الذي قاله القاضى غير لازم . أما الأول : فلأن القوم قالوا : لو جئتنا يا محمد بآية لآمنَّا بك . فهذا الكلام فى الحقيقة مشتمل على مقدمتين : إحداهما : أنك لو جئتنا بهذه المعجزات لآمنَّا بك . والثانية . أنه متى كان الأمر كذلك وجب عليك أن تأتينا بها ، والله تعالى كذبهم فى المقام الأول ، وبين أنه تعالى وإن أظهرها لهم فهم لا يؤمنون ، ولم يتعرض البتة للمقام الثانى ، ولكنته فى الحقيقة باق .

فان لقائل أن يقول : هب أنهم لا يؤمنون عند إظهار تلك المعجزات ، فلم يجب على الله تعالى إظهارها ؟ اللهم إلا اذا ثبت قبل هذا البحث أن اللطف واجب على الله تعالى ، فحينئذ يحصل هذا المطلوب من هذه الآية ، إلا أن القاضى جعل هذه الآية دليلا على وجوب اللطف ، فثبت أن كلامه ضعيف .

﴿وأما البحث الثانى﴾ وهو قوله : اذا كان الكل بخلق الله تعالى لم يكن لهذه اللطاف أثر فيه ، فنقول : الذى نقول به أن المؤثر فى الفعل هو مجموع القدرة مع الداعى والعلم بحصول هذا اللطف أحد أجزاء الداعى وعلى هذا التقدير . فيكون لهذا اللطف أثر فى حصول الفعل .

قوله تعالى ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهُون﴾ هذا أيضا من الآيات الدالة على قولنا : إن الكفر والإيمان بقضاء الله وقدره ، والتقلب والقلب واحد ، وهو تحويل الشئ عن وجهه ، ومعنى تقليب الأفئدة والأبصار : هو أنه اذا جاءتهم الآيات القاهرة التى اقترحوها وعرفوا كيفية دلالتها على صدق الرسول ، إلا أنه تعالى إذا قلب قلوبهم وأبصارهم عن ذلك الوجه الصحيح بقوا على الكفر ولم ينتفعوا بتلك الآيات ، والمقصود من هذه الآية تقرير ما ذكرناه فى الآية الأولى من أن تلك الآيات القاهرة لو جاءتهم لما آمنوا بها ولما اتنعوا بظهورها البتة .

أجاب الجبائي عنه بأن قال: المراد ونقلب أفئدتهم وأبصارهم في جهنم على لهب النار وجرها لتعذبهم كما لم يؤمنوا به أول مرة في دار الدنيا.

وأجاب الكعبي عنه: بأن المراد من قوله (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) بأننا لا نفعل بهم ما نفعله بالمؤمنين من الفوائد والالطاف من حيث أخرجوا أنفسهم عن هذا الحد بسبب كفرهم.

وأجاب القاضي: بأن المراد ونقلب أفئدتهم وأبصارهم في الآيات التي قد ظهرت، فلا تجدهم يؤمنون بها آخرا كما لم يؤمنوا بها أولا.

واعلم أن كل هذه الوجود في غاية الضعف، وليس لأحد أن يعيبننا، فيقول: إنكم تكرر هذه الوجود في كل موضع، فإنا نقول: إن هؤلاء المعتزلة لهم وجود معدودة في تأويلات آيات الجزاء، فهم يكررونها في كل آية، فنحن أيضا نكرر الجواب عنها في كل آية. فنقول: قد بينا أن القدرة الأصلية صالحة للضدين وللطرفين على السوية. فإذا لم ينضم على تلك القدرة داعية مرجحة امتنع حصول الرجحان، فإذا انضمت الداعية المرجحة إما إلى جانب الفعل أو إلى جانب الترك ظهر الرجحان، وتلك الداعية ليست إلا من الله تعالى قطعاً للتسلسل. وقد ظهر صحة هذه المقدمات بالدلائل القاطعة اليقينية التي لا يشك فيها العاقل. وهذا هو المراد من قوله صلى الله عليه وسلم «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن يقبله كيف يشاء» فالقلب كالموقوف بين داعية الفعل وبين داعية الترك، فإن حصل في القلب داعي الفعل ترجح جانب الفعل، وإن حصل فيه داعي الترك ترجح جانب الترك. وهاتان الداعيتان لما كانتا لا تحصلان إلا بإيجاد الله وتخليقه وتكوينه، عبر عنهما بأصبعي الرحمن، والسبب في حسن هذه الاستعارة أن الشيء الذي يحصل بين أصبعي الإنسان يكون كامل القدرة عليه. فإن شاء أمسكه وإن شاء أسقطه. فهنا أيضا كذلك القلب واقف بين هاتين الداعيتين، وهاتان الداعيتان حاصلتان بخلق الله تعالى، والقلب مسخر لهاتين الداعيتين، فلهذا السبب حسنت هذه الاستعارة. وكان عليه الصلاة والسلام يقول «يامقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك» والمراد من قوله - مقلب القلوب - أن الله تعالى يقبله تارة من داعي الخير إلى داعي الشر وبالعكس.

إذا عرفت هذه القاعدة فقوله تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) محمول على هذا المعنى الظاهر الجلي الذي يشهد بصحته كل طبع سليم وعقل مستقيم. فلا حاجة البتة إلى ما ذكره من التأويلات المستكرهة. وإنما قدم الله تعالى ذكر تغليب الأفئدة على تغليب الأبصار، لأن موضع الدواعي والصوارف هو القلب. فإذا حصلت الداعية في القلب انصرف البصر إليه شاء أم أبى، وإذا حصلت الصوارف في القلب انصرف

البصر عنه ، فهو وان كان يبصره في الظاهر . إلا أنه لا يصير ذلك الأبصار سبباً للوقوف على الفوائد المطلوبة . وهذا هو المراد من قوله تعالى (وممنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً) فلما كان المعدن هو القلب ، وأما السمع والبصر فهما آلتان للقلب ، كانا لا محالة تابعين لأحوال القلب . فلهذا السبب وقع الابتداء بذكر قلب القلوب في هذه الآية : ثم أتبعه بذكر قلب البصر ، وفي الآية الأخرى وقع الابتداء بذكر تحصيل الكتمان في القلب ثم أتبعه بذكر السمع ، فهذا هو الكلام القوي العقلي البرهاني الذي ينطبق عليه لفظ القرآن ، فكيف يحسن مع ذلك حمل هذا اللفظ على التكلفات التي ذكرها ؟ ولنرجع إلى ما يليق بتلك الكلمات الضعيفة فنقول : أما الوجه الذي ذكره الجبائي فمدفوع لأن الله تعالى قال (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) ثم عطف عليه فقال (ونذرهم في طغيانهم يعمهون) ولا شك أن قوله (ونذرهم) إنما يحصل في الدنيا ، فلو قلنا : المراد من قوله (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) إنما يحصل في الآخرة ، كان هذا سواً للنظم في كلام الله تعالى حيث قدم المؤخر وأخر المقدم من غير فائدة ، وأما الوجه الذي ذكره الكعبي فضعيف أيضاً لأنه إنما استحق الحرمان من تلك الاطراف والفوائد بسبب إقدامه على الكفر ، فهو الذي أوقع نفسه في ذلك الحرمان والخذلان فكيف تحسن إضافته إلى الله تعالى في قوله تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم)

وأما الوجه الثاني الذي ذكره القاضي فبعيد أيضاً لأن المراد من قوله (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) قلب القلب من حالة إلى حالة ونقله من صفة إلى صفة . وعلى ما يقوله القاضي فليس الأمر كذلك بل القلب باقٍ على حالة واحدة إلا أنه تعالى أدخل التقلب والتبديل في الدلائل ، ثبت أن الوجوه التي ذكرها فاسدة باطلة بالكلية .

أما قوله تعالى ﴿ كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ فقال الواحدى فيه وجهان :

﴿ الوجه الأول ﴾ دخات الكاف على محذوف تقديره فلا يؤمنون بهذه الآيات كما لم يؤمنوا بظهور الآيات أول مرة أتتهم الآيات مثل انشقاق القمر وغيره من الآيات ، والتقدير فلا يؤمنون في المرة الثانية من ظهور الآيات كما لم يؤمنوا به في المرة الأولى ، وأما الكناية في (به) فيجوز أن تكون عائدة إلى القرآن أو إلى محمد عليه الصلاة والسلام . أو إلى ما طلبوا من الآيات .

﴿ الوجه الثاني ﴾ قال بعضهم : الكاف في قوله (كما لم يؤمنوا به) بمعنى الجزاء . ومعنى الآية ونقلب أفئدتهم وأبصارهم عقوبة لهم على تركهم الايمان في المرة الأولى ، يعنى كما لم يؤمنوا به أول مرة ، فكذلك نقلب أفئدتهم وأبصارهم في المرة الثانية ، وعلى هذا الوجه فليس في الآية محذوف ولا حاجة فيها إلى الاضمار .

وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا
مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ «١١١»

وأما قوله تعالى ﴿ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ فالجباى قال (ونذرهم) أى لانحول بينهم وبين اختيارهم ولا تمنعهم من ذلك بمعالجة الهلاك وغيره . لكننا نملهم فان أقاموا على طغيانهم فذلك من قبلهم . وهو يوجب تأكيد الحجة عليهم ، وقال أصحابنا : معناه إنا نقلب أفئدتهم من الحق إلى الباطل ونتركهم في ذلك الطغيان وفي ذلك الضلال والعمه .

ولقائل أن يقول للجباى : إنك تقول إن إله العالم ما أراد بعبده إلا الخير والرحمة . فلم ترك هذا المسكين حتى عمه في طغيانه ؟ ولم لا يخلصه عنه على سبيل الاجاء والقهر ؟ أقصى ما في الباب أنه إن فعل به ذلك لم يكن مستحقا للثواب فيفوته الاستحقاق فقط . ولكن يسلم من العقاب . أما إذا تركه في ذلك العمه مع علمه بأنه يموت عليه . فانه لا يحصل استحقاق الثواب . ويحصل له العقاب العظيم الدائم ، فالمفسدة الحاصلة عند خلق الايمان فيه على سبيل الاجاء مفسدة واحدة وهى فوت استحقاق الثواب ، أما المفسدة الحاصلة عند ابقائه على ذلك العمه والطغيان حتى يموت عليه فهى فوت استحقاق الثواب مع استحقاق العقاب الشديد ، والرحيم المحسن الناظر لعباده لا بد وأن يرجح الجانب الذى هو أكثر صلاحا وأقل فسادا . فعلمنا أن إبقاء ذلك الكافر في ذلك العمه والطغيان يقدر فى أنه لا يريد به إلا الخير والاحسان .

قوله تعالى ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون﴾

اعلم أنه تعالى بين في هذه الآية تفصيل ما ذكره على سبيل الاجمال بقوله (وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون) فبين أنه تعالى لو أعظاهم بما طلبوه من إنزال الملائكة وإحياء الموتى حتى كلموهم بل لو زاد فى ذلك ما لا يبلغه اقتراحهم بأن يحشر عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله . وفى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال ابن عباس : المستهزئون بالقرآن كانوا خمسة : الوليد بن المغيرة المخزومي والغاصى بن وائل السهمي ، والأسود بن عبد يغوث الزهري . والأسود بن المطلب ، والحارث بن حنظلة ، ثم انهم أتوا الرسول صلى الله عليه وسلم فى رهط من أهل مكة ، وقالوا له أرنا الملائكة

يشهدوا بأنك رسول الله أو ابعث لنا بعض موتانا حتى نسالهم أحق ما تقوله أم باطل ؟ أو اثنتا بالله والملائكة قبلا أى كفيلا على ما تدعيه ، فنزلت هذه الآية ، وقد ذكرنا مرارا أنهم لما انفقوا على أن هذه السورة نزلت دفعة واحدة كان القول بأن هذه الآية نزلت فى الواقعة العلانية مشكلا صعبا ، فأما على الوجه الذى قررناه وهو أن المقصود منه جواب ما ذكره بعضهم وهو أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم لو جاءتهم آية لآمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام ، فذكر الله تعالى هذا الكلام بيانا لكذبهم ، وانه لا فائدة فى إنزال الآيات بعد الآيات وإظهار المعجزات بعد المعجزات ، بل المعجزة الواحدة لا بد منها ليميز الصادق عن الكاذب ، فأما الزيادة عليها فتحكم محض ولا حاجة اليه وإلا فليهم أن يطلبوا بعد ظهور المعجزة الثانية ثالثة . وبعد الثالثة رابعة ، ويلزم أن لا تستقر الحجة وأن لا ينتهى الأمر إلى مقطع ومفصل ، وذلك يوجب سد باب النبوات .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ نافع وابن عامر (قبلا) ههنا وفى الكهف بكسر القاف وفتح الباء ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بالضم فيهما فى السورتين ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ههنا وفى الكهف بالكسر . قال الواحدي : قال أبو زيد يقال لقيت فلانا قبلا ومقابلة وقبلا وقبلا وقبلا كله واحد . وهو المواجهة . قال الواحدي : فعلى قول أبي زيد المعنى فى القراءتين واحد وان اختلف اللفظان ، ومن الناس من أثبت بين اللفظين تفاوتا فى المعنى ، فقال أما من قرأ (قبلا) بكسر القاف وفتح الباء ، فقال أبو عبيدة والفراء والزجاج : معناه عيانا ، يقال لقيته قبلا أى معاينة ، وروى عن أبي ذر قال : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم أ كان آدم نبيا ؟ قال « نعم كان نبيا كالمه الله تعالى قبلا » وأما من قرأ (قبلا) فله ثلاثة أوجه . أحدها : أن يكون جمع قبيل الذى يراد به الكفيل ، يقال قبلت بالرجل أقبل قبالة أى كقبلت به . ويكون المعنى لو حشر عليهم كل شىء وكفلوا بصحة ما يقول لما آمنوا ، وموضع الإعجاز فيه أن الاشياء المحشورة منها ما ينطق ومنها ما لا ينطق . فاذا أنطق الله الكل وأطبقوا على قبول هذه الكفالة كان ذلك من أعظم المعجزات . وثانيها : أن يكون (قبلا) جمع قبيل بمعنى الصنف والمعنى : وحشرنا عليهم كل شىء قبلا قبلا ، وموضع الإعجاز فيه هو حشرها بعد موتها ، ثم إنها على اختلاف طبائعها تكون مجتمعة فى موقف واحد . وثالثها : أن يكون (قبلا) بمعنى قبلا أى مواجهة ومعاينة كما فسره أبو زيد .

أما قوله تعالى ﴿ ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ﴾ ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المراد من الآية أنه تعالى لو أظهر جميع تلك الاشياء العجيبة الغريبة لهؤلاء الكفار فانهم لا يؤمنون إلا أن يشاء الله إيمانهم . قال أصحابنا : فلما لم يؤمنوا دل ذلك الدليل على

أنه تعالى ماشاء منهم الايمان ، وهذا نص في المسألة . قالت المعتزلة : دل الدليل على أنه تعالى أراد الايمان من جميع الكفار . والجبايئ ذكر الوجود المشهورة التي لهم في هذه المسألة . أولها : أنه تعالى لو لم يرد منهم الايمان لما وجب عليهم الايمان كما لو لم يأمرهم لم يجب عليهم . وثانيها : لو أراد الكفر من الكافر لكان الكافر مطيعا لله بفعل الكفر . لأنه لا معنى للطاعة إلا بفعل المراد . وثالثها : لو جاز من الله أن يريد الكفر لجاز أن يأمر به ، ورابعها : لو جاز أن يريد منهم الكفر لجاز أنه يأمرنا بأن نريد منهم الكفر . قالوا : فثبت بهذه الدلائل أنه تعالى ماشاء إلا الايمان منهم وظاهر هذه الآية يقتضى أنه تعالى ماشاء الايمان منهم . والتناقض بين الدلائل تمتنع فوجب التوفيق ، وطريقه أن نقول إنه تعالى شاء من الكل الايمان الذى يفعلونه على سبيل الاختيار وانه تعالى ماشاء منهم الايمان الحاصل على سبيل الاجاء والقهر وبهذا الطريق زال الاشكال

واعلم أن هذا الكلام أيضا ضعيف من وجوه : الأول : أن الايمان الذى سموه بالايمان الاختيارى إن عنوا به أن قدرته صالحة للايمان والكفر على السوية ، ثم إنه يصدر عنها الايمان دون الكفر لا لداعية مرجحة ولا لأرادة مميزة . فهذا قول برجحان أحد طرفي الممكن على الآخر لا مرجح وهو محال ، وأيضا فبتقدير أن يكون ذلك معقولا في الجملة إلا أن حصول ذلك الايمان لا يكون منه ، بل يكون حادثا لا لسبب ولا مؤثر أصلا لأن الحاصل هناك ليس إلا القدرة وهى بالنسبة إلى الضدين على السوية . ولم يصدر من هذا القدر تخصيص لأحد الطرفين على الآخر بالوقوع والرجحان ، ثم إن أحد الطرفين قد حصل بنفسه فهذا لا يكون صادرا منه بل يكون صادرا لاعن سبب البتة ، وذلك يبطل القول بالفعل والفاعل والتأثير والمؤثر أصلا . ولا يقوله عاقل ، وإما أن يكون هذا الذى سموه بالايمان الاختيارى هو أن قدرته وإن كانت صالحة للضدين إلا أنها لا تصير مصدرا للايمان إلا إذا انضم إلى تلك القدرة حصول داعية الايمان كان هذا قولا بأن مصدر الايمان هو مجموع القدرة مع الداعى ، وذلك المجموع موجب للايمان ، فذلك هو عين ما يسمونه بالجبر وأنتم تنكرونه . فثبت أن هذا الذى سموه بالايمان الاختيارى لم يحصل منه معنى معقول مفهوم ، وقد عرفت أن هذا الكلام في غاية القوة .

﴿والوجه الثانى﴾ سلمنا أن الايمان الاختيارى يميز عن الايمان الحاصل بتكوين الله تعالى لإلأنا نقول قوله تعالى (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة) وكذا وكذا ما كانوا يؤمنوا ، معناه : ما كانوا ليؤمنوا إيمانا اختياريا بدليل أن عند ظهور هذه الاشياء لا يبعد أن يؤمنوا إيمانا على سبيل الاجاء والقهر . فثبت أن قوله (ما كانوا ليؤمنوا) المراد : ما كانوا ليؤمنوا على سبيل الاختيار . ثم استثنى

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحى
بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ
وَمَا يَفْقَهُونَ «١١٢»

عنه فقال (إلا أن يشاء الله) والمستثنى يجب أن يكون من جنس المستثنى عنه . والايان الحاصل
بالالغاء والقهر ليس من جنس الايمان الاختيارى . فثبت أنه لا يجوز أن يقال المراد بقولنا إلا أن
يشاء الله . الايمان الاضطرارى بل يجب أن يكون المراد منه الايمان الاختيارى . وحينئذ يتوجه
دليل أصحابنا ويسقط عنه سؤال المعتزلة بالكلية .

﴿المسألة الثانية﴾ قال الجبائى قوله تعالى (الا أن يشاء الله) يدل على حدوث مشيئة الله تعالى ،
لانها لو كانت قديمة لم يجز أن يقال ذلك ، كما لا يقال لا يذهب زيد الى البصرة إلا أن يوحد الله تعالى ،
وتقريره . أنا اذا قلنا : لا يكون كذلك إلا أن يشاء الله فهذا يقتضى تعليق حدوث هذا الجزاء على
حصول المشيئة فلو كانت المشيئة قديمة لكان الشرط قديما . ويلزم من حصول الشرط حصول
المشروط ، فيلزم كون الجزاء قديما . والحس دل على أنه محدث فوجب كون الشرط حادثا ، و اذا
كان الشرط هو المشيئة لزم القول بكون المشيئة حادثه . هذا تقرير هذا الكلام .

والجواب : أن المشيئة وإن كانت قديمة إلا أن تعلقها باحداث ذلك المحدث فى الحال إضافة
حادثه وهذا القدر يكفى لصحة هذا الكلام ، ثم أنه تعالى ختم هذه الآية بقوله (ولكن أكثرهم
يجهلون) قال أصحابنا : المراد ، يجهلون بأن الكل من الله وبقضائه وقدره . وقالت المعتزلة : المراد ، أنهم
جهلوا أنهم يبقون كفارا عند ظهور الآيات التى طابوها والمعجزات التى اقترحوها وكان أكثرهم
يظنون ذلك .

قوله تعالى ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحى بعضهم إلى بعض
زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون﴾
فى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قوله (وكذلك) منسوق على شىء وفى تعيين ذلك الشىء قولان : الأول :
أنه منسوق على قوله (وكذلك زينا لكل أمة عملهم) أى كما فعلنا ذلك (كذلك جعلنا لكل نبي
عدوا) الثانى : معناه : جعلنا لك عدوا كما جعلنا لمن قبلك من الانبياء فيكون قوله (كذلك) عطفا

على معنى ما تقدم من الكلام، لأن ما تقدم يدل على أنه تعالى جعل له أعداء .
 ﴿المسألة الثانية﴾ ظاهر قوله تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا) أنه تعالى هو الذي جعل أولئك الأعداء أعداء للنبي صلى الله عليه وسلم ، ولا شك أن تلك العداوة معصية وكفر . فهذا يقتضى أن خالق الخير والشر والطاعة والمعصية والايمان والكفر هو الله تعالى ، أوجب الجبائى عنه : بأن المراد بهذا الجعل الحكم والبيان، فان الرجل إذا حكم بكفر إنسان قيل : أنه كفره . وإذا أخبر عن عدالته قيل : أنه عدله ، فكذا ههنا أنه تعالى لما بين للرسول عليه الصلاة والسلام كونهم أعداء له لا جرم قال إنه جعلهم أعداء له . وأجاب أبو بكر الاصم عنه : بأنه تعالى لما أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم الى العالمين وخصه بتلك المعجزة حسدوه . وصار ذلك الحسد سببا للعداوة القوية ، فلهذا التأويل قال إنه تعالى جعلهم أعداء له ونظيره قول المتنبي :

فأنت الذى صيرتهم لى حسدا

وأجاب السكعي عنه: بأنه تعالى أمر الأنبياء بعدواتهم وأعلمهم كونهم أعداء لهم ، وذلك يقتضى صيرورتهم أعداء للأنبياء، لأن العداوة لا تحصل إلا من الجانبين . فلهذا الوجه جاز أن يقال إنه تعالى جعلهم أعداء للأنبياء عليهم السلام
 واعلم أن هذه الأجوبة ضعيفة جدا لما بينا أن الأفعال مستندة إلى الدواعى ، وهى حادثة من قبل الله تعالى ، ومتى كان الأمر كذلك . فقد صح مذهبنا .

ثم ههنا بحث آخر : وهو أن العداوة والصداقة يمتنع أن تحصل باختبار الانسان ، فان الرجل قد يبلغ فى عداوة غيره إلى حيث لا يقدر البتة على إزالة تلك الحالة عن قلبه ، بل قد لا يقدر على إخفاء آثار تلك العداوة ، ولو أتى بكل تكلف وحيلة لعجز عنه ، ولو كان حصول العداوة والصداقة فى القلب باختبار الانسان لوجب أن يكبرن الانسان متمكينا من قلب العداوة بالصداقة وبالضد وكيف لانقول ذلك والشعراء عرفوا أن ذلك خارج عن الوسع ؟ قال المتنبي :

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

والعاشق الذى يشد عشقه قد يحتمل بجميع الحيل فى إزالة عشقه ولا يقدر عليه ، ولو كان حصول ذلك الحب والبغض باختياره لما عجز عن إزالته .

﴿المسألة الثالثة﴾ النصب فى قوله (شياطين) فيه وجهان : الأول : انه منصوب على البدل من قوله (عدوا) والثانى : أن يكون قوله (عدوا) منصوبا على أنه مفعول ثان ، والتقدير : وكذلك جعلنا شياطين الانس والجن أعداء الأنبياء .

﴿المسألة الرابعة﴾ اختلفوا في معنى شياطين الانس والجن على قولين : الأول : أن المعنى مردة الانس والجن ، والشيطان : كل عات متمرده من الانس والجن ، وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء ومجاهد والحسن وقتادة وهؤلاء . قالوا : إن من الجن شياطين ، ومن الأانس شياطين ، وإن الشيطان من الجن إذا أعياه المؤمن ذهب إلى متمرده من الانس . وهو شيطان الانس فأغراه بالمؤمن ليفتنه ، والدليل عليه ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبي ذر «هل تعودت بالله من شر شياطين الجن والانس؟ قال قلت ، وهل للانس من شياطين؟ قال «نعم هم شر من شياطين الجن»

﴿والقول الثاني﴾ أن الجميع من ولد إبليس إلا أنه جعل ولده قسمين ، فأرسل أحد القسمين إلى وسوسة الانس . والقسم الثاني إلى وسوسة الجن . فالفريقان شياطين الانس والجن ، ومن الناس من قال : القول الأول أولى . لأن المقصود من الآية الشكاية من سفاهة الكفار الذين هم الأعداء وهم الشياطين ، ومنهم من يقول : القول الثاني أولى ، لأن لفظ الآية يقتضى اضافة الشياطين إلى الانس والجن . والاضافة تقتضى المغايرة ، وعلى هذا التقدير : فالشياطين نوع مغاير للجن وهم أولاد إبليس .

﴿المسألة الخامسة﴾ قال الزجاج وابن الانباري : قوله (عدوا) بمعنى أعداء وأنشد ابن الانباري

إذا أنا لم أنفع صديقي بوجهه فان عدوى لن يضرهمو بغضى

أراد أعدائي ، فأدى الواحد عن الجمع ، وله نظائر في القرآن . منها قوله (ضيف ابراهيم المكرمين) جعل المكرمين وهو جمع نعت للضيف وهو واحد ، وثانيها : قوله (والنخل باسقات لها طلع نثالثها : قوله (أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) ورابعها : قوله (إن الانسان لني خسر إلا الذين آمنوا) وخامسها : قوله (كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل) أكد المفرد بما يؤكد الجمع به ، ولقائل أن يقول لا حاجة إلى هذا التكلف ، فان التقدير : وكذلك جعلنا لكل واحد من الأنبياء عدوا واحدا ، إذ لا يجب أن يحصل لكل واحد من الأنبياء أكثر من عدو واحد .

أما قوله تعالى ﴿يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا﴾ فالمراد أن أولئك الشياطين يوسوس بعضهم بعضا .

واعلم أنه لا يجب أن تكون كل معصية تصدر عن إنسان فإنها تكون بسبب وسوسة شيطان ، والالزم دخول التسلسل أو الدور في هؤلاء الشياطين ، فوجب الاعتراف بانتهاء هذه القباح والمعاصي إلى قبيح أول ، ومعصية سابقة حصلت لا بوسوسة شيطان آخر .

إذا ثبت هذا الأصل فنقول : إن أولئك الشياطين كما أنهم يلقون الوسوس إلى الانس والجن فقد يوسوس بعضهم بعضا . وللناس فيه مذاهب . منهم من قال الأرواح إما فلكية وإما أرضية . والأرواح الأرضية منها طاهرة خيرة . آمرة بالطاعة والافعال الحسنة . وهم الملائكة الأرضية . ومنها خبيثة قدرة شريرة ، آمرة بالقبائح والمعاصي ، وهم الشياطين . ثم ان تلك الأرواح الطيبة كما أنها تأمر الناس بالطاعات والخيرات . فكذلك قد يأمر بعضهم بعضا بالطاعات . والأرواح الخبيثة كما أنها تأمر الناس بالقبائح والمنكرات ، فكذلك قد يأمر بعضهم بعضا بتلك القبائح والزيادة فيها . والم يحصل نوع من أنواع المناسبة بين النفوس البشرية ، وبين تلك الأرواح لم يحصل ذلك الانضمام . فالنفوس البشرية ، إذا كانت طاهرة نقية عن الصفات الذميمة كانت من جنس الأرواح الطاهرة فتتضم إليها ، وإذا كانت خبيثة موصوفة بالصفات الذميمة كانت من جنس الأرواح الخبيثة فتتضم إليها . ثم ان صفات الطهارة كثيرة . وصفات الخبث والنقصان كثيرة . وبحسب كل نوع منها طوائف من البشر وطوائف من الأرواح الأرضية بحسب تلك المجانسة والمشاكلة والمشاركة ينضم الجنس إلى جنسه . فان كان ذلك في أفعال الخير كان الحامل عليها ماسكا وكان تقوية ذلك الخاطر إلهاما . وإن كان في باب الشركان الحامل عليها شيطانا . وكان تقوية ذلك الخاطر وسوسة .

إذا عرفت هذا الأصل فنقول : إنه تعالى عبر عن هذه الحالة المذكورة بقوله (يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) فيجب علينا تفسير ألفاظ الثلاثة : الأول : الوحي وهو عبارة عن الایماء والقول السريع . والثاني : الزخرف وهو الذي يكون باطنه باطلا . وظاهره مزيئا ظاهرا ، يقال : فلان يزخرف كلامه إذا زينه بالباطل والكذب . وكل شيء حسن موه فهو مزخرف .

واعلم أن تحقيق الكلام فيه أن الانسان مالم يعتقد في أمر من الأمور كونه مشتملا على خير راجح ونفع زائد . فانه لا يرغب فيه . ولذلك سمي الفاعل المختار مختاراً لكونه طالبا للخير والنفع ، ثم إن كان هذا الاعتقاد مطابقا للمعتقد . فهو الحق والصدق والالهام وإن كان صادرا من الملك ، وإن لم يكن معتقدا مطابقا للمعتقد . فحينئذ يكون ظاهره مزيئا . لأنه في اعتقاده سبب للنفع الزائد والصالح الراجح ، ويكون باطنه فاسدا باطلا . لأن هذا الاعتقاد غير مطابق للمعتقد فكان مزخرفا . فهذا تحقيق هذا الكلام . والثالث : قوله (غرورا) قال الواحدى (غرورا) منصوب على المصدر ، وهذا المصدر محمول على المعنى . لأن معنى إيهاء الزخرف من القول معنى الغرور . فكانه قال

وَلَتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَيَرْضَوهُ وَيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ

مُقْتَرِفُونَ «١١٣»

يغرون غرورا ، وتحقيق القول فيه أن المغرور هو الذى يعتقد فى الشئ، كونه مطابقا للنفعة والمصلحة مع أنه فى نفسه ليس كذلك ، فالغرور إما أن يكون عبارة عن عين هذا الجهل أو عن حالة متولدة عن هذا الجهل . فظاهر بما ذكرنا أن تأثير هذه الأرواح الخبيثة بعضها فى بعض لا يمكن أن أن يعبر عنه بعبارة أكمل ولا أقوى دلالة على تمام المقصود من قوله (يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا)

ثم قال تعالى ﴿ولو شاء ربك ما فعلوه﴾ وأصحابنا يحتجون به على أن الكفر والايان بارادة الله تعالى . والمعزلة يحملونه على مشيئة الاجاء . وقد سبق تقرير هذه المسألة على الاستقصاء ، فلافائدة فى الاعداء .

ثم قال تعالى ﴿فذرهم وما يفترون﴾ قال ابن عباس : معناه يريد ما زين لهم إبليس وغرهم به قال القاضى : هذا القول يتضمن التحذير الشديد من الكفر . والترغيب الكامل فى الايمان ، ويقضى زوال الغم عن قلب الرسول من حيث يتصور ما أعد الله للقوم على كفرهم من أنواع العذاب ودا أعدله من منازل الثواب بسبب صبره على سفاهتهم واطفه بهم .

قوله تعالى ﴿ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ولا يرضوه وليقتروا ما هم مقترفون﴾ وفى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن الصغو فى اللغة معناه : الميل . يقال فى المستمع إذا مال بحاسته إلى ناحية الصوت أنه يصغى ، ويقال : أصغى الأناء إذا أماله حتى انصب بعضه فى البعض ، ويقال للقمر إذا مال إلى الغروب صغاً وأصغى . فقوله (ولتصغى) أى ولتميل .

﴿المسألة الثانية﴾ «اللام» فى قوله (ولتصغى) لا بدله من متعلق . فقال أصحابنا : التقدير : وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من شياطين الجن والانس ، ومن صفته أنه يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ، وإنما فعلنا ذلك لتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون أى وإنما أوجدنا العداوة فى قلب الشياطين الذين من صفتهم ما ذكرناه ليكون كلامهم المزخرف مقبولا عند هؤلاء الكفار . قالوا وإذا حملنا الآية على هذا الوجه يظهر أنه تعالى يريد الكفر من الكافر أما المعتزلة فقد أجابوا عنه من ثلاثة أوجه .

﴿الوجه الأول﴾ وهو الذى ذكره الجبائى قال : إن هذا الكلام خرج مخرج الأمر ومعناه الزجر ، كقوله تعالى (واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب) وكذلك قوله (وايرضوه وليقتروا) وتقدير الكلام كأنه قال الرسول (فذرهم وما يفترون) ثم قال لهم على سبيل التهديد ولتصغى إليه أفئدتهم ولايرضوه وليقتروا ما هم مقترفون .

﴿والوجه الثانى﴾ وهو الذى اختاره السكعبي أن هذه اللام لام العاقبة أى ستؤول عاقبة أمرهم إلى هذه الأحوال . قال القاضى : ويبعد أن يقال : هذه العاقبة تحصل فى الآخرة . لأن الاجاء حاصل فى الآخرة ، فلا يجوز أن تميل قلوب الكفار إلى قبول المذهب الباطل . ولا أن يرضوه ولا أن يقتروا الذنب . بل يجب أن تحمل على أن عاقبة أمرهم تؤل إلى أن يقبلوا الأباطيل ويرضوا بها ويعملوا بها .

﴿والوجه الثالث﴾ وهو الذى اختاره أبو مسلم . قال «اللام» فى قوله (ولتصغى اليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة) : تعاقى بقوله (يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) والتقدير أن بعضهم يوحى إلى بعض زخرف القول ليغروا بذلك (ولتصغى اليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ولايرضوه وليقتروا) الذنوب ويكون المراد أن مقصود الشياطين من ذلك الايحاء هو مجموع هذه المعانى . فهذا جملة ما ذكره فى هذا الباب .

﴿أما الوجه الأول﴾ وهو الذى عول عليه الجبائى فصعيف من وجود ذكرها القاضى . فأحدها : أن «الواو» فى قوله (ولتصغى) تقتضى تعلقه بما قبله فحمله على الابتداء بعيد . وثانيها : أن «اللام» فى قوله (ولتصغى) لام كى فيبعد أن يقال : إنها لام الأمر ويقرب ذلك من أن يكون تحريفاً لكلام الله تعالى وأنه لايجوز .

﴿وأما الوجه الثانى﴾ وهو أن يقال : هذه اللام لام العاقبة فهو ضعيف . لأنهم أجمعوا على أن هذا مجاز وحمله على «كى» حقيقة فكان قولنا أولى .

﴿وأما الوجه الثالث﴾ وهو الذى ذكره أبو مسلم فهو أحسن الوجود المذكورة فى هذا الباب : لأننا نقول : إن قوله (يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) يقتضى أن يكون الغرض من ذلك الايحاء هو التغرير . وإذا عطفنا عليه قوله (ولتصغى اليه أفئدة الذين لا يؤمنون) فهذا أيضا عين التغرير لأمعنى التغرير . إلا أنه يستميله إلى ما يكون باطنه قبيحا . وظاهره حسنا . وقوله (ولتصغى اليه أفئدة الذين لا يؤمنون) عين هذه الاستمالة فلو عطفنا لزم أن يكون المعطوف عين المعطوف عليه . وأنه لايجوز ، أما إذا قلنا : تقدير الكلام وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من شأنه أن يوحى

أَفْغَيْرَ اللَّهِ ابْتَغَى حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ «١١٤»

زخرف القول لأجل التغير وإِنما جعلنا مثل هذا الشخص عدوا للنبي لتصغى اليه أفئدة الكفار، فيعدوا بذلك السبب عن قبول دعوة ذلك النبي، وحينئذ لا يلزم على هذا التقدير عطف الشيء على نفسه. فثبت أن ما ذكرناه أولى.

﴿المسألة الثالثة﴾ زعم أصحابنا أن البنية ليست مشروطا للحياة، فالحي هو الجزء الذي قامت به الحياة، والعالم هو الجزء الذي قام به العلم، وقالت المعتزلة: الحي والعالم هو الجملة «لا» ذلك الجزء إذا عرفت هذا فنقول: احتج أصحابنا بهذه الآية على صحة قولهم، لأنه قال تعالى (ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون) فجعل الموصوف بالميل والرغبة هو القلب، لاجملة الحي، وذلك يدل على قولنا.

﴿المسألة الرابعة﴾ الذين قالوا الانسان شيء مغاير للبدن اختلفوا. منهم من قال: المتعلق الأول هو القلب، وبواسطته تتعلق النفس بسائر الأعضاء كالدماغ والكبد. ومنهم من قال: القلب متعلق النفس الحيوانية. والدماغ متعلق النفس الناطقة. والكبد متعلق النفس الطبيعية، والأولون تعلقوا بهذه الآية، فانه تعالى جعل محل الصغو الذي هو عبارة عن الميل والارادة: القلب، وذلك يدل على أن المتعلق بالنفس القلب.

﴿المسألة الخامسة﴾ الكناية في قوله (ولتصغى إليه أفئدة) عائدة إلى زخرف القول، وكذلك في قوله (وليرضوه)

وأما قوله ﴿وليقترفوا ما هم مقترفون﴾ فاعلم أن الاعتراف هو الاكتساب، يقال في المثل: الاعتراف يزيل الاعتراف، كما يقال: التوبة تمحو الحوبة. وقال الزجاج (ليقترفوا) أى ليختلفوا وليكذبوا، والأول أصح.

قوله تعالى ﴿أفغير الله ابتغى حكماً وهو الذى أنزل اليكم الكتاب مفصلاً والذى آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين﴾

فيه مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنه تعالى لما حكي عن الكفار أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها، أجاب عنه بأنه لا فائدة في إظهار تلك الآيات، لأنه تعالى لو أظهرها لبقوا مصرين على كفرهم. ثم إنه تعالى بين في هذه الآية أن الدليل الدال على نبوته قد حصل وكمل، فكان ما يطلبونه طلباً للزيادة. وذلك مما لا يجب الالتفات إليه، وإنما قلنا: إن الدليل الدال على نبوته قد حصل لوجهين:

﴿الوجه الأول﴾ أن الله قد حكم بنبوته من حيث أنه أنزل إليه الكتاب المفصل المبين المشتمل على العلوم الكثيرة والفصاحة الكاملة، وقد عجز الخلق عن معارضته. فظهور مثل هذا المعجز عليه يدل على أنه تعالى قد حكم بنبوته. فقوله (أفغير الله أتبعي حكماً) يعنى قل يا محمد: إنكم تتحكمون في طلب سائر المعجزات، فهل يجوز في العقل أن يطلب غير الله حكماً؟ فان كل أحد يقول إن ذلك غير جائز. ثم قل: إنه تعالى حكم بصحة نبوتى حيث خصنى بمثل هذا الكتاب المفصل الكامل البالغ إلى حد الإعجاز.

﴿والوجه الثانى﴾ من الأمور الدالة على نبوته: اشتغال التوراة والانجيل على الآيات الدالة على أن محمداً عليه الصلاة والسلام رسول حق، وعلى أن القرآن كتاب حق من عند الله تعالى، وهو المراد من قوله (والذين آتيناكم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) وبالجملة فالوجهان المذكوران في قوله تعالى (قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب)

أما قوله تعالى في آخر الآية ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ ففيه وجوه: الأول: أن هذا من باب التهيج والالهاب كقوله (ولا تكونن من المشركين) والثانى: التقدير (فلا تكونن من الممترين) فى أن أهل الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق. والثالث: يجوز أن يكون قوله (فلا تكونن) خطاباً لكل واحد والمعنى أنه لما ظهرت الدلائل فلا ينبغي أن يمتري فيها أحد. الرابع: قيل هذا الخطاب وإن كان فى الظاهر للرسول إلا أن المراد منه أمتة.

﴿المسألة الثانية﴾ قوله (والذين آتيناكم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) قرأ ابن عامر وحفص (منزل) بالتشديد والباقون بالتخفيف، والفرق بين التنزيل والانزال قد ذكرناه مراراً. ﴿المسألة الثالثة﴾ قال الواحدى (أفغير الله أتبعي حكماً) الحكم والحاكم واحد عند أهل اللغة، غير أن بعض أهل التأويل قال الحكم أكمل من الحاكم لأن الحاكم كل من يحكم. وأما الحكم فهو الذى لا يحكم إلا بالحق والمعنى أنه تعالى حكم حق لا يحكم إلا بالحق. فلما أظهر المعجز الواحد وهو القرآن فقد حكم بصحة هذه النبوة، ولا مرتبة فوق حكمه. فوجب القطع بصحة هذه النبوة. فأما

وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ «١١٥»

أنه هل يظهر سائر المعجزات أم لا؟ فلا تأثير له في هذا الباب بعد أن ثبت أنه تعالى حكم بصحة هذه النبوة بواسطة إظهار المعجز الواحد.

قوله تعالى ﴿وتمت كلمت ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم﴾

وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ عاصم وحزمة والكسائي (وتمت كلمة ربك) بغير ألف على الواحد، والباقون (كلمات) على الجمع، قال أهل المعاني. الكلمة والكلمات، معناهما ما جاء من وعد ووعدوثواب وعقاب، فلا تبديل فيه ولا تغيير له كما قال (ما يبدل القول لدى) فمن قرأ (كلمات) بالجمع قال : لأن معناها الجمع فوجب أن يجمع في اللفظ، ومن قرأ على الوحدة فلأنهم قالوا: الكلمة، قد يراد بها الكلمات الكثيرة إذا كانت مضبوطة بضابط واحد، كقولهم: قال زهير في كلمته: يعني قصيدته، وقال قس في كلمته. أي خطبته. فكذلك مجموع القرآن كلمة واحدة في كونه حقا وصدقا ومعجزا.

﴿المسألة الثانية﴾ ان تعاق هذه الآية بما قبلها أنه تعالى بين في الآية السابقة أن القرآن معجز، فذكر في هذه الآية أنه تمت كلمه ربك، والمراد بالكلمة-القرآن-أي تم القرآن في كونه معجزا لا على صدق محمد عليه السلام، وقوله (صدقا وعدلا) أي تمت تماما صدقا وعدلا، وقال أبو على الفارسي (صدقا وعدلا) مصدران ينصبان على الحال من الكلمة تقديره صادقة عادلة، فهذا وجه تعلق هذه الآية بما قبلها.

﴿المسألة الثالثة﴾ اعلم أن هذه الآية تدل على أن كلمة الله تعالى موصوفة بصفات كثيرة.

﴿فالصفة الأولى﴾ كونها تامة واليه الإشارة بقوله (وتمت كلمة ربك) وفي تفسير هذا التمام

وجود: الأول: ما ذكرنا أنها كافية وافية بكونها معجزة دالة على صدق محمد عليه الصلاة والسلام. والثاني: أنها كافية في بيان ما يحتاج المكلفون اليه إلى قيام القيامة عملا وعلما، والثالث: أن حكم الله تعالى هو الذي حصل في الأزل، ولا يحدث بعد ذلك شيء، فذلك الذي حصل في الأزل هو التمام، والزيادة عليه ممتعة، وهذا الوجه هو المراد من قوله صلى الله عليه وسلم «جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة»

﴿الصفة الثانية﴾ من صفات كلمة الله كونها صدقا، والدليل عليه أن الكذب نقص والنقص على الله محال، ولا يجوز إثبات أن الكذب على الله محال بالدلائل السمعية. لأن صحة الدلائل السمعية موقوفة على أن الكذب على الله محال. فلو أثبتنا امتناع الكذب على الله بالدلائل السمعية لزم الدور وهو باطل. واعلم أن هذا الكلام كما يدل على أن الخلف في وعد الله تعالى محال، فهو أيضا يدل على أن الخلف في وعيده محال بخلاف ما قاله الواحدى فى تفسير قوله تعالى (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها) إن الخلف فى وعيد الله جائز، وذلك لأن وعد الله ووعيده كلمة الله، فلما دلت هذه الآية على أن كلمة الله يجب كونها موصوفة بالصدق علم أن الخلف كما أنه متمنع فى الوعد فكذلك متمنع فى الوعيد.

﴿الصفة الثالثة﴾ من صفات كلمات الله كونها عدلا وفيه وجهان: الأول: أن كل ما حصل فى القرآن نوعان، الخبر والتكليف. أما الخبر فالمراد كل ما أخبر الله عن وجوده أو عن عدمه ويدخل فيه الخبر عن وجود ذات الله تعالى وعن حصول صفاته أعنى كونه تعالى عالما قادرا سميعا بصيرا، ويدخل فيه الاخبار عن صفات التقديس والتنزيه كقوله (لم يلد ولم يولد) وكقوله (لا تأخذه سنة ولا نوم) ويدخل فيه الخبر عن أقسام أفعال الله وكيفية تدبيره للملكوت السموات والأرض وعالمى الأرواح والاجسام. ويدخل فيه كل أمر عن أحكام الله تعالى فى الوعد والوعيد والثواب والعقاب، ويدخل فيه الخبر عن أحوال المتقدمين، والخبر عن الغيوب المستقبلية، فكل هذه الأقسام داخلية تحت الخبر، وأما التكليف فيدخل فيه كل أمر ونهى توجه منه سبحانه على عبده سواء كان ذلك العبد ملكا أو بشر أو جنيا أو شيطانا وسواء كان ذلك فى شرعنا أو فى شرائع الأنبياء عليهم السلام المتقدمين، أو فى شرائع الملائكة المقربين الذين هم سكان السموات والجنة والنار والعرش وما وراءه مما لا يعلم أحوالهم إلا الله تعالى.

وإذا عرفت انحصار مباحث القرآن فى هذين القسمين فنقول: قال تعالى (وتمت كلمة ربك صدقا) إن كان من باب الخبر (وعدلا) ان كان من باب التكليف، وهذا ضبط فى غاية الحسن ﴿والقول الثانى﴾ فى تفسير قوله (وعدلا) ان كل ما أخبر الله تعالى عنه من وعد ووعيد وثواب وعقاب فهو صدق لأنه لا بد وأن يكون واقعا، وهو بعد وقوعه عدل لأن أفعاله منزهة عن أن تكون موصوفة بصفة الظلمية

﴿الصفة الرابعة﴾ من صفات كلمة الله قوله (لا تبدل لكلماته) وفيه وجود: الأول: أننا نعلم أن المراد من قوله (وتمت كلمة ربك) أنها تامة فى كونها معجزة دالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم

وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ
إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ «١١٦» إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ «١١٧»

ثم قال (لامبدل لكلماته) والمعنى أن هؤلاء الكفار يلقون الشبهات في كونها دالة على صدق محمد عليه الصلاة والسلام إلا أن تلك الشبهات لا تأثير لها في هذه الدلائل التي لا تقبل التبديل البتة لأن تلك الدلالة ظاهرة باقية جلية قوية لا تزول بسبب ترهات الكفار وشبهات أولئك الجهال .

﴿والوجه الثاني﴾ أن يكون المراد أنها تبقى مصونة عن التحريف والتغيير كما قال تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)

﴿والوجه الثالث﴾ أن يكون المراد أنها مصونة عن التناقض كما قال (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)

﴿والوجه الرابع﴾ أن يكون المراد أن أحكام الله تعالى لا تقبل التبديل والزوال لأنها أزلية ، والأزلى لا يزول .

واعلم أن هذا الوجه أحد الأصول القوية في إثبات الجبر، لأنه تعالى لما حكم على زيد بالسعادة وعلى عمرو بالشقاوة . ثم قال (لامبدل لكلمات الله) يلزم امتناع أن ينقلب السعيد شقيا وأن ينقلب الشقي سعيدا ، فالسعيد من سعد في بطن أمه ، والشقي من شقي في بطن أمه .

قوله تعالى ﴿وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾

اعلم أنه تعالى لما أجاب عن شبهات الكفار ثم بين بالدليل صحة نبوة محمد عليه الصلاة والسلام بين أن بعد زوال الشبهة وظهور الحجة لا ينبغي أن يلتفت العاقل إلى كلمات الجهال ، ولا ينبغي أن يتشوش بسبب كلماتهم الفاسدة فقال (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله) وهذا يدل على أن أكثر أهل الأرض كانوا ضلالا، لأن الاضلال لا بد وأن يكون مسبوقا بالضلال . واعلم أن حصول هذا الضلال والاضلال لا يخرج عن أحد أمور ثلاثة : أولها : المباحث المتعلقة بالالهيات فإن الحق فيها واحد ، وأما الباطل ففيه كثرة . ومنها القول بالشرك اما كما تقوله الزنادقة

وهو الذي أخبر الله عنه في قوله (وجعلوا لله شركاء الجن) وإما كما يقوله عبدة الكواكب . وإما كما يقوله عبدة الاصنام . وثانيتها : المباحث المتعلقة بالنبوات . إما كما يقوله من ينكر النبوة مطلقا أو كما يقوله من ينكر النشر . أو كما يقوله من ينكر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . ويدخل في هذا الباب المباحث المتعلقة بالمعاد . وثالثها : المباحث المتعلقة بالأحكام . وهي كثيرة . فان الكفار كانوا يجرمون البحائر والسوائب والوصائل ويحملون الميمنة . فقال تعالى (وإن تطع أكثر من في الأرض) فيما يعتقدونه من الحكم على الباطل بأنه حق . وعلى الحق بأنه باطل يضلوك عن سبيل الله ، أي عن الطريق والمنهج الصدق .

ثم قال ﴿ إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المراد أن هؤلاء الكفار الذين ينازعونك في دينك ومذهبك غير قاطعين بصحة مذاهبهم ، بل لا يتبعون إلا الظن وهم خراصون كذابون في ادعاء القاطع وكثير من المفسرين يقولون : المراد من ذلك الظن رجوعهم في إثبات مذاهبهم إلى تقليد أسلافهم لا إلى تعليل أصلا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ تمسك نفاة القياس بهذه الآية . فقالوا رأينا أن الله تعالى بالغ في ذم الكفار في كثير من آيات القرآن بسبب كونهم متبعين للظن . والشئ الذي يجعله الله تعالى موجبا لدم الكفار لا بد وأن يكون في أقصى مراتب الذم ، والعمل بالقياس يوجب اتباع الظن . فوجب كونه مذموما محرما ، لا يقال لما ورد الدليل القاطع بكونه حجة كان العمل به عملا بدليل مقطوع لا بدليل مظنون . لأننا نقول هذا مدفوع من وجود : الأول : أن ذلك الدليل القاطع اما أن يكون عقليا . وإما أن يكون سمعيا ، والأول باطل لأن العقل لا مجال له في أن العمل بالقياس جائز أو غير جائز ، لاسيما عند من ينكر تحسين العقل وتقييمه . والثاني : أيضا باطل لأن الدليل السمعي إنما يكون قاطعا لو كان متواترا وكانت ألفاظه غير محتملة لوجه آخر سوى هذا المعنى الواحد . ولو حصل مثل هذا الدليل لعلم الناس بالضرورة كون القياس حجة . ولا ترتفع الخلاف فيه بين الأمة ، فحيث لم يوجد ذلك علمنا أن الدليل القاطع على صحة القياس مفقود . الثاني : هب أنه وجد الدليل القاطع على أن القياس حجة . إلا أن مع ذلك لا يتم العمل بالقياس إلا مع اتباع الظن وبيانه أن التمسك بالقياس مبنى على مقامين : الأول : أن الحكم في محل الوفاق معلل بكذا . والثاني : أن ذلك المعنى حاصل في محل الخلاف ، فهذان المقامان إن كانا معلومين على سبيل القاطع واليقين فهذا مما لا خلاف فيه بين العقلاء في صحته وإن ، كان مجموعهما أو كان أحدهما ظنيا فحيث لا يتم العمل

فَكُفُّوا مَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ «١١٨»

بهذا القياس إلا بمتابعة الظن ، وحينئذ يندرج تحت النص الدال على أن متابعة الظن مذمومة .
والجواب : لم لا يجوز أن يقال : الظن عبارة عن الاعتقاد الراجح إذا لم يستند إلى أماره وهو مثل
اعتقاد الكفار أما إذا كان الاعتقاد الراجح مستندا إلى أماره ، فهذا الاعتقاد لا يسمى . ظنا وبهذا
الطريق سقط هذا الاستدلال .

ثم قال تعالى ﴿إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ مِنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ في تفسيره قولان : الأول : أن يكون المراد أنك بعد ما عرفت أن الحق
ما هو ، وأن الباطل ما هو ، فلا تكن في قيدهم بل فوض أمرهم إلى خالقهم ، لأنه تعالى عالم بأن المهتدي
من هو؟ والضال من هو؟ فيجازى كل واحد بما يليق بعمله . والثاني : أن يكون المراد أن هؤلاء
الكفار وإن أظهروا من أنفسهم ادعاء الجزم واليقين فهم كاذبون ، والله تعالى عالم بأحوال قلوبهم
وبواطنهم ، وهطلع على كونهم متحيرين في سبيل الضلال تأهين في أودية الجهل .

﴿المسألة الثانية﴾ قوله ﴿إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ مِنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ فيه قولان : الأول : قال
بعضهم (أعلم) ههنا بمعنى يعلم والتقدير : إن ربك يعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين
فان قيل : فهذا يوجب وقوع التفاوت في علم الله تعالى وهو محال .

قلنا : لا تمك أن حصول التفاوت في علم الله تعالى محال . إلا أن المقصود من هذا اللفظ أن
العناية باظهار هداية المهتدين فوق العناية باظهار ضلال الضالين ، ونظيره قوله تعالى ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ
أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ فذكر الاحسان مرتين والاساءة مرة واحدة . الثاني : أن موضع
(من) رفع بالابتداء ولفظها لفظ الاستفهام ، والمعنى إن ربك هو أعلم أي الناس يضل عن سبيله (قال)
وهذا مثل قوله تعالى ﴿لنَعْلَمَ أَى الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى وَهَذَا قَوْلُ الْمُبْرَدِ وَالزَّجَاجِ وَالْكَسَائِي وَالْفَرَّاءِ .

قوله تعالى ﴿فَكُفُّوا مَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾

في الآية مباحث نذكرها في معرض السؤال والجواب .

﴿السؤال الأول﴾ «الفاء» في قوله ﴿فَكُفُّوا مَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ يقتضى تعلقاً بما تقدم ،

فما ذلك الشيء؟

والجواب : قوله ﴿فَكُفُّوا﴾ مسبب عن إنكار اتباع المضلين الذين يخللون الحرام ويمحرمون
الحلال ، وذلك أنهم كانوا يقولون للمسلمين : إنكم تزعمون أنكم تعبدون الله فما قتله الله أحق أن

وَمَا لَكُمْ إِلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَضَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُررْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ «١١٩»

تأكلوه مما قتلتموه أنتم. فقال الله للمسلمين إن كنتم متحققين بالايمن فكلوا بما ذكر اسم الله عليه وهو المذكي بسم الله .

﴿السؤال الثاني﴾ القوم كانوا يبيحون أكل ما ذبح على اسم الله ولا ينازعون فيه . وإنما النزاع في أنهم أيضاً كانوا يبيحون أكل الميتة . والمسلمون كانوا يحرمونها . وإذا كان كذلك كان ورود الأمر باباحة ما ذكر اسم الله عليه عبثاً لأنه يقتضى إثبات الحكم في المتفق عليه وترك الحكم في المختلف فيه .

والجواب : فيه وجهان : الأول : لعل القوم كانوا يحرمون أكل المذكاة ويبيحون أكل الميتة . فالله تعالى رد عليهم في الأمرين ، فحكم بحل المذكاة بقوله (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه) وبتجريم الميتة بقوله (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) الثاني : أن نحمل قوله (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه) على أن المراد اجعلوا أكلكم مقصوراً على ما ذكر اسم الله عليه . فيكون المعنى على هذا الوجه تحريم أكل الميتة فقط .

﴿السؤال الثالث﴾ قوله (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه) صيغة الأمر . وهى للإباحة . وهذه الإباحة حاصلة في حق المؤمن وغير المؤمن . وكلمة (إن) في قوله (إن كنتم بآياته مؤمنين) تفيد الاشتراط . والجواب : التقدير ليكن أكلكم مقصوراً على ما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين والمراد أنه لو حكم باباحة أكل الميتة لعدح ذلك في كونه مؤمناً .

قوله تعالى ﴿وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين﴾ في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ نافع وحفص عن عاصم (وقد فصل لكم ما حرم عليكم) بالفتح في الحرفين . وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو بالضم في الحرفين . وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم

(فصل) بالفتح (وحرّم) بالضم ، فمن قرأ بالفتح في الحرفين فقد احتج بوجهين : الأول : أنه تمسك في فتح قوله (فصل) بقوله (قد فصلنا الآيات) وفي فتح قوله (حرّم) بقوله (أتل ما حرّم ربكم) ﴿والوجه الثاني﴾ التمسك بقوله (مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرّم عليكم) فيجب أن يكون الفعل مسنداً إلى الفاعل لتقدم ذكر اسم الله تعالى، وأما الذين قرؤا بالضم في الحرفين. فحججهم قوله (حرمت عليكم الميتة والدم) وقوله (حرمت) تفصيل لما أجمل في هذه الآية، فلما وجب في التفصيل أن يقال (حرمت عليكم الميتة) بفعل مالم يسم فاعله وجب في الاجمال كذلك وهو قوله (ما حرّم عليكم) ولما ثبت وجوب (حرّم) بضم الحاء فكذلك يجب (فصل) بضم الفاء لأن هذا المفصل هو ذلك المحرم المجمع بعينه . وأيضاً فإنه تعالى قال (وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلاً) وقوله (مفصلاً) يدل على فصل . وأما من قرأ (فصل) بالفتح وحرّم بالضم فحججته في قوله (فصل) قوله (قد فصلنا الآيات) وفي قوله (حرّم) قوله (حرمت عليكم الميتة)

﴿المسألة الثانية﴾ قوله (وقد فصل لكم ما حرّم عليكم) أكثر المفسرين قالوا : المراد منه قوله تعالى في أول سورة المائدة (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير) وفيه إشكال : وهو أن سورة الأنعام هكّية وسورة المائدة مدنية ، وهي آخر ما أنزل الله بالمدينة . وقوله (وقد فصل) يقتضى أن يكون ذلك المفصل مقدماً على هذا المجمع ، والمدنى متأخر عن المسكى ، والمتأخر يمتنع كونه مقدماً . بل الأولى أن يقال المراد قوله بعد هذه الآية (قل لا أجد فيما أوحى إلي محرماً على طاعم يطعمه . وهذه الآية وإن كانت مذكورة بعد هذه الآية بقليل إلا أن هذا القدر من التأخير لا يمنع أن يكون هو المراد والله أعلم . وقوله (إلا ما اضطررتم إليه) أى دعتمكم الضرورة إلى كلّه بسبب شدة الحاجة ثم قال ﴿وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم﴾ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو (ليضلون) بفتح الياء وكذلك في يونس (ربنا ليضلوا) وفي إبراهيم (ليضلوا) وفي الحج (ثاني عطفه ليضل) وفي لقمان (لهو الحديث ليضل) وفي الزمر (أنداد ليضل) وقرأ عاصم وحزمة والسكسائي جميع ذلك بضم الياء . وقرأ نافع وابن عامر ههنا وفي يونس بفتح الياء ، وفي سائر المواضع بالضم ، فمن قرأ بالفتح أشار إلى كونه ضالاً ، ومن قرأ بالضم أشار إلى كونه مضلاً . قال : وهذا أقوى في الظم لأن كل مضل فانه يجب كونه ضالاً ، وقد يكون ضالاً ولا يكون مضلاً . فالمضل أكثر استحقاقاً للظم من الضال .

﴿المسألة الثانية﴾ المراد من قوله (ليضلون) قيل إنه عمرو بن لحي ، فمن دونه من المشركين . لأنه أول من غير دين إسماعيل واتخذ البحائر والسوائب وأكل الميتة . وقوله (بغير علم) يريد أن

وَذَرُوا ظَاهِرَ الْأِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْأِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا
كَانُوا يَقْتَرِفُونَ «١٢٠»

عمرو بن لحي أقدم على هذه المذاهب عن الجهالة الصرفة والضلالة المحضنة . وقال الزجاج : المراد منه الذين يحلون الميتة ويناظرونكم في إحلالها ، ويحتجون عليها بقولهم لما حل ما تذبحونه أتم فبان يحل ما يذبحه الله أولى . وكذلك كل ما يضلون فيه من عبادة الأوثان والطعن في نبوة محمد عليه الصلاة والسلام فانما يتبعون فيه الهوى والشهوة ، ولا بصيرة عندهم ولا علم .

(المسألة الثالثة) دلت هذه الآية على أن القول في الدين بمجرد التقليد حرام ، لأن القول بالتقليد قول بمحض الهوى والشهوة ، والآية دلت على أن ذلك حرام .

ثم قال تعالى ﴿إن ربك هو أعلم بالمعتدين﴾ والمراد منه أنه هو العالم بما في قلوبهم وخمائرمهم من التعدي وطلب نصره الباطل والسعي في إخفاء الحق ، وإذا كان عالما بأحوالهم وكان قادرا على مجازاتهم فهو تعالى يجازيهم عليها ، والمقصود من هذه الكلمة التهديد والتخويف . والله أعلم .

قوله تعالى ﴿وذروا ظاهر الأثم وباطنه إن الذين يكسبون الأثم سيجزون بما كانوا يقترفون﴾ اعلم أنه تعالى لما بين أنه فصل المحرمات أتبعه بما يوجب تركها بالكلية بقوله (وذروا ظاهر الأثم وباطنه) والمراد من الأثم ما يوجب الأثم . وذكروا في ظاهر الأثم وباطنه وجهين : الأول : أن (ظاهر الأثم) الاعلان بالزنا (وباطنه) الاستسرار به . قال الضحاك : كان أهل الجاهلية يرون الزنا حللا ما كان سرا ، فحرم الله تعالى بهذه الآية السر منه والعلانية . الثاني : أن هذا النهي عام في جميع المحرمات وهو الأصح ، لأن تخصيص اللفظ العام بصورة معينة من غير دليل غير جائز ، ثم قيل المراد ما أعلنتم وما أسررتم ، وقيل : ما عملتم وما نويتم . وقال ابن الأنباري : يريد وذروا الأثم من جميع جهاته كما تقول : ما أخذت من هذا المال قليلا ولا كثيرا ، تريد ما أخذت منه بوجه من الوجوه ، وقال آخرون : معنى الآية النهي عن الأثم مع بيان أنه لا يخرج من كونه إثما بسبب إخفائه وكتمانه ، ويمكن أن يقال : المراد من قوله (وذروا ظاهر الأثم) النهي عن الاقدام على الأثم ، ثم قال (وباطنه) ليظهر بذلك أن الداعي له إلى ترك ذلك الأثم خوف الله لا خوف الناس . وقال آخرون (ظاهر الأثم) أفعال الجوارح (وباطنه) أفعال القلوب من الكبر والحسد والعجب وإرادة السوء للمسلمين ، ويدخل فيه الاعتقاد والعزم والنظر والظن والتمنى واللوم على الخيرات . وبهذا

وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفَسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ
إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيَجَادِلُواكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

يظهر فساد قول من يقول: إن ما يوجد في القلب لا يؤخذ به إذا لم يقترن به عمل فإنه تعالى نهى عن كل هذه الأقسام بهذه الآية.

ثم قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْأَثْمَ سَيَجْزُونَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرُونَ﴾ ومعنى الإقتراف قد تقدم ذكره. وظاهر النص يدل على أنه لا بد وأن يعاقب المذنب، إلا أن المسلمين أجمعوا على أنه إذا تاب لم يعاقب، وأصحابنا زادوا شرطاً ثانياً، وهو أنه تعالى قد يعفو عن المذنب فيترك عقابه كما قال الله تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)

قوله تعالى ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾
اعلم أنه تعالى لما بين أنه يحل أكل ما ذبح على اسم الله، ذكر بعده تحريم ما لم يذكر عليه اسم الله، ويدخل فيه الميتة، ويدخل فيه ما ذبح على ذكر الأصنام، والمقصود منه إبطال ما ذكره المشركون. وفي الآية ماثل:

﴿المسألة الأولى﴾ نقل عن عطاء أنه قال: كل ما لم يذكر عليه اسم الله من طعام أو شراب، فهو حرام، تمسكاً بعموم هذه الآية. وأما سائر الفقهاء فأنهم أجمعوا على تخصيص هذا العموم بالذبح، ثم اختلفوا فقال مالك: كل ذبح لم يذكر عليه اسم الله فهو حرام، سواء ترك ذلك الذكر عمداً أو نسياناً. وهو قول ابن سيرين وطائفة من المتكلمين. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: إن ترك الذكر عمداً حرم، وإن ترك نسياناً حل. وقال الشافعي رحمه الله تعالى: يحل هتوك التسمية سواء ترك عمداً أو خطأ إذا كان الذابح أهلاً للذبح، وقد ذكرنا هذه المسألة على الاستقضاء في تفسير قوله (إلا ما ذكيتم) فلا فائدة في الإعادة، قال الشافعي رحمه الله تعالى: هذا النهي مخصوص بما إذا ذبح على اسم النصب، ويدل عليه وجوه: أحدها: قوله تعالى (وإنه لفسق) وأجمع المسلمون على أنه لا يفسق أكل ذبيحة المسلم الذي ترك التسمية، وثانيها: قوله تعالى (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم) وهذه المناظرة إنما كانت في مسألة الميتة، روى أن ناساً من المشركين قالوا للمسلمين: ما يقتله الصقر والكلب تأكلونه. وما يقتله الله فلا تأكلونه. وعن ابن عباس أنهم قالوا:

تأكلون ماتقتلونه ولا تأكلون ما يقتله الله ، فهذه المناظرة مخصوصة بأكل الميتة . وثالثها : قوله تعالى (وإن أطعتموهم إنكم لمشركون) وهذا مخصوص بما ذبح على اسم النصب . يعنى لو رضيتم بهذه الذبيحة التى ذبحت على اسم إلهية الأوثان ، فقد رضيتم بالهيتها وذلك يوجب اشرك . قال الشافعى رحمه الله تعالى : فأول الآية وإن كان عاما بحسب الصيغة . إلا أن آخرها لما حصلت فيه هذه القيود الثلاثة علمنا أن المراد من ذلك العموم هو هذا الخصوص ، وبما يؤكد هذا المعنى هو أنه تعالى قال (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق) فقد صار هذا النهى مخصوصا بما إذا كان هذا الأمر فسقا ، ثم طلبنا فى كتاب الله تعالى أنه متى يصير فسقا ؟ فرأينا هذا الفسق مفسرا فى آية أخرى ، وهو قوله (قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به) فصار الفسق فى هذه الآية مفسرا بما أهل به لغير الله . وإذا كان كذلك كان قوله (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق) مخصوصا بما أهل به لغير الله .

﴿ والمقام الثانى ﴾ أن تترك التمسك بهذه التخصصات . لكن نقول لم قلتم إنه لم يوجد ذكر الله ههنا؟ والدليل عليه ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «ذكر الله مع المسلم سواء قال» أو لم يقل ، ويحمل هذا الذكر على ذكر القلب .

﴿ والمقام الثالث ﴾ وهو أن نقول : هب أن هذا الدليل يوجب الحرمة إلا أن سائر الدلائل المذكورة فى هذه المسألة توجب الحل ، ومتى تعارضت وجب أن يكون الراجح هو الحل ، لأن الأصل فى المأكولات الحل ، وأيضا يدل عليه جميع العمومات المقتضية لحل الأكل والانتفاع بقوله تعالى (خالق لكم ما فى الأرض جميعاً) وقوله (كلوا واشربوا) ولأنه مستطاب بحسب الحس فوجب أن يحل لقوله تعالى (أحل لكم الطيبات) ولأنه مال لأن الطبع يميل إليه . فوجب أن لا يحرم لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن إضاعة المال . فهذا تقرير الكلام فى هذه المسألة ومع ذلك فنقول : الأولى بالمسلم أن يحترز عنه لأن ظاهر هذا النص قوى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الضمير فى قوله (وإنه لفسق) إلى ماذا يعود؟ فيه قولان : الأول : أن قوله (لا تأكلوا) يدل على الأكل ، لأن الفعل يدل على المصدر ، فهذا الضمير عائد إلى هذا المصدر . والثانى : كأنه جعل ما لم يذكر اسم الله عليه فى نفسه فسقا . على سبيل المبالغة .

وأما قوله ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ﴾ ففيه قولان : الأول : أن المراد من الشياطين ههنا إبليس وجنوده ، وسوسوا إلى أوليائهم من المشركين ليجادلوا محمدا صلى الله

أَوْ مِنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾

عليه وسلم وأصحابه في أكل الميتة. والثاني: قال عكرمة: وإن الشياطين، يعني مرادة الجوس، ليوحون إلى أوليائهم من مشركي قريش، وذلك لأنه لما نزل تحريم الميتة سمعه الجوس من أهل فارس، فكتبوا إلى قريش وكانت بينهم مكاتبة، أن محمدا وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله، ثم يزعمون أن ما يذبحونه حلال وما يذبحه الله حرام. فوقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

ثم قال ﴿وإن أطمعتموهم﴾ يعني في استحلال الميتة (إنكم لمشركون) قال الزجاج: وفيه دليل على أن كل من أحل شيئا مما حرم الله تعالى، أو حرم شيئا مما أحل الله تعالى فهو مشرك، وإنما سمي مشركا لأنه أثبت حاكسوى الله تعالى. وهذا هو الشرك.

﴿المسألة الثالثة﴾ قال السكعي: الآية حجة على أن الإيمان اسم لجميع الطاعات وإن كان معناه في اللغة التصديق. كما جعل تعالى الشرك اسما لكل ما كان مخالفا لله تعالى. وإن كان في اللغة مختصا بمن يعتقد أن الله شريكا، بدليل أنه تعالى سمي طاعة المؤمنين للمشركين في إباحة الميتة شركا. ولقائل أن يقول: لم لا يجوز أن يكون المراد من الشرك ههنا اعتقاد أن الله تعالى شريكا في الحكم والتكليف؟ وبهذا التقدير يرجع معنى هذا الشرك إلى الاعتقاد فقط.

قوله تعالى ﴿أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون﴾ في الآية مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر في الآية الأولى أن المشركين يجادلون المؤمنين في دين الله ذكر مثلا يدل على حال المؤمن المهتدى، وعلى حال الكافر الضال، فبين أن المؤمن المهتدى بمنزلة من كان ميتا، فجعل حيا بعد ذلك وأعطى نورا يهتدى به في مصالحه، وأن الكافر بمنزلة من هو في ظلمات منعس فيها لا خلاص له منها، فيكون متحيرا على الدوام.

ثم قال تعالى ﴿كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون﴾ وعند هذا عادت مسألة الجبر والقدر

فقال أصحابنا: ذلك المزين هو الله تعالى. ودليله ما سبق ذكره من أن الفعل يتوقف على حصول الداعي وحصوله لا بد وأن يكون بخلق الله تعالى، والداعي عبارة عن علم أو اعتقاد أو ظن باشتغال ذلك الفعل على نفع زائد وصلاح راجح، فهذا الداعي لا معنى له إلا هذا التزيين. فإذا كان موجودا هذا الداعي هو الله تعالى كان المزين لا محالة هو الله تعالى. وقالت المعتزلة: ذلك المزين هو الشيطان. وحكوا عن الحسن أنه قال: زينه لهم. والله الشيطان. واعلم أن هذا في غاية الضعف لوجوه: الأول: الدليل القاطع الذي ذكرناه. والثاني: أن هذا المثل المذكور ليميز الله حال المسلم من الكافر فيدخل فيه الشيطان. فإن كان إقدام ذلك الشيطان على ذلك الكفر لشيطان آخر، لزم الذهاب إلى مزين آخر إلى غير النهاية. وإلا فلا بد من مزين آخر سوى الشيطان. الثالث: أنه تعالى صرح بأن ذلك المزين ليس إلا هو فيما قبل هذه الآية وما بعدها. أما قبلها فقولها (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم) وأما بعد هذه الآية فقولها (وكذلك جعلنا في كل قرية أكبر مجرميها)

﴿المسألة الثانية﴾ قوله (أو من كان ميتا فأحييناه) قرأ نافع (ميتا) مشددا، والباقون مخففا قال أهل اللغة: الميت مخففا تخفيف ميت، ومعناها واحد ثقل أو خفف

﴿المسألة الثالثة﴾ قال أهل المعاني: قد وصف الكفار بأنهم أموات في قوله (أموات غير أحياء وما يشعرون أيا ن يعثون) وأيضا في قوله (لينذر من كان حيا) وفي قوله (إنك لا تسمع الموتى) وفي قوله (وما يستوى الأعمى والبصير وما يستوى الأحياء والأموات) فلما جعل الكفر موتا والكافر ميتا، جعل الهدى حياة والمهتدى حيا، وإنما جعل الكفر موتا لأنه جهل، والجهل يوجب الحيرة والوقفة. فهو كالموت الذي يوجب السكون، وأيضا الميت لا يهتدى إلى شيء. والجاهل كذلك، والهدى علم وبصر، والعلم والبصر سبب لحصول الرشاد والفوز بالنجاة. وقوله (وجعلنا له نورا يمشى به في الناس) عطف على قوله (فأحييناه) فوجب أن يكون هذا النور مغايرا لتلك الحياة والذي يخطر بالبال والعلم عند الله تعالى أن الأرواح البشرية لها أربع مراتب في المعرفة. فأولها: كونها مستعدة لقبول هذه المعارف وذلك الاستعداد الأصلي يختلف في الأرواح، فربما كانت الروح موصوفة باستعداد كامل قوى شريف، وربما كان ذلك الاستعداد قليلا ضعيفا، ويكون صاحبه بليدا ناقصا.

﴿والمرتبة الثانية﴾ أن يحصل لها العلوم الكلية الأولية، وهي المسماة بالعقل.

﴿والمرتبة الثالثة﴾ أن يحاول ذلك الانسان تركيب تلك البديهيات: ويتوصل بتركيبها إلى

تعرف المجهولات الكسبية ، إلا أن تلك المعارف ربما لا تكون حاضرة بالفعل ، ولكنها تكون بحيث متى شاء صاحبها استرجاعها واستحضارها ، يقدر عليه .

« (المرتبة الرابعة) » أن تكون تلك المعارف القدسية والجلال الروحانية حاضرة بالفعل ، ويكون جوهر ذلك الروح مشرقاً بتلك المعارف مستضيئاً بها مستكملاً بظهورها فيه .
إذا عرفت هذا فنقول :

« (المرتبة الأولى) » وهي حصول الاستعداد فقط ، هي المسماة بالموت .

« (المرتبة الثانية) » وهي أن تحصل العلوم البديهية الكلية فيه فهي المشار إليها بقوله (فأحيناه)

« (المرتبة الثالثة) » وهي تركيب البديهيات حتى يتوصل بتركيباتها إلى تعريف المجهولات النظرية ،

فهى المراد من قوله تعالى (وجعلنا له نورا)

« (المرتبة الرابعة) » وهي قوله (يمشى به فى الناس) إشارة إلى كونه مستحضراً لتلك الجلالا

القدسية ناظراً إليها ، وعند هذا تتم درجات سعادات النفس الانسانية ، ويمكن أن يقال أيضاً الحياة

عبارة عن الاستعداد القائم بجوهر الروح ، والنور عبارة عن إيصال نور الوحي والتنزيل به .

فانه لا بد فى الابصار من أمرين : من سلامة الحاسة ، ومن طلوع الشمس ، فكذلك

البصيرة لا بد فيها من أمرين : من سلامة حاسة العقل ، ومن طلوع نور الوحي والتنزيل ، فلهذا

السبب قال المفسرون : المراد بهذا النور . القرآن . ومنهم من قال : هو نور الدين ، ومنهم من قال :

هو نور الحكمة ، والاقوال بأسرها متقاربة ، والتحقيق ما ذكرناه . وأما مثل الكافر (فهو كمن فى

الظلمات ليس بخارج منها) وفى قوله (ليس بخارج منها) دقيقة عقلية ، وهى أن الشئ إذا دام حصوله

مع الشئ صار كالأمر الذاتى والصفة اللازمة له . فإذا دام كونه الكافر فى ظلمات الجهل والاخلاق

الذميمة صارت تلك الظلمات كالصفة الذاتية اللازمة له يعسر إزالتها عنه ، نعوذ بالله من هذه الحالة .

وأيضاً الواقف فى الظلمات يبقى متحيراً لا يهتدى إلى وجه صلاحه فيستولى عليه الخوف والفرع ،

والعجز والوقوف .

« (المسألة الرابعة) » اختلفوا فى أن هذين المثليين المذكورين هل هما مخصوصان بانسانين معينين

أو عامان فى كل مؤمن وكافر . فيه قولان : الأول : أنه خاص بانسانين على التعيين ، ثم فيه وجوه :

الأول : قال ابن عباس : إن أبا جهل رمى النبي صلى الله عليه وسلم بفرث وحمزة يومئذ لم يؤمن ،

فأخبر حمزة بذلك عند قدومه من صيد له والقوس بيده ، فعمد إلى أبى جهل وتوخاه بالقوس ،

وجعل يضرب رأسه ، فقال له أبو جهل : أما ترى ما جاء به ؟ سفه عقولنا ، وسب آلهتنا ، فقال

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْأَبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا

بأنفسهم وَمَا يشْعُرُونَ «١٢٣»

حمزة: أنتم أسفه الناس، تعبدون الحجارة من دون الله، أشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، فنزلت هذه الآية.

﴿والرواية الثانية﴾ قال مقاتل: نزلت هذه الآية في النبي صلى الله عليه وسلم وأبي جهل وذلك أنه قال: زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف، حتى إذا صرنا ككفرسى رهان، قالوا منا نبي يوحى إليه، والله لا تؤمن به، إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه فنزلت هذه الآية.

﴿والرواية الثالثة﴾ قال عكرمة والكلبى: نزلت في عمار بن ياسر وأبي جهل.

﴿والرواية الرابعة﴾ قال الضحاک: نزلت في عمر بن الخطاب وأبي جهل.

﴿والقول الثاني﴾ إن هذه الآية عامة في حق جميع المؤمنين والكافرين، وهذا هو الحق، لأن

المعنى إذا كان حاصلا في الكل، كان التخصيص محض التحكم، وأيضا قد ذكرنا أن هذه السورة نزلت دفعة واحدة، فالقول بأن سبب نزول هذه الآية المعينة، كذا وكذا مشكل، إلا إذا قيل إن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن مراد الله تعالى من هذه الآية العامة، فلان بعينه.

﴿المسألة الخامسة﴾ هذه الآية من أقوى الدلائل أيضا على أن الكفر والايمان من الله

تعالى، لأن قوله (فأحييناه) وقوله (وجعلنا له نورا يمشى به في الناس) قد بينا أنه كناية عن المعرفة والهدى، وذلك يدل على أن كل هذه الأمور إنما تحصل من الله تعالى وبأذنه، والدلائل العقلية ساعدت على صحته، وهو دليل الداعي على ما لخصناه، وأيضا أن عاقلا لا يختار الجهل والكفر لنفسه، فمن المحال أن يختار الانسان جعل نفسه جاهلا كافرا، فلما قصد تحصيل الايمان والمعرفة، ولم يحصل ذلك، وإنما حصل ضده وهو الكفر والجهل، علمنا أن ذلك حصل بايجاد غيره.

فان قالوا إنما اختاره لاعتقاده في ذلك الجهل أنه علم

قلنا: فحاصل هذا الكلام أنه إنما اختار هذا الجهل لسابقة جهل آخر، فان كان الكلام في ذلك الجهل السابق كما في المسبوق لزم الذهاب إلى غير النهاية، وإلا فوجب الانتهاء إلى جهل يحصل فيه لا بايجاد وتكوينه، وهو المطلوب.

قوله تعالى ﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يَمْكُرُونَ إِلَّا بآنفسهم

وما يشْعُرُونَ﴾ فيه مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ «الكاف» في قوله (وكذلك) يوجب التشبيه ، وفيه قولان : الأول : وما جعلنا في مكة صنائد لها ليمكروا فيها ، كذلك جعلنا في كل قرية أكابرا مجرميها . الثاني : أنه معطوف على ما قبله ، أي كما زينا للكافرين أعمالهم . كذلك جعلنا .

﴿المسألة الثانية﴾ الأكابرا جمع الأكابرا الذي هو اسم ، والآية على التقديم والتأخير تقديره : جعلنا مجرميها أكابرا . ولا يجوز أن يكون الأكابرا مضافة ، فإنه لا يتم المعنى ، ويحتاج إلى إضمار المفعول الثاني للجعل ، لأنك إذا قلت : جعلت زيدا ، وسكت ، لم يفد الكلام حتى تقول رئيسا أو ذليلا أو ما أشبه ذلك ، لاقتضاء الجعل مفعولين ، ولأنك إذا أضفت الأكابرا ، فقد أضفت الصفة إلى الموصوف . وذلك لا يجوز عند البصريين .

﴿المسألة الثالثة﴾ صار تقدير الآية : جعلنا في كل قرية مجرميها أكابرا ليمكروا فيها ، وذلك يقتضى أنه تعالى إنما جعلهم بهذه الصفة ، لأنه أراد منهم أن يمكروا بالناس ، فهذا أيضا يدل على أن الخير والشر بارادة الله تعالى .

أجاب الجبائي عنه : بأن حمل هذه اللام على لام العاقبة . وذكر غيره أنه تعالى لما لم يمنهم عن المكر صار شديبا بما إذا أراد ذلك ، فجاء الكلام على سبيل التشبيه ، وهذا السؤال مع جوابه قد تكرر مرارا خارجة عن الحد والحصر .

﴿المسألة الرابعة﴾ قال الزجاج : إنما جعل المجرمين أكابرا ، لأنهم لأجل رياستهم أقدر على الغدر والمكر وترويح الأباطيل على الناس من غيرهم ، ولأن كثرة المال وقوة الجاه تحمل الانسان على المبالغة في حفظهما . وذلك الحفظ لا يتم إلا بجميع الأخلاق الذميمة من الغدر والمكر ، والكذب ، والغيبة . والنميمة ، والأيمان الكاذبة . ولو لم يكن للمال والجاه عيب سوى أن الله تعالى حكم بأنه إنما وصف بهذه الصفات الذميمة من كان له مال وجاه ، لكفى ذلك دليلا على خساسة المال والجاه .

ثم قال تعالى ﴿وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون﴾ والمراد منه ما ذكره الله تعالى في آية أخرى ، وهى قوله (ولا يحيق المكر السىء إلا بأهله) وقد ذكرنا حقيقة ذلك في أول سورة البقرة في تفسير قوله تعالى (الله يستهزى بهم) قالت المعتزلة : لاشك أن قوله (وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون) مذكور في معرض التهديد والزجر ، فلو كان ما قبل هذه الآية يدل على أنه تعالى أراد منهم أن يمكروا بالناس ، فكيف يليق بالرحيم الكريم الحكيم الحليم أن يريد منهم المكر ، ويخلق فيهم المكر . ثم يهددهم عابه ويعاقبهم أشد العقاب عليه ؟ واعلم أن معارضة هذا الكلام

وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُلَ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ
 حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ
 بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

بالوجوه المشهورة قد ذكرناها مرارا .

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُلَ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾
 اعلم أنه تعالى حكى عن مكر هؤلاء الكفار وحسدكم أنهم متى ظهرت لهم معجزة قاهرة تدل
 على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . قالوا : لن نؤمن حتى يحصل لنا مثل هذا المنصب من عند الله ،
 وهذا يدل على نهاية حسدكم ، وأنهم إنما بقوا مصرين على الكفر لا لطلب الحجة والدلائل ، بل
 لنهاية الحسد . قال المفسرون : قال الوليد بن المغيرة . والله لو كانت النبوة حقاً لكنت أنا أحق بها
 من محمد ، فاني أكثر منه مالا وولدا ، فنزلت هذه الآية . وقال الضحاك : أراد كل واحد منهم أن
 يخص بالوحي والرسالة . كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله (بل يريد كل اسرى منهم أن يؤتى صحفاً
 منشرة) فظاهر الآية التي نحن في تفسيرها يدل على ذلك أيضاً لأنه تعالى قال (وإذا جاءتهم آية قالوا
 لن نؤمن حتى تؤتى مثل ما أوتى رسل الله) وهذا يدل على أن جماعة منهم كانوا يقولون هذا الكلام .
 وأيضاً فاقبل هذه الآية يدل على ذلك أيضاً . وهو قوله (وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها
 ليكفروا فيها) ثم ذكر عقيب تلك الآية أنهم قالوا (لن نؤمن حتى تؤتى مثل ما أوتى رسل الله)
 وظاهره يدل على أن المكرم المذكور في الآية الأولى هو هذا الكلام الخبيث .

وأما قوله تعالى ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُلَ اللَّهِ ﴾ ففيه قولان :

﴿القول الأول﴾ وهو المشهور ، أراد القوم أن تحصل لهم النبوة والرسالة . كما حصلت لمحمد
 عليه الصلاة والسلام ، وأن يكونوا متبوعين لاتباعين ، ومخدومين لآخادمين .

﴿والقول الثاني﴾ وهو قول الحسن . ومنقول عن ابن عباس : أن المعنى ، وإذا جاءتهم آية
 من القرآن تأمرهم باتباع النبي . قالوا (لن نؤمن حتى تؤتى مثل ما أوتى رسل الله) وهو قول مشركي
 العرب (لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) إلى قوله (حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه)

من الله إلى أبي جهل ، وإلى فلان وفلان كتابا على حدة ، وعلى هذا التقدير : فالقوم ماطلبوا النبوة ، وإنما طلبوا أن تأتيهم آيات قاهرة ومعجزات ظاهرة مثل معجزات الأنبياء المتقدمين كي تدل على صحة نبوة محمد عليه الصلاة والسلام . قال المحققون : والقول الأول أقوى وأولى ، لأن قوله (الله أعلم حيث يجعل رسالته) لا يليق إلا بالقول الأول ولمن ينصر القول الثاني أن يقول : إنهم لما افترحوا تلك الآيات القاهرة ، فلو أجابهم الله اليها وأظهر تلك المعجزات على وفق التماسهم ، لكانوا قد قربوا من منصب الرسالة ، وحينئذ يصلح أن يكون قوله (الله أعلم حيث يجعل رسالته) جوابا على هذا الكلام .

وأما قوله (الله أعلم حيث يجعل رسالته) فالمعنى أن للرسالة موصفا مخصوصا لا يصلح وضعها إلا فيه ، فمن كان مخصوصا موصوفا بتلك الصفات التي لأجلها يصلح وضع الرسالة فيه كان رسولا وإلا فلا ، والعالم بتلك الصفات ليس إلا الله تعالى .

واعلم أن الناس اختلفوا في هذه المسألة ، فقال بعضهم : النفوس والأرواح متساوية في تمام المساهمة ، فحصول النبوة والرسالة لبعضها دون البعض تشريف من الله واحسان وتفضل . وقال آخرون : بل النفوس البشرية مختلفة بجواهرها وماهياتها ، فبعضها خيرة طاهرة من علائق الجسمانيات مشرقة بالأنوار الالهية مستعملية منورة . وبعضها خسيصة كدرة محبة للجسمانيات ، فالنفس مالم تكن من القسم الأول ، لم تصلح لقبول الوحي والرسالة . ثم إن القسم الأول يقع الاختلاف فيه بالزيادة والنقصان والقوة والضعف إلى مراتب لانهاية لها ، فلا جرم كانت مراتب الرسل مختلفة ، فمنهم من حصلت له المعجزات القوية والتبع القليل ، ومنهم من حصلت له معجزة واحدة أو اثنتان وحصل له تبع عظيم ، ومنهم من كان الرفق غالبا عليه ، ومنهم من كان التشديد غالبا عليه ، وهذا النوع من البحث فيه استقصاء ، ولا يليق ذكره بهذا الموضع وقوله تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) فيه تنبيه على دققة أخرى . وهي : أن أقل ما لا بد منه في حصول النبوة والرسالة البراءة عن المكر والغدر ، والغل والحسد . وقوله (لن تؤمن حتى تؤتى مثل ما أوتى رسل الله) عين المكر والغدر والحسد ، فكيف يعقل حصول النبوة والرسالة مع هذه الصفات ؟ ثم بين تعالى أنهم الكونهم موصوفين بهذه الصفات الذميمة سيصيبهم صغار عند الله وعذاب شديد وتقريره ان الثواب لا يتم إلا بأمرين ، التعظيم والمنفعة . والعقاب أيضا إنما يتم بأمرين : الاهانة والضرر . والله تعالى توعدهم بمجموع هذين الأمرين ، في هذه الآية ، أما الاهانة فقوله (سيصيبهم صغار عند الله وعذاب شديد) وإنما قدم ذكر الصغار على ذكر الضرر ، لأن القوم إنما تمردوا عن طاعة

فَمَنْ يُرِدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ
صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَمَّا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ «١٢٥»

حمد عليه الصلاة والسلام طلبا للعز والكرامة ، فالله تعالى بين أنه يقابلهم بضد مطالبهم ، فأول ما يوصل إليهم إنما يوصل الصغار والذل والهوان . وفي قوله (صغار عند الله) وجود : الأول : أن يكون المراد أن هذا الصغار إنما يحصل في الآخرة ، حيث لاحاكم ينفذ حكمه سواء . والثاني : أنهم يصيبهم صغار بحكم الله وإجابه في دار الدنيا ، فلما كان ذلك "صغار هذا حاله . جار أن يضاف إلى عند الله . الثالث . أن يكون المراد (سيصيب الذين أجرموا صغار) ثم استأنف . وقال (عند الله) أى معد لهم ذلك ، والمقصود منه التأكيد . الرابع : أن يكون المراد صغار من عند الله . وعلى هذا التقدير : فلا بد من إضمار كلمة «من» وأما بيان الضرر و"عذاب . فهو قوله (وعذاب شديد) فحصل بهذا الكلام أنه تعالى أعد لهم الخزي العظيم والعذاب الشديد . ثم بين أن ذلك إنما يصيبهم لأجل مكرهم وكنبهم وحسدكم .

قوله تعالى ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾
في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ تمسك أصحابنا بهذه الآية في بيان أن الضلال والهداية من الله تعالى .

واعلم أن هذه الآية كما أن لفظها يدل على قولنا . فلفظها أيضا يدل على الدليل "تقاطع العقلي الذي في هذه المسألة ، وبيانه أن العبد قادر على الإيمان وقادر على الكفر ، فقدرته بالنسبة إلى هذين الأمرين حاصلة على السوية . فيمتنع صدور الإيمان عنه بدلا من الكفر أو الكفر بدلا من الإيمان ، إلا إذا حصل في القلب داعية إليه . وقد بينا ذلك مرارا كثيرة في هذا الكتاب . وتلك الداعية لا معنى لها إلا علمه أو اعتقاده أو ظنه بكون ذلك الفعل مشتملا على مصلحة زائدة ومنفعة راجحة . فانه إذا حصل هذا المعنى في القلب دعاه ذلك إلى فعل ذلك الشيء . وإن حصل في القلب علم أو اعتقاد أو ظن بكون ذلك الفعل مشتملا على ضرر زائد ومفسدة راجحة دعاه ذلك إلى

تركه ، وبيننا بالدليل أن حصول هذه الدواعي لا بد وأن يكون من الله تعالى ، وان مجموع القدرة مع الداعي يوجب الفعل .

إذا ثبت هذا فقول : يستحيل أن يصدر الايمان عن العبد إلا إذا خاق الله في قلبه اعتقاد أن الايمان راجح المنفعة زائد المصاحبة ، وإذا حصل في القلب هذا الاعتقاد مال القلب ، وحصل في النفس رغبة شديدة في تحصيله ، وهذا هو انشراح الصدر للايمان . فأما إذا حصل في القلب اعتقاد أن الايمان بمحمد مثلا سبب مفسدة عظيمة في الدين والدنيا ، ويوجب المضار الكثيرة ، فعند هذا يترتب على حصول هذا الاعتقاد نفرة شديدة عن الايمان بمحمد عليه الصلاة والسلام ، وهذا هو المراد من أنه تعالى يجعل صدره ضيقا حرجا ، فصارت تقدير الآية : أن من أراد الله تعالى منه الايمان قوى دواعيه إلى الايمان ، ومن أراد الله منه الكفر قوى صوارفه عن الايمان ، وقوى دواعيه إلى الكفر . ولما ثبت بالدليل العقلي أن الأمر كذلك ، ثبت أن لفظ القرآن مشتمل على هذه الدلائل العقلية ، وإذا انطبق قاطع البرهان على صريح لفظ القرآن ، فليس وراءه بيان ولا برهان . قالت المعتزلة : لنا في هذه الآية مقامان :

﴿المقام الأول﴾ بيان أنه لا دلالة في هذه الآية على قولكم .

﴿المقام الثاني﴾ مقام التأويل المطابق لمذهبنا وقولنا .

أما المقام الأول : فتقريره من وجوه :

﴿الوجه الأول﴾ أن هذه الآية ليس فيها أنه تعالى أضل قوما أو يضلهم ، لأنه ليس فيها أكثر من أنه متى أراد أن يهدي إنسانا فعل به كيت وكيت . وإذا أراد إضلاله فعل به كيت وكيت ، وليس في الآية أنه تعالى يريد ذلك أولا يريد . والدليل عليه أنه تعالى قال (لو أردنا أن نتخذها لو لا اتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين) فبين تعالى أنه يفعل اللهم لو أراد . ولا خلاف أنه تعالى لا يريد ذلك ولا يفعله .

﴿الوجه الثاني﴾ أنه تعالى لم يقل : ومن يرد أن يضل عن الإسلام ، بل قال (ومن يرد أن يضل) فلم قلتم أن المراد ؟ ومن يرد أن يضل عن الايمان .

﴿الوجه الثالث﴾ أنه تعالى بين في آخر الآية أنه إنما يفعل هذا الفعل بهذا الكافر جزاء على كفره ، وأنه ليس ذلك على سبيل الابتداء ، فقال (كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) ﴿الوجه الرابع﴾ أن قوله (ومن يرد أن يضل) يجعل صدره ضيقا حرجا فهذا يشعر بأن جعل الصدر ضيقا حرجا يتقدم حصوله على حصول الضلالة ، وأن لحصول ذلك المتقدم أثرا في حصول

الضلال وذلك باطل بالاجماع . أما عندنا : فلا نقول به . وأما عندكم : فلأن المقتضى لحصول الجهل والضلال هو أن الله تعالى يخلقه فيه لقدرته . فثبت بهذه الوجود الأربعة أن هذه الآية لا تدل على قولكم .

﴿ أما المقام الثاني ﴾ وهو أن تفسير هذه الآية على وجه يليق بقولنا . فتقرير من وجوه : الأول : وهو الذي اختاره الجبائي ، ونصره القاضي ، فنقول : تقدير الآية : ومن يرد الله أن يهديه يوم القيامة الى طريق الجنة ، يشرح صدره للإسلام حتى يثبت عليه . ولا يزول عنه ، وتفسير هذا الشرح هو أنه تعالى يفعل به أظافاً تدعوه الى البقاء على الايمان والثبات عليه . وفي هذا النوع أظاف لا يمكن فعلها بالمؤمن . إلا بعد أن يصير مؤمناً ، وهي بعد أن يصير الرجل مؤمناً يدعوه الى البقاء على الايمان والثبات عليه وإليه الإشارة بقوله تعالى (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) وبقوله (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) فإذا آمن عبد وأراد الله ثباته ثبته ثم يشرح صدره . أى يفعل به اللطاف التي تقتضى ثباته على الايمان ودوامه عليه . فاما إذا كفر وعاند ، وأراد الله تعالى أن يضلّه عن طريق الجنة . فعند ذلك يأتي في صدره الضيق والحرج . ثم سأل الجبائي نفسه وقال : كيف يصح ذلك ونجد الكفار طيبي النفوس لا غم لهم البتة ولا حزن ؟

وأجاب عنه : بأنه تعالى لم يخبر بأنه يفعل بهم ذلك في كل وقت فلا يمتنع كونهم في بعض الأوقات طيبي القلوب . وسأل القاضي نفسه على هذا الجواب سؤالاً آخر فقال : فيجب أن تقطعوا في كل كافر بأنه يجد من نفسه ذلك الضيق والحرج في بعض الأوقات .

وأجاب عنه بأن قال : وكذلك نقول ودفع ذلك لا يمكن خصوصاً عند ورود أدلة الله تعالى وعند ظهور نصرته الله للمؤمنين . وعند ظهور الذلة والصغار فيهم . هذا غاية تقرير هذا الجواب . ﴿ والوجه الثاني ﴾ في التأويل قالوا لم لا يجوز أن يقال : المراد من يرد الله أن يهديه الى الجنة يشرح صدره للإسلام ؟ أى يشرح صدره للإسلام في ذلك الوقت الذي يهديه فيه الى الجنة ، لأنه لما رأى أن بسبب الايمان وجد هذه الدرجة العالية . والمرتبة الشريفة يزداد رغبة في الايمان . ويحصل في قلبه مزيد انشراح وميل إليه . ومن يرد أن يضلّه يوم القيامة عن طريق الجنة ، ففي ذلك الوقت يضيق صدره ، ويحرج صدره بسبب الحزن الشديد الذي ناله عند الحرمان من الجنة والدخول في النار . قالوا : فهذا وجه قريب واللفظ محتمل له ، فوجب حمل اللفظ عليه .

﴿ والوجه الثالث ﴾ في التأويل أن يقال : حصل في الكلام تقديم وتأخير . فيكون المعنى من شرح صدر نفسه بالايمان فقد أراد الله أن يهديه أى يخصه بالالطاف الداعية الى الثبات على الايمان . أو يهديه بمعنى أنه يهديه الى طريق الجنة ، ومن جعل صدره ضيقاً حرجاً عن الايمان ،

فقد أراد الله أن يضله عن طريق الجنة ، أو يضله بمعنى أنه يحرمه عن الاطاف الداعية إلى الثبات على الايمان ، فهذا هو مجموع كلامهم في هذا الباب .

والجواب عما قالوه أولاً : من أن الله تعالى لم يقل في هذه الآية أنه يضله ، بل المذكور فيه أنه لو أراد أن يضله لفعل كذا وكذا .

فنقول : قوله تعالى في آخر الآية (كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) تصريح بأنه يفعل بهم ذلك الاضلال لأن حرف «الكاف» في قوله (كذلك) يفيد التشبيه . والتقدير: وكأجعلنا ذلك الضيق والخرج في صدره . فكذلك نجعل الرجس على قلوب الذين لا يؤمنون .
والجواب عما قالوه ثانياً وهو قوله : ومن يرد الله أن يضله عن الدين .

فنقول : إن قوله في آخر الآية (كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) تصريح بأن المراد من قوله (ومن يرد أن يضله) هو أنه يضله عن الدين .

والجواب عما قالوه ثالثاً : من أن قوله (كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) يدل على أنه تعالى إنما يلقى ذلك الضيق والخرج في صدورهم جزاء على كفرهم .

فنقول : لانسلم أن المراد ذلك ، بل المراد كذلك يجعل الله الرجس على قلوب الذين قضى عليهم بأنهم لا يؤمنون ، وإذا حملنا هذه الآية على هذا الوجه ، سقط ما ذكره .

والجواب عما قالوه رابعاً : من أن ظاهر الآية يقتضى أن يكون ضيق الصدر وخرجه شيئاً متقدماً على الضلال وموجباً له .

فنقول : الأمر كذلك ، لأنه تعالى إذا خلق في قلبه اعتقاداً بأن الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم يوجب الذم في الدنيا والعقوبة في الآخرة . فهذا الاعتقاد يوجب إعراض النفس ونفور القلب عن قبول ذلك الايمان ويحصل في ذلك القلب نفرة ونبوة عن قبول ذلك الايمان وهذه الحالة شبيهة بالضيق الشديد ، لأن الطريق إذا كان ضيقاً لم يقدر الداخل على أن يدخل فيه ، فكذلك القلب إذا حصل فيه هذا الاعتقاد امتنع دخول الايمان فيه . فلأجل حصول هذه المشابهة من هذا الوجه ، أطلق لفظ الضيق والخرج عليه ، فقد سقط هذا الكلام .

(وأما الوجه الأول) من التأويلات الثلاثة التي ذكروها .

فالجواب عنه : أن حاصل ذلك الكلام يرجع إلى تفصيل الضيق والخرج باستيلاء الغم والحزن على قلب الكافر ، وهذا بعيد . لأنه تعالى ميز الكافر عن المؤمن بهذا الضيق والخرج . فلو

كان المراد منه حصول الغم والحزن في قلب الكافر ، لوجب أن يكون ما يحصل في قلب الكافر من الغموم والهموم والأحزان أزيد مما يحصل في قلب المؤمن زيادة يعرفها كل أحد . ومعلوم أنه ليس الأمر كذلك ، بل الأمر في حزن الكافر والمؤمن على السوية . بل الحزن والبلاء في حق المؤمن أكثر . قال تعالى (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سفقاً من فضة) وقال عليه السلام « خص البلاء بالأنبياء ثم بالأولياء ثم الأمثل فالأمثل »

(وأما الوجه الثاني) من التأويلات الثلاثة فهو أيضاً مدفوع . لأنه يرجع حاصله إلى إيضاح الواضحات لأن كل أحد يعلم بالضرورة أن كل من هداه الله تعالى إلى الجنة بسبب الإيمان فإنه يفرح بسبب تلك الهداية وينشرح صدره للإيمان مزيد انشراح في ذلك الوقت . وكذلك القول في قوله (ومن يرد أن يضله) المراد من يضله عن طريق الجنة فإنه يضيق قلبه في ذلك الوقت فان حصول هذا المعنى معلوم بالضرورة . فحمل الآية عليه إخراج لهذه الآية من الفائدة .

(وأما الوجه الثالث) من الوجوه الثلاثة . فهو يقتضى تفكيك نظم الآية . وذلك لأن الآية تقتضى أن يحصل انشراح الصدر من قبل الله أولاً . ثم يترتب عليه حصول الهداية والإيمان . وأتم عكستم القضية فقلتم العبد يجعل نفسه أولاً منشراح الصدر . ثم إن الله تعالى بعد ذلك يهديه . بمعنى أنه يخصه بمزيد الألفاظ الداعية له إلى الثبات على الإيمان . والدلائل اللفظية إنما يمكن التمسك بها إذا أبقينا ما فيها من التركيبات والترتبات فأما إذا أبطلناها وأزلناها لم يمكن التمسك بشيء منها أصلاً ، وفتح هذا الباب يوجب أن لا يمكن التمسك بشيء من الآيات . وإنه طعن في القرآن وإخراج له عن كونه حجة . فهذا هو الكلام الفصل في هذه السؤالات . ثم إننا نختم الكلام في هذه المسألة بهذه الخاتمة القاهرة . وهي أنا بينا أن فعل الإيمان يتوقف على أن يحصل في القلب داعية جازمة إلى فعل الإيمان وفاعل تلك الداعية هو الله تعالى . وكذلك القول في جانب الكفر ولفظ الآية منطبق على هذا المعنى ، لأن تقدير الآية فمن يرد الله أن يهديه قولى في قلبه ما يدعو إلى الإيمان ومن يرد أن يضله ألقى في قلبه ما يصرفه عن الإيمان ويدعوه إلى الكفر . وقد ثبت بالبرهان العقلى ان الأمر يجب أن يكون كذلك . وعلى هذا التقدير : فجميع ما ذكرتموه من السؤالات ساقط ، والله تعالى أعلم بالصواب .

(المسألة الثالثة) في تفسير ألفاظ الآية ، أما شرح الصدر ففي تفسيره وجهان :

(الوجه الأول) قال الليث : يقال شرح الله صدره فانشراح أى وسع صدره لقبول ذلك الأمر فتوسع . وأقول : إن الليث فسر شرح الصدر بتوسيع الصدر . ولا شك أنه ليس المراد منه أن

يوسع صدره على سبيل الحقيقة ، لأنه لا شبهة أن ذلك محال ، بل لا بد من تفسير توسيع الصدر فنقول : تحقيقه ما ذكرناه فيما تقدم ولا بأس باعادته. فنقول إذا اعتقد الانسان في عمل من الأعمال أن نفعه زائد وخيره راجح مال طبعه اليه ، وقويت رغبته في حصوله وحصل في القلب استعداد شديد لتحقيقه ، فتسمى هذه الحالة بسعة النفس ، وإذا اعتقد في عمل من الأعمال أن شره زائد وضرره راجح عظمت النفرة عنه وحصل في الطبع نفرة ونبوة عن قبوله ، ومعلوم أن الطريق إذا كان ضيقا لم يتمكن الداخل من الدخول فيه ، وإذا كان واسعا قدر الداخل على الدخول فيه فإذا حصل اعتقاد أن الأمر الغلاني زائد النفع والخير وحصل الميل اليه ، فقد حصل ذلك الميل في ذلك القلب ، فقيل : اتسع الصدر له وإذا حصل اعتقاد أنه زائد الضرر والمفسدة لم يحصل في القلب ميل إليه فقيل إنه ضيق فقد صار الصدر شبيها بالطريق الضيق الذي لا يمكن الدخول فيه ، فهذا تحقيق الكلام في سعة الصدر وضيقه .

﴿والوجه الثاني﴾ في تفسير الشرح يقال : شرح فلان أمره إذا أظهره وأوضحه وشرح المسألة إذا كانت مشكلة فيها .

واعلم أن لفظ الشرح غير مختص بالجانب الحق ، لأنه وارد في الاسلام في قوله (أفمن شرح الله صدره للاسلام) وفي الكفر في قوله (ولكن من شرح بالكفر صدرا) قال المفسرون : لما نزلت هذه الآية سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل له : كيف يشرح الله صدره ؟ فقال عليه السلام «يقذف فيه نورا حتى ينفسح وينشرح» فقيل له وهل لذلك من أمانة يعرف بها ؟ فقال عليه السلام «الانابة إلى دار الخلود والتجاني عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت» وأقول هذا الحديث من أدل الدلائل على صحة ما ذكرناه في تفسير شرح الله الصدر ، وتقريره أن الانسان إذا تصور أن الاشتغال بعمل الآخرة زائد النفع والخير ، وأن الاشتغال بعمل الدنيا زائد الضرر والشر ، فإذا حصل الجزم بذلك إما بالبرهان أو بالتجربة أو التقليد لا بد وأن يترتب على حصول هذا الاعتقاد حصول الرغبة في الآخرة ، وهو المراد من الانابة إلى دار الخلود والنفرة عن دار الدنيا ، وهو المراد من التجاني عن دار الغرور ، وأما الاستعداد للموت قبل نزول الموت فهو مشتمل على الأمرين. أعنى النفرة عن الدنيا والرغبة في الآخرة .

إذا عرفت هذا فنقول : الداعي إلى الفعل لا بد وأن يحصل قبل حصول الفعل ، وشرح الصدر للايمان عبارة عن حصول الداعي إلى الايمان ، فلهذا المعنى أشعر ظاهر هذه الآية بأن شرح الصدر متقدم على حصول الاسلام ، وكذا القول في جانب الكفر .
أما قوله ﴿ومن يرد أن يصله يجعل صدره ضيقا حرجا﴾ ففيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ قرأ ابن كثير (ضيقاً) ساكنة الياء وكذا في كل القرآن . والباقون مشددة الياء مكسورة ، فيحتمل أن يكون المشدد والمخفف بمعنى واحد . كسيد وسيد . وهين وهين ولين ولين ، وميت وميت . وقرأ نافع وأبو بكر عن عاصم (حرجاً) بكسر الراء . والباقون بفتحها قال الفراء : وهو في كسره ونصبه بمنزلة الوجل والوجل ، والقرود والقرود . والذنف والذنف . قال الزجاج : الحرج في اللغة أضيح الضيق ومعناه : أنه ضيق جداً . فمن قال : أنه رجل حرج الصدر بفتح الراء فمعناه : ذو حرج في صدره . ومن قال : حرج جعله فاعلاً . وكذلك رجل ذنف ذو ذنف ، وذنف نعت .

﴿ البحث الثاني ﴾ قال بعضهم : الحرج . بكسر الراء الضيق . والحرج بالفتح جمع حرجة ، وهو الموضوع الكثير الاشجار الذي لاتناله الراعية . وحكى الواحدى في هذا الباب حكاييتين : إحداهما : روى عن عبيد بن عمير عن ابن عباس أنه قرأ هذه الآية وقال : هل ههنا أحد من بنى بكر . قال رجل : نعم . قال : ما الحرجة فيكم . قال : الوادى الكثير الشجر المشتبك الذى لا طر يق فيه . فقال ابن عباس . كذلك قلب الكافر . والثانية : روى الواحدى عن أبى الصلت الثقفى قال : قرأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه هذه الآية . ثم قال : اثبتونى برجل من كنانة جعلوه راعياً فاتوا به . فقال له عمر : يا فتى ما الحرجة فيكم . قال : الحرجة فينا الشجرة تحديق بها الاشجار فلا يصل اليها راعية ولا وحشية . فقال عمر : كذلك قلب الكافر لا يصل اليه شىء من الخير .

أما قوله تعالى ﴿ كأنما يصعد في السماء ﴾ ففيه بحثان :

﴿ البحث الأول ﴾ قرأ ابن كثير (يصعد) ساكنة الصاد وقرأ أبو بكر عن عاصم (يصاعد) بالألف وتشديد الصاد بمعنى يتصاعد ، والباقون (يصعد) بتشديد الصاد والعين بغير ألف . أما قراءة ابن كثير (يصعد) فهي من الصعود ، والمعنى : أنه فى نفوره عن الاسلام وثقله عليه بمنزلة من تكلف الصعود إلى السماء ، فكأن ذلك التكليف ثقيل على القلب . فكذلك الايمان ثقيل على قلب الكافر وأما قراءة أبى بكر (يصاعد) فهو مثل يتصاعد . وأما قراءة الباقيين (يصعد) فهي بمعنى يتصعد ، فادغمت التاء فى الصاد ومعنى يتصعد يتكلف ما يثقل عليه .

﴿ البحث الثاني ﴾ فى كيفية هذا التشبيه وجهان : الأول : كأن الانسان إذا كلف الصعود إلى السماء ثقل ذلك التكليف عليه ، وعظم وصعب عليه ، وقويت نفرتة عنه . فكذلك الكافر يثقل عليه الايمان وتعظم نفرتة عنه . والثانى : أن يكون التقدير أن قلبه ينبو عن الاسلام ويتباعد عن قبول الايمان ، فشبّه ذلك البعد ببعد من يصعد من الأرض إلى السماء .

أما قوله ﴿كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾ فقيه بحثان

﴿البحث الأول﴾ السكاف في قوله (كذلك) يفيد التشبيه بشيء . وفيه وجهان : الأول :

التقدير أن يجعل الله الرجس عليهم كجعله ضيق الصدر في قلوبهم . والثاني : قال الزجاج التقدير :
مثل ما قصصنا عليك ، يجعل الله الرجس .

﴿البحث الثاني﴾ اختلفوا في تفسير (الرجس) فقال ابن عباس: هو الشيطان يسلمه الله عليهم

وقال مجاهد (الرجس) ما لا خير فيه . وقال عطاء (الرجس) العذاب . وقال الزجاج (الرجس)
اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة

ولنختم تفسير هذه الآية بما روى عن محمد بن كعب القرظي أنه قال تذاكرنا في أمر القدرية
عند ابن عمر . فقال : لعنت القدرية على لسان سبعين نبيا . منهم نبينا صلى الله عليه وسلم ، فإذا كان يوم
القيامة نادى نادى مناد ، وقد جمع الناس بحيث يسمع الكل أين خصماء الله . فتقوم القدرية وقد أورد
القاضي هذا الحديث في تفسيره . وقال : هذا الحديث من أقوى ما يدل على أن القدرية هم الذين
ينسبون أفعال العباد الى الله تعالى قضاء وقدرًا وخلقًا ، لأن الذين يقولون هذا القول ، هم خصماء
الله . لأنهم يقولون لله أى ذنب لنا حتى تعاقبنا ، وأنت الذى خلقته فينا وأرادته منا ، وقضيته
عالمنا ، ولم تخلقنا الا له ، وما يسرت لنا غيره ، فهؤلاء لا بد وأن يكونوا خصماء الله بسبب هذه
الحجة أما الذين قالوا : ان الله مكن وأزاح العلة ، وإنما أتى العبد من قبل نفسه ، فكلامه موافق
لما يعامل به من انزال العقوبة ، فلا يكونون خصماء الله ، بل يكونون منقادين لله هذا كلام القاضى
وهو عجيب جدا وذلك لأنه يقال له يبعد منك انك ما عرفت من مذاهب خصوصك انه ليس للعبد
على الله حجة ولا استحقاق بوجه من الوجود ، وأن كل ما يفعله الرب فى العبد فهو حكمة وصواب ،
وليس للعبد على الرب اعتراض ولا مناظرة ، فكيف يصير الانسان الذى هذا دينه واعتقاده
خصما لله تعالى . أما الذين يكونون خصماء لله فهم المعتزلة وتقريره من وجوه : الأول : انه يدعى
عليه وجوب الثواب والعوض ، ويقول : لو لم تعطنى ذلك لخرجت عن الالهية وصرت معزولا
عن الربوبية وصرت من جملة السفهاء ، فهذا الذى مذهبه واعتقاده ذلك هو الخصم لله تعالى .
والثانى : أن من واظب على الكفر سبعين سنة ، ثم انه فى آخر زمن حياته قال : لا اله الا الله
محمد رسول الله عن القلب ، ثم مات ، ثم ان رب العالمين أعطاه النعم الفائقة والدرجات الزائدة ألف
ألف سنة ، ثم أراد أن يقطع تلك النعم عنه لحظة واحدة ، فذلك العبد يقول : أيها الاله إياك ، ثم
إياك أن تترك ذلك لحظة واحدة ، فانك ان تركته لحظة واحدة صرت معزولا عن الالهية

والحاصل : أن إقدام ذلك العبد على ذلك الايمان لحظة واحدة أو جب على الاله إيصال تلك النعم مدة لا آخر لها ، ولا طريق له البتة إلى الخلاص عن هذه العهدة ، فهذا هو الخصومة . أما من يقول إنه لاحق لأحد من الملائكة والأنبياء على الله تعالى . وكل ما يوصل اليهم من الثواب فهو تفضل وإحسان من الله تعالى ، فهذا لا يكون خصما .

﴿والوجه الثالث﴾ في تقرير هذه الخصومة ما حكى أن الشيخ أبا الحسن الأشعري لما فارق مجلس أستاذه أبي علي الجبائي وترك مذهبه وكثير اعتراضه على أقاويله عظمت الوحشة بينهما فاتفق أن يوما من الأيام عقدا الجبائي مجلس التذكير وحضر عنده عالم من الناس ، وذهب الشيخ أبو الحسن إلى ذلك المجلس ، وجلس في بعض الجوانب مختلفيا عن الجبائي ، وقال لبعض من حضر هناك من العجائز إني أعلمك مسألة فاذكريها لهذا الشيخ قولي له كان لي ثلاثة من البنين واحد كان في غاية الدين والزهد ، والثاني كان في غاية الكفر والفسق ، والثالث كان صديقا لم يبلغ ، فما تولى هذه الصفات فأخبرني أيها الشيخ عن أحوالهم . فقال الجبائي : أما الزاهد ، ففي درجات الجنة . وأما الكافر ، ففي درجات النار ، وأما الصبي ، فمن أهل السلامة . قال قولي له : لو أن الصبي أراد أن يذهب إلى تلك الدرجات العالية التي حصل فيها أخوه الزاهد هل يمكن منه . فقال الجبائي : لا لأن الله يقول له إمتا وصل إلى تلك الدرجات العالية بسبب أنه أتعب نفسه في العلم والعمل . وأنت فليس معك ذلك فقال أبو الحسن : قولي له لو أن الصبي حينئذ يقول : يارب العالمين ايس الذنبي لي . لأنك أمتني قبل البلوغ ولو أمهلتنى فربما زدت على أخي الزاهد في الزهد والدين . فقال الجبائي : يقول الله له علمت أنك لو عشت لطغيت وكفرت وكنت تستوحب النار ، فقبل أن تصل إلى تلك الحالة راعيت مصلحتك وأمتك حتى تنجو من العقاب . فقال أبو الحسن : قولي له لو أن الأخ الكافر الفاسق رفع رأسه من الدرك الأسفل من النار ، فقال : يارب العالمين ، ويأأحكم الحاكمين ، ويأأرحم الراحمين . كما علمت من ذلك الأخ الصغير أنه لو بلغ كفر علمت مني ذلك . فلم راعيت مصلحته ومارعيت مصلحتي ؟ قال الراوي : فلما وصل الكلام إلى هذا الموضع انقطع الجبائي . فلما نظر رأي أبي الحسن . فعلم أن هذه المسألة منه ، لا من العجوز . ثم إن أبا الحسين البصري جاء بعد أربعة أدوار أو أكثر من بعد الجبائي فأراد أن يجيب عن هذا السؤال . فقال : نحن لا نرضى في حق هؤلاء الاخرة الثلاثة بهذا الجواب الذي ذكرتم ، بل لنا ههنا جوابان آخران سوى ما ذكرتم . ثم قال : وهو مبني على مسألة اختلفت شيو خنا فيها ، وهي أنه هل يجب على الله أن يكلف العبد أم لا ؟ فقل البصريون : التكليف محض التفضل والاحسان . وهو غير واجب على الله تعالى . وقال البغداديون : إنه واجب

على الله تعالى . قال : فان فرعنا على قول البصريين ، فله تعالى أن يقول لذلك الصبي إني طولت عمر الأخ الزاهد ، وكلفته على سبيل التفضل ولم يلزم من كونى متفضلاً على أخيك الزاهد بهذا التفضل أن أكون متفضلاً عليك بمثله . وأما إن فرعنا على قول البغداديين . فالجواب أن يقال : إن إطالة عمر أخيك وتوجيه التكليف عليه كان إحساناً في حقه ، ولم يلزم منه عود مفسدة إلى الغير فلا جرم . فعلمته وأما إطالة عمرك وتوجيه التكليف عليك كان يلزم منه عود مفسدة إلى غيرك ، فهذا السبب ما فعلت ذلك في حقتك فظهر الفرق . هذا تلخيص كلام أبي الحسين البصرى سعيماً منه في تخلص شيخه المتقدم عن سؤال الأشعري ، بل سعيماً منه في تخلص إلهه عن سؤال العبد ، وأقول قبل الخوض في الجواب عن كلام أبي الحسين : صحة هذه المناظرة الدقيقة بين العبد وبين الله ، إنما لزم على قول المعتزلة . وأما على قول أصحابنا رحمهم الله فلا مناظرة البتة بين العبد وبين الرب ، وليس للعبد أن يقول لربه ، لم فعلت كذا ؟ أو ما فعلت كذا . فثبت أن خصماء الله هم المعتزلة ، لأهل السنة ، وذلك بقوى غرضنا ويحصل مقصودنا ، ثم نقول :

أما الجواب الأول : وهو أن إطالة العمر وتوجيه التكليف تفضل . فيجوز أن يخص به بعضاً دون بعض . فنقول : هذا الكلام مدفوع ، لأنه تعالى لما أوصل التفضل إلى أحدهما ، فالامتناع من إيصاله إلى الثاني قبيح من الله تعالى ، لأن الإيصال إلى هذا الثاني . ليس فعلاً شاقاً على الله تعالى ، ولا يوجب دخول نقصان في ملكه بوجه من الوجوه ، وهذا الثاني يحتاج إلى ذلك التفضل ومثل هذا الامتناع قبيح في الشاهد . ألا ترى أن من منع غيره من النظر في مرآته المنصوبة على الجدار لعامة الناس قبيح ذلك منه . لأنه منع من النفع من غير اندفاع ضرر إليه ، ولا وصول نفع إليه فان كان حكم العقل بالتحسين والتقييح مقبولاً . فليكن مقبولاً ههنا ، وإن لم يكن مقبولاً لم يكن مقبولاً البتة في شيء من المواضع ، وتبطل كلية مذهبكم . فثبت أن هذا الجواب فاسد .

وأما الجواب الثاني : فهو أيضاً فاسد ، وذلك لأن قولنا تكليفه يتضمن مفسدة ليس معناها أن هذا التكليف يوجب لذاته حصول تلك المفسدة ، وإلا لزم أن تحصل هذه المفسدة أبداً في حق الكل وأنه باطل ، بل معناها : أن الله تعالى علم أنه إذا كلف هذا الشخص . فان إنساناً آخر يختار من قبل نفسه فعلاً قبيحاً . فان اقتضى هذا القدر أن يترك الله تكليفه . فكذلك قد علم من ذلك الكافر أنه إذا كلفه فانه يختار الكفر عند ذلك التكليف ، فوجب أن يترك تكليفه ، وذلك يوجب قبح تكليف من علم الله من حاله أنه يكفر ، وإن لم يجب ههنا لم يجب هنالك . وأما القول بأنه يجب عليه تعالى ترك التكليف إذا علم أن غيره يختار فعلاً قبيحاً عند ذلك التكليف ، ولا يجب عليه تركه

وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ «١٢٦»

إذا علم تعالى أن ذلك الشخص يختار القبيح عند ذلك التكليف . فهذا محض التحكم . فثبت أن الجواب الذي استخرجه أبو الحسين بلطيف فكره . ودقيق نظره بعد أربعة أدوار ضعيف . وظهر أن خصماء الله هم المعتزلة . لأصحابنا . والله أعلم .

قوله تعالى ﴿وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون﴾

في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قوله (وهذا) إشارة إلى مذکور تقدم ذكره . وفيه قولان : الأول : وهو الأقوى عندي أنه إشارة إلى ما ذكره وقرره في الآية المتقدمة وهو أن الفعل يتوقف على الداعي وحصول تلك الداعية من الله تعالى ، فوجب كون الفعل من الله تعالى ، وذلك يوجب التوحيد المحض وهو كونه تعالى مبدئاً لجميع الكائنات والممكنات ، وإنما سماه صراطاً لأن العلم به يؤدي إلى العلم بالتوحيد الحق ، وإنما وصفه بكونه مستقيماً لأن قول المعتزلة غير مستقيم ، وذلك لأن رجحان أحد طرفي الممكن على الآخر إما أن يتوقف على المرجح أولاً يتوقف . فإن توقف على المرجح لزم أن يقال الفعل لا يصدر عن القادر إلا عند انضمام الداعي إليه ، وحينئذ يتم قولنا . ويكون الكل بتضاء الله وقدره ويبطل قول المعتزلة . وإما أن لا يتوقف رجحان أحد طرفي الممكن على الآخر على مرجح ووجب أن يحصل هذا الاستغناء في كل الممكنات والمحدثات . وحينئذ يلزم نفي الصنع والصانع وإبطال القول بالفعل والفاعل والتأثير والمؤثر . فأما القول بأن هذا الرجحان يحتاج إلى المؤثر في بعض الصور دون البعض كما يقوله هؤلاء المعتزلة فهو معوج غير مستقيم . إنما المستقيم هو الحكم بثبوت الحاجة على الإطلاق ، وذلك يوجب عين مذهبنا . فهذا القول هو المختار عندي في تفسير هذه الآية .

﴿القول الثاني﴾ أن قوله (وهذا صراط ربك مستقيماً) إشارة إلى كل ما سبق ذكره في كل القرآن قال ابن عباس : يريد هذا الذي أنت عليه يا محمد دين ربك مستقيماً وقال ابن مسعود يعني القرآن . والقول الأول أولى . لأن عود الإشارة إلى أقرب المذكورات أولى .

وإذا ثبت هذا فنقول : لما أمر الله تعالى بمتابعة ما في الآية المتقدمة ووجب أن تكون من المحكمات لا من المتشابهات لأنه تعالى إذا ذكر شيئاً وبالغ في الأمر بالتمسك به والرجوع إليه والتعويل عليه ووجب أن يكون من المحكمات . فثبت أن الآية المتقدمة من المحكمات وأنه يجب إجراؤها

لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ «١٢٧»

على ظاهرها ويحرم التصرف فيها بالتأويل .

﴿المسألة الثانية﴾ قال الواحدي : انتصب مستقيماً على الحال ، والعامل فيه معنى «هذا» وذلك لأن «ذا» يتضمن معنى الإشارة . كقولك : هذا زيد قائماً معناه أشير إليه في حال قيامه . وإذا كان العامل في الحال معنى الفعل لا الفعل ، لم يجز تقديم الحال عليه لاجوز قائماً هذا زيد ، ويجوز ضاحكاً جاء زيد .

أما قوله : «قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون﴾

فنقول : أما تفصيل الآيات فمعناه ذكرها فصلاً فصلاً بحيث لا يختلط واحد منها بالآخر . والله تعالى قد بين صحة القول بالقضاء والقدر في آيات كثيرة من هذه السورة متوالية متعاقبة ، بطرق كثيرة ووجوه مختلفة . وأما قوله (لقوم يذكرون) فالذي أظنه والعلم عند الله أنه تعالى إنما جعل مقطع هذه الآية هذه اللفظة لأنه تقرر في عقل كل واحد أن أحد طرفي الممكن لا يترجح على الآخر إلا المرجح ، فكأنه تعالى يقول للمعتزلي : أيها المعتزلي تذكر ما تقرر في عقلك أن الممكن لا يترجح أحد طرفيه على الآخر . إلا المرجح ، حتى تزول الشبهة عن قلبك بالكلية في مسألة القضاء والقدر .

قوله تعالى ﴿لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون﴾

اعلم أنه تعالى لما بين عظيم نعمه في الصراط المستقيم وبين أنه تعالى معد مهيب لمن يكون من المذكورين بين الفائدة الشريفة التي تحصل من التمسك بذلك الصراط المستقيم ، فقال (لهم دار السلام عند ربهم) وفي هذه الآية تشریفات .

﴿النوع الأول﴾ قوله (لهم دار السلام) وهذا يوجب الحصر . فمعناه : لهم دار السلام لا لغيرهم ، وفي قوله (دار السلام) قولان :

﴿القول الأول﴾ أن السلام من أسماء الله تعالى ، فدار السلام هي الدار المضافة إلى الله تعالى ، كما قيل للكعبة - بيت الله تعالى - وللخليفة - عبدالله -

﴿والقول الثاني﴾ أن السلام صفة الدار ، ثم فيه وجهان : الأول : المعنى دار السلامة ، والعرب تلحق هذه الهاء في كثير من المصادر وتحذفها يقولون ضلال وضلالة ، وسفاه وسفاهة ، ولذا ولذا ، ورضاع ورضاعة . الثاني : أن السلام جمع السلامة ، وإنما سميت الجنة بهذا الاسم لأن

أنواع السلامة حاصلة فيها بأسرها .

إذا عرفت هذين القولين : فالقائلون بالقول الأول قالوا به لأنه أولى . لأن إضافة الدار إلى الله تعالى نهاية في تشريفها وتعظيمها وإكبار قدرها ، فكان ذكر هذه الإضافة مبالغة في تعظيم الأمر والقائلون بالقول الثاني رجحوا قولهم من وجهين : الأول : أن وصف الدار بكونها دار السلامة أدخل في الترغيب من إضافة الدار إلى الله تعالى . والثاني : أن وصف الله تعالى بأنه السلام في الأصل مجاز . وإنما وصف بذلك لأنه تعالى ذو السلام ، فإذا أمكن حمل الكلام على حقيقته كان أولى .

﴿ النوع الثاني ﴾ من الفوائد المذكورة في هذه الآية قوله (عند ربهم) وفي تفسيره وجود : ﴿ الوجه الأول ﴾ المراد أنه معد عنده تعالى كما تكون الحقوق معدة مهيأة حاضرة ، ونظيره قوله تعالى (جزاؤهم عند ربهم) وذلك نهاية في بيان وصولهم إليها ، وكونهم على ثقة من ذلك . ﴿ الوجه الثاني ﴾ وهو الأقرب إلى التحقيق أن قوله (عند ربهم) يشعر بأن ذلك الأمر المدخر موصوف بالقرب من الله تعالى . وهذا القرب لا يكون بالمكان والجهة ، فوجب كونه بالشرف والعلو والرتبة ، وذلك يدل على أن ذلك الشيء بلغ في الكمال والرفعة إلى حيث لا يعرف كنهه إلا الله تعالى ، ونظيره قوله تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين)

﴿ الوجه الثالث ﴾ أنه قال في صفة الملائكة (ومن عنده لا يستكبرون) وقال في صفة المؤمنين في الدنيا - أنا عند المنكسرة قلوبهم لأجلى - وقال أيضا - أنا عند ظن عبدي بي - وقال في صفتهم يوم القيامة (في مقعد صدق عند مليك مقتدر) وقال في دارهم (لهم دار السلام عند ربهم) وقال في ثوابهم (جزاؤهم عند ربهم) وذلك يدل على أن حصول كمال صفة العبودية بواسطة صفة العندية .

﴿ النوع الثالث ﴾ من التشریفات المذكورة في هذه الآية قوله (وهو وليهم) والولى معناه القريب ، فقوله (عند ربهم) يدل على قربهم من الله تعالى ، وقوله (وهو وليهم) يدل على قرب الله منهم ، ولا نرى في العقل درجة للبعد أعلى من هذه الدرجة . وأيضاً فقوله (وهو وليهم) يفيد الحصر . أى لا ولى لهم إلا هو ، وكيف وهذا التشریف إنما حصل على التوحيد المذكور في قوله (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً) فهؤلاء الأقسام قد عرفوا من هذه الآية أن المدبر والمقدر ليس إلا هو . وأن النافع والضار ليس إلا هو . وأن المسعد والمشقى ليس إلا هو ، وأنه لا مبدىء للكائنات والممكنات إلا هو . فليسا عرفوا هذا انقطعوا عن كل ما سواه . فما كان رجوعهم إلا إليه ، وما كان توكلهم إلا عليه ، وما كان أنسهم إلا به .

وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَامَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ
أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ
النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ «١٢٨»

وما كان خضوعهم إلا له ، فلما صاروا بالكلية ، لاجرم قال تعالى (وهو وليهم) وهذا إخبار بأنه
تعالى متكفل بجميع مصالحهم في الدين والدنيا ، ويدخل فيها الحفظ والحراسة والمعونة والنصرة
وإيصال الخيرات ودفْع الآفات والبلبات .

ثم قال تعالى ﴿بما كانوا يعملون﴾ وإنما ذكر ذلك لئلا ينقطع المرء عن العمل ، فإن العمل
لا بد منه ، وتحقيق القول فيه : أن بين النفس والبدن تعلقا شديدا ، فكما أن الهيات النفسانية قد
تنزل من النفس إلى البدن ، مثل ما إذا تصور أمرا مغضبا ظهر الأثر عليه في البدن ، فيسخن البدن
ويحمى ، فكذلك الهيات البدنية قد تصعد من البدن إلى النفس ، فاذا واظب الانسان على أعمال
البر والخير ظهرت الآثار المناسبة لها في جوهر النفس ، وذلك يدل على أن السالك لا بد له من
العمل ، وأنه لا سبيل له إلى تركه البتة .

قوله تعالى ﴿ويوم يحشرهم جميعا يامعشر الجن قد استكثرتهم من الانس وقال أولياؤهم من
الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا
ما شاء الله إن ربك حكيم عليم﴾

اعلم أنه تعالى لما بين حال من يتمسك بالصرط المستقيم ، بين بعده حال من يكون بالضد من
ذلك لتسكون قصة أهل الجنة مردفة بقصة أهل النار ، وليكون الوعيد مذكورا بعد الوعد ،
وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ (ويوم يحشرهم) منصوب بمحذوف ، أى واذا كرى يوم نحشرهم ، أو يوم نحشرهم
قلنا يامعشر الجن ، أو يوم نحشرهم وقلنا يامعشر الجن ، كان مالا يوصف لفضاعته .

﴿المسألة الثانية﴾ الضمير فى قوله (ويوم يحشرهم) إلى ماذا يعود؟ فيه قولان : الأول : يعود
إلى المعلوم . لا إلى المذكور ، وهو الثقلان ، وجميع المكلفين الذين علم أن الله يبعثهم . والثانى : أنه
عائد إلى الشياطين الذين تقدم ذكرهم فى قوله (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن
يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا)

﴿المسألة الثالثة﴾ في الآية محذوف والتقدير: يوم نحشرهم جميعا فنقول: يا معشر الجن، فيكون هذا القائل هو الله تعالى، كما أنه الحاشر لجميعهم، وهذا القول منه تعالى بعد الحشر لا يكون إلا تبكيئا وبيانا لجهة أنهم وإن توردوا في الدنيا فينتهي حالهم في الآخرة إلى الاستسلام والانقياد والاعتراف بالجرم. وقال الزجاج: التقدير فيقال لهم يا معشر الجن، لأنه بعد أن يتكلم الله تعالى بنفسه مع الكفار، بدليل قوله تعالى في صفة الكفار (ولا يكلمهم الله يوم القيامة)

أما قوله تعالى ﴿قد استكثرتم من الانس﴾ فنقول: هذا لا بد فيه من التأويل. لأن الجن لا يقدر على الاستكثار من نفس الانس، لأن القادر على الجسم وعلى الأحياء والفعل ليس إلا الله تعالى، فوجب أن يكون المراد قد استكثرتم من الدعاء إلى الضلال مع مصادفة القول. أما قوله ﴿وقال أولياؤهم من الانس﴾ فالأقرب أن فيه حذفاً، فكما قال للجن تبكيئا، فكذلك قال للانس توييخا. لأنه حصل من الجن الدعاء، ومن الانس القبول، والمشاركة حاصلة بين الفريقين، فلما بكت تعالى كلا الفريقين حكى ههنا جواب الانس، وهو قولهم: ربنا استمتع بعضنا ببعض فوصفوا أنفسهم بالتوفر على منافع الدنيا، والاستمتاع بلذاتها إلى أن باغوا هذا المبلغ الذي عنده أيقنوا بسوء عاقبتهم. ثم ههنا قولان: الأول: أن قولهم استمتع بعضنا ببعض، المراد منه أنه استمتع الجن بالانس والانس بالجن. وعلى هذا القول ففي المراد بذلك الاستمتاع قولان:

﴿القول الأول﴾ أن معنى هذا الاستمتاع هو أن الرجل كان إذا سافر فأسمى بأرض قفر وخاف على نفسه قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، فبييت آمناً في نفسه. فهذا استمتاع الانس بالجن، وأما استمتاع الجن بالانس فهو أن الانسى إذا عاذ بالجنى، كان ذلك تعظيماً منهم للجن، وذلك الجنى يقول: قد سدت الجن والانس، لأن الانسى قد اعترف له بأنه يقدر أن يدفع عنه، وهذا قول الحسن. وعكرمة والكلبى وابن جريج واحتجوا على صحته بقوله تعالى (وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن)

﴿والوجه الثاني﴾ في تفسير هذا الاستمتاع أن الانس كانوا يطيعون الجن وينقادون لحكمهم فصار الجن كالرؤسا، والانس كالاتباع والخدامين المطيعين المنقادين الذين لا يخالفون رئيسهم ومخدومهم في قليل ولا كثير، ولا شك أن هذا الرئيس قد انتفع بهذا الخادم، فهذا استمتاع الجن بالانس. وأما استمتاع الانس بالجن، فهو أن الجن كانوا يدلونهم على أنواع الشهوات واللذات والطيبات ويسهلون تلك الأمور عليهم، وهذا القول اختيار الزجاج. قال: وهذا أولى من الوجه المتقدم، والدليل عليه قوله تعالى (قد استكثرتم من الانس) ومن كان يقول من الانس أعوذ بسيد هذا الوادي، قليل.

﴿والقول الثاني﴾ أن قوله تعالى (ربنا استمتع بعضنا ببعض) هو كلام الانس خاصة ، لأن استمتاع الجن بالانس وبالعكس أمر قليل نادر لا يكاد يظهر . أما استمتاع بعض الانس ببعض ، فهو أمر ظاهر . فوجب حمل الكلام عليه ، وأيضا قوله تعالى (وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض) كلام الانس الذين هم أولياء الجن ، فوجب أن يكون المراد من استمتاع بعضهم ببعض استمتاع بعض أولئك القوم ببعض

ثم قال تعالى حكاية عنهم ﴿وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا﴾ فالمعنى : أن ذلك الاستمتاع كان حاصلًا إلى أجل معين ووقت محدود . ثم جاءت الخيبة والحسرة والندامة من حيث لا تتفجع ، واختلفوا في أن ذلك الأجل أى الأوقات ؟ فقال بعضهم : هو وقت الموت . وقال آخرون : هو وقت التخلىة والتمكين . وقال قوم : المراد وقت المحاسبة فى القيامة . والذين قالوا بالقول الأول قالوا انه يدل على أن كل من مات من مقتول وغيره فانه يموت بأجله ، لأنهم أقرؤا أنا بلغنا أجلنا الذى أجلت لنا ، وفيهم المقتول وغير المقتول

ثم قال تعالى ﴿قال النارمشواكم﴾ المثوى : المقام والمقر والمصير ، تم لا يبعد أن يكون للانسان مقام ومقر ثم يموت ويتخلص بالموت عن ذلك المثوى ، فبين تعالى أن ذلك المقام والمثوى مخلد مؤبد وهو قوله (خالدین فیها)

ثم قال تعالى ﴿إلاماشاء الله﴾ وفيه وجود : الأول : أن المراد منه استثناء أوقات المحاسبة ، لأن فى تلك الأحوال ليسوا بخالدین فى النار : الثانى : المراد ، الأوقات التى ينقلون فيها من عذاب النار إلى عذاب الزمهير . وروى أنهم يدخلون واديا فيه برد شديد فهم يطلبون الرد من ذلك البرد إلى حر الجحيم . الثالث : قال ابن عباس : استثنى الله تعالى قوما سبق فى علمه أنهم يسلمون ويصدقون النبى صلى الله عليه وسلم . وعلى هذا القول يجب أن تكون «ما» بمعنى «من» قال الزجاج : والقول الأول أولى . لأن معنى الاستثناء انما هو من يوم القيامة ، لأن قوله (ويوم يحشرهم جميعا) هو يوم القيامة .

ثم قال تعالى (خالدین فیها) منذ يبعثون (إلاماشاء الله) من مقدار حشرهم من قبورهم ومقدار مدتهم فى محاسبتهم . الرابع : قال أبو مسلم : هذا الاستثناء غير راجع إلى الخلود ، وإنما هو راجع إلى الأجل المؤجل لهم ، فكأنهم قالوا : وبلغنا الأجل الذى أجلت لنا ، أى الذى سميت له لنا إلا من أهلكته قبل الأجل المسمى . كقوله تعالى (ألم يروا كم أهلكتنا قبلهم من قرن) وكما فعل فى قوم نوح وعاد وثمود من أهلكه الله تعالى قبل الأجل الذى لو آمنوا ، لبقوا إلى الوصول إليه فتلخيص الكلام

وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ «١٩٣»

أن يقولوا : استمتع بعضنا ببعض ، وبلغنا ما سميت لنا من الأجل إلا من شئت أن تحترمه فاخترته قبل ذلك بكفره وضلاله .

واعلم أن هذا الوجه وان كان محتملاً إلا أنه ترك لظاهر ترتيب ألفاظ هذه الآية . ولما أمكن إجراء الآية على ظاهرها فلا حاجة إلى هذا التكلف .

ثم قال ﴿ إن ربك حكيم عليم ﴾ أى فيما يفعله من ثواب وعقاب وسائر وجوه المجازاة . وكأنه تعالى يقول : إنما حكمت لهؤلاء الكفار بعذاب الأبد لعلهم يستحسبون ذلك . والله أعلم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال أبو علي الفارسي : قوله (النار مشواكم) المشوى اسم للمصدر دون المكان لأن قوله (خالد بن) فيها حال واسم الموضوع لا يعمل عمل الفعل فقوله (النار مشواكم) معناه : "نار أهل أن تقيموا فيها خالد بن .

قوله تعالى ﴿ وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في الآية فوائد :

﴿ الفائدة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى لما حكى عن الجن والأنس أن بعضهم يتولى بعضاً بين أن ذلك إنما يحصل بتقديره وقضائه ، فقال (وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً) والدليل على أن الأمر كذلك . أن القدرة سالحة للطرفين أعنى العداوة والصدقة . فلولا حصول الداعية إلى الصدقة لما حصلت الصدقة ، وتلك الداعية لا تحصل إلا بخلق الله تعالى قطعاً للتسلسل . فثبت بهذا البرهان أنه تعالى هو الذى يولى بعض الظالمين بعضاً . وبهذا التقرير تصير هذه الآية دليلاً لنا فى مسألة الجبر والقدر .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ أنه تعالى لما بين فى أهل الجنة أن لهم دار السلام . بين أنه تعالى وليهم بمعنى الحفظ والحراسة والمعونة والنصرة . فكذلك لما بين حال أهل النار ذكر أن مقرهم ومشواهم النار ، ثم بين أن أولياءهم من يشبههم فى الظلم والحزى والنكال وهذه مناسبة حسنة لطيفة .

﴿ الفائدة الثالثة ﴾ كاف التشبيه فى قوله (وكذلك نولي) تقتضى شيئاً تقدم ذكره . والتقدير : كأنه قال كما أنزلت بالجن والأنس الذين تقدم ذكرهم العذاب الأليم الدائم الذى لا مخلص منه (كذلك نولي بعض الظالمين بعضاً)

﴿ الفائدة الرابعة ﴾ (وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً) لأن الجنسيه علة الضم ، فالأرواح

يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي
وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّبْتُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾

الخبثية تنضم إلى مايشاكلها في الخبث ، وكذا القول في الارواح الطاهرة ، فكل أحد يهتم بشأن من يشاكله في النصرة والمعونة والتقوية . والله أعلم .

﴿المسألة الثانية﴾ الآية تدل على أن الرعية متى كانوا ظالمين ، فأنه تعالى يساط عليهم ظلما مثلهم فان أرادوا أن يتخلصوا من ذلك الأمير الظالم فليتركوا الظلم . وأيضا الآية تدل على أنه لا بد في الخلق من أمير وحاكم . لأنه تعالى إذا كان لا يخلى أهل الظلم من أمير ظالم ، فبأن لا يخلى أهل الصلاح من أمير يحملهم على زيادة الصلاح كان أولى . قال على رضى الله عنه : لا يصلح للناس إلا أمير عادل أو جائر ، فأنكروا قوله (أو جائر) فقال : نعم يؤمن السبيل ، ويمكن من إقامة الصلوات ، وحج البيت . وروى أن أبا ذر سأل الرسول صلى الله عليه وسلم الامارة ، فقال له : «إنك ضعيف وإنها أمانة وهي في القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها» وعن مالك بن دينار : جاء في بعض كتب الله تعالى - أنا الله مالك الملوك قلوب الملوك ونواصيها بيدى فمن أطاعنى جعلتهم عليه رحمة ومن عصانى جعلتهم عليه نقمة لا تشغلوا أنفسكم بسبب الملوك لكن توبوا إلى أعظفهم عليكم -

﴿أما قوله بما كانوا يكسبون﴾ فالمعنى نولى بعض الظالمين بعضا بسبب كون ذلك البعض مكتسبا للظلم ، والمراد منه ما بينا أن الجنسية علة للضم .

قوله تعالى ﴿يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغربتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ اعلم أن هذه الآية من بقية ما يذكره الله تعالى في توبيخ الكفار يوم القيامة ، وبين تعالى أنه لا يكون لهم إل الجحود سبيل ، فيشهدون على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين ، وإنهم لم يعدبوا إلا بالحجة . وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال أهل اللغة : المعشر . كل جماعة أمرهم واحد ، ويحصل بينهم معايشة

ومخالطة ، والجمع : المعاشر . وقوله (رسل منكم) اختلفوا هل كان من الجن رسول أم لا ؟ فقال الضحاك : أرسل من الجن رسل كالأنس وتلا هذه الآية وتلا قوله (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) ويمكن أن يحتاج الضحاك بوجه آخر وهو قوله تعالى (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا) قال المفسرون : السبب فيه أن استئناس الانسان بالانسان أكمل من استئناسه بالملك ، فوجب في حكمة الله تعالى أن يجعل رسول الانس من الانس ليكمل هذا الاستئناس .

إذا ثبت هذا المعنى ، فهذا السبب حاصل في الجن . فوجب أن يكون رسول الجن من الجن . (والقول الثاني) وهو قول الأكثرين : أنه ما كان من الجن رسول البتة . وإنما كان الرسل من الأنس . وما رأيت في تقرير هذا القول حجة الا ادعاء الاجماع ، وهو بعيد لأنه كينف . يعتقد الاجماع مع حصول الاختلاف ، ويمكن أن يستدل فيه بقوله تعالى (ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين) وأجمعوا على أن المراد بهذا الاصطفاء إنما هو النبوة ، فوجب كون النبوة مخصوصة بهؤلاء القوم فقط ، فاما تمسك الضحاك بظاهر هذه الآية . فالكلام عليه من وجوه : الأول : أنه تعالى قال (يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم) فهذا يقتضى أن رسل الجن والانس تكون بعضها من أبعاض هذا المجموع . واذا كان الرسل من الانس كان الرسل بعضها من أبعاض ذلك المجموع ، فكان هذا القدر كافيا في حمل اللفظ على ظاهره . فلم يلزم من ظاهر هذه الآية إثبات رسول من الجن . الثاني : لا يبعد أن يقال : إن الرسل كانوا من الأنس إلا أنه تعالى كان يلقى الداعية في قلوب قوم من الجن حتى يسمعوا كلام الرسل ويأتوا قومهم من الجن ويخبرونهم بما سمعوه من الرسل وينذرونهم به . كما قال تعالى (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن) فأوائك الجن كانوا رسل الرسل . فكانوا رسلا لله تعالى . والدليل عليه : أنه تعالى سمى رسل عيسى رسل نفسه . فقال (إذ أرسلنا إليهم اثنين) وتحقيق القول فيه أنه تعالى إنما بكت الكفار بهذه الآية لأنه تعالى أزال العذر وأزاح العلة . بسبب أنه أرسل الرسل إلى الكل مبشرين ومنذرين . فاذا وصلت البشارة والنذارة إلى الكل بهذا الطريق . فقد حصل ما هو المقصود من ازالة العذر وإزالة العلة ، فكان المقصود حاصلًا .

(الوجه الثالث) في الجواب قال الواحدى : قوله تعالى (رسل منكم) أراد من أحدكم وهو الأنس وهو كقوله (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) أى من أحدهما وهو الملح الذى ليس بعذب . واعلم أن الوجهين الأولين لا حاجة معهما إلى ترك الظاهر . أما هذا الثالث فإنه يوجب ترك الظاهر ، ولا يجوز المصير اليه إلا بالدليل المنفصل .

ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ «١٣١»

أما قوله (يقصون عليكم آياتي) فالمراد منه التنبيه على الأدلة بالتلاوة وبالتأويل (وينذرونكم لقاء يومكم هذا) أي يخوفونكم عذاب هذا اليوم فلم يجدوا عند ذلك الا الاعتراف ، فلذلك قالوا : شهدنا على أنفسنا .

فان قالوا : ما السبب في أنهم أقرؤا في هذه الآية بالكفر ووجدوه في قوله (والله ربنا ما كنا مشركين)

قلنا يوم القيامة يوم طويل والأحوال فيه مختلفة ، فتارة يقرون ، وأخرى يجحدون ، وذلك يدل على شدة خوفهم واضطراب أحوالهم ، فان من عظم خوفه كثر الاضطراب في كلامه .

ثم قال تعالى ﴿وغرتهم الحياة الدنيا﴾ والمعنى أنهم لما أقرؤا على أنفسهم بالكفر ، فكأنه تعالى يقول ، وإنما وقعوا في ذلك الكفر بسبب أنهم غرتهم الحياة الدنيا .

ثم قال تعالى ﴿وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ والمراد أنهم وأن بالغوا في عداوة الأنبياء والطعن في شرائعهم ومعجزاتهم ، إلا ان عاقبة أمرهم انهم أقرؤا على أنفسهم بالكفر ، ومن الناس من حمل قوله (وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) بأن تشهد عليهم الجوارح بالشرك والكفر ، ومقصودهم دفع التكرار عن الآية ، وكيفما كان ، فالملقود من شرح أحوالهم في القيامة زجرهم في الدنيا عن الكفر والمعصية .

واعلم أن أصحابنا يتمسكون بقوله تعالى (ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا) على أنه لا يحصل الوجوب البتة قبل ورود الشرع ، فانه لو حصل الوجوب واستحقاق العقاب قبل ورود الشرع لم يكن لهذا التعليل والذكر فائدة .

قوله تعالى ﴿ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون﴾

اعلم أنه تعالى لما بين انه ما عذب الكفار إلا بعد أن بعث اليهم الأنبياء والرسل بين بهذه الآية أن هذا هو العدل والحق والواجب ، وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال صاحب الكشاف : قوله (ذلك) إشارة إلى ما تقدم من بعثة الرسل إليهم وإنذارهم سوء العاقبة وهو خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير : الأمر ذلك .

وأما قوله ﴿أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم﴾ ففيه وجوه : أحدها : أنه تعليل ، والمعنى :

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (١٣٢)

الأمر ما قصصنا عليك لا تتفاء كون ربك مهلك القرى بظلم . وكلمة «أن» ههنا هي التي تنصب الافعال ، وثانيها : يجوز أن تكون مخففة من الثقيلة . والمعنى لأنه لم يكن ربك مهلك القرى بظلم والضمير في قوله لأنه ضمير الشأن والحديث والتقدير . لأن الشأن والحديث لم يكن ربك مهلك القرى بظلم . وثالثها : أن يجعل قوله (أن لم يكن ربك) بدلا من قوله (ذلك) كقولنا (وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين)

وأما قوله ﴿بظلم﴾ ففيه وجهان : الأول : أن يكون المعنى ، وما كان ربك مهلك القرى بسبب ظلم أقدموا عليه . والثاني : أن يكون المراد . وما كان ربك مهلك القرى ظلما عليهم . وهو كقولنا (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصاحون) في سورة هود . فعلى الوجه الأول يكون الظلم فعلا للكفار ، وعلى الثاني يكون عائدا إلى فعل الله تعالى ، والوجه الأول أليق بقولنا . لأن القول الثاني يوهم أنه تعالى لو أهلكتهم قبل بعثة الرسل كان ظلما . وليس الأمر عندنا كذلك . لأنه تعالى يحكم ما يشاء . ويفعل ما يريد ، ولا اعتراض عليه لأحد في شيء من أفعاله . وأما المعتزلة : فهذا القول الثاني مطابق لمذهبهم موافق لمعتقدهم . وأما أصحابنا فنفسر الآية بهذا الوجه الثاني . قال : إنه تعالى لو فعل ذلك لم يكن ظلما لكنه يكون في صورة الظالم فيما بيننا . فوصف بكونه ظلما مجازا ، وتام الكلام في هذين القولين المذكورين في سورة هود عند قوله (بظلم وأهلها مصاحون)

وأما قوله ﴿وأهلها غافلون﴾ فليس المراد من هذه الغفلة أن يتغافل المرء عما يؤعظ به . بل معناها أن لا يبين الله لهم كيفية الحال ، ولا أن يزيل عندهم وعظمتهم .

واعلم أن أصحابنا يتمسكون بهذه الآية في إثبات أنه لا يحصل الوجوب قبل الشرع . وأن العقل المحض لا يدل على الوجوب البتة . قالوا : لأنها تدل على أنه تعالى لا يعذب أحدا على أمر من الأمور إلا بعد البعثة للرسول . والمعتزلة قالوا : إنها تدل من وجه آخر على أن الوجوب قد يتقرر قبل مجيء الشرع ، لأنه تعالى قال (أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون) فهذا الظلم إما أن يكون عائدا إلى العبد أو إلى الله تعالى . فان كان الأول . فهذا يدل على إمكان أن يصدر منه الظلم قبل البعثة . وإنما يكون الفعل ظلما قبل البعثة ، لو كان قبحا وذنبا قبل بعثة الرسل . وذلك هو المطلوب ، وإن كان الثاني فذلك يقتضى أن يكون هذا الفعل قبحا من الله تعالى . وذلك لا يتم إلا مع الاعتراف بتحسين العقل وتقييحه .

قوله تعالى ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ
 كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ «١٣٣» إِنْ مَا تُوْعَدُونَ لَأَتِيَنَّكُمْ
 بِمُعْجِزِينَ «١٣٤»

في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ ابن عامر وحده (تعملون) بالتاء على الخطاب ، والباقون بالياء على الغيبة .
 ﴿المسألة الثانية﴾ اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال أهل الثواب والدرجات ، وأحوال أهل
 العقاب والدرجات ذكر كلاما كلياً ، فقال (ولكل درجات مما عملوا) وفي الآية قولان :

﴿القول الأول﴾ أن قوله (ولكل درجات مما عملوا) عام في المطيع والعاصي ، والتقدير :
 ولكل عامل عمل فله في عمله درجات ، فتارة يكون في درجة ناقصة ، وتارة يترقى منها إلى درجة
 كاملة ، وأنه تعالى عالم بها على التفصيل التام . فرتب على كل درجة من تلك الدرجات ما يليق به
 من الجزاء . إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

﴿والقول الثاني﴾ أن قوله (ولكل درجات مما عملوا) مختص بأهل الطاعة ، لأن لفظ
 الدرجة لا يليق إلا بهم . وقوله (وما ربك بغافل عما تعملون) مختص بأهل الكفر والمعصية
 والصواب هو الأول .

﴿المسألة الثالثة﴾ اعلم أن هذه الآية تدل أيضاً على صحة قولنا في مسألة الجبر والقدر ، وذلك
 لأنه تعالى حكم لكل واحد في وقت معين بحسب فعل معين بدرجة معينة ، وعلم تلك الدرجة بعينها
 وأثبت تلك الدرجة المعينة في اللوح المحفوظ وأشهد عليه زمر الملائكة المقربين ، فلو لم تحصل
 تلك الدرجة لذلك الانسان لبطل ذلك الحكم ، ولصار ذلك العلم جهلاً . ولصار ذلك الاشهاد كذباً
 وكل ذلك محال . فثبت أن لكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما تعملون ، وإذا كان الأمر
 كذلك ، فقد جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة . والسعيد من سعد في بطن أمه والشقي من
 شقي في بطن أمه .

قوله تعالى ﴿وربك الغنى ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشأ كما أنشأكم
 من ذرية قوم آخرين إنما توعدون لآت وما أتمم بمعجزين﴾
 في الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى لمسا بين ثواب أصحاب الطاعات وعقاب أصحاب المعاصي والمحرمات وذكر أن لكل قوم درجة مخصوصة ومرتبة معينة . بين أن تخصيص المطيعين بالثواب ، والمذنبين بالعذاب ، ليس لأجل أنه محتاج إلى طاعة المطيعين أو ينتقص بمعصية المذنبين . فانه تعالى غنى لذاته عن جميع العالمين ، ومع كونه غنيا فان رحمته عامة كاملة ، ولا سبيل إلى ترتيب هذه الأرواح البشرية والنفوس الانسانية وإيصالها إلى درجات السعداء الأبرار ، إلا بترتيب الترغيب في الطاعات والترهيب عن المحظورات فقال (وربك الغنى ذو الرحمة) ومن رحمته على الخلق ترتيب الثواب والعقاب على الطاعة والمعصية ، ففتقر ههنا إلى بيان أمرين : الأول : إلى بيان كونه تعالى غنياً . فنقول : إنه تعالى غنى في ذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه عن كل ماسواه . لأنه لو كان محتاجاً لكان مستكماً بذلك الفعل ، والمستكمل بغيره ناقص بذاته . وهو على الله محال . وأيضاً فكل إيجاب أو سلب يفرض ، فان كانت ذاته كافية في تحققه ، وجب دوام ذلك الإيجاب أو ذلك السلب بدوام ذاته . وإن لم تكن كافية ، فحينئذ يتوقف حصول تلك الحالة وعندها على وجود سبب منفصل أو عدمه ، فذاته لا تنفك عن ذلك الثبوت والعدم وهما موقوفان على وجود ذلك السبب المنفصل وعدمه . والموقوف على الموقوف على الشيء موقوف على ذلك الشيء . فيلزم كون ذاته موقوفة على الغير ، والموقوف على الغير ممكن لذاته . فالواجب لذاته ممكن لذاته وهو محال . فثبت أنه تعالى غنى على الاطلاق .

واعلم أن قوله (وربك الغنى) يفيد الحصر ، معناه : أنه لاغنى إلا هو والأمر كذلك . لأن واجب الوجود لذاته واحد ، وما سواه ممكن لذاته والممكن لذاته محتاج . فثبت أنه لاغنى إلا هو . فثبت بهذا البرهان القاطع صحة قوله سبحانه (وربك الغنى) وأما إثبات أنه (ذو الرحمة) فالدليل عليه أنه لا شك في وجود خيرات وسعادات ولذات وراحات . إما بحسب الأحوال الجسمانية . وإما بحسب الأحوال الروحانية . فثبت بالبرهان الذي ذكرناه أن كل ماسواه فهو ممكن لذاته . وإنما يدخل في الوجود بإيجاده وتكوينه وتخليقه . فثبت أن كل ما دخل في الوجود من الخيرات والراحات والكرامات والسعادات فهو من الحق سبحانه . وبإيجاده وتكوينه . ثم إن الاستقراء دل على أن الخير غالب على الشر فان المريض وإن كان كثيراً فالصحيح أكثر منه . والجائع وإن كان كثيراً فالشبعان أكثر منه ، والاعمى وإن كان كثيراً . إلا أن البصير أكثر منه . فثبت أنه لا بد من الاعتراف بحصول الرحمة والراحة ، وثبت أن الخير أغلب من الشر والألم والآفة . وثبت أن مبدأ تلك الراحة والخيرات بأمرها هو الله تعالى . فثبت بهذا البرهان أنه تعالى هو (ذو الرحمة)

واعلم أن قوله «وربك الغنى ذو الرحمة» يفيد الحصر ، فان معناه : أنه لا رحمة إلا منه ، والأمر كذلك لأن الموجود إما واجب لذاته أو ممكن لذاته ، والواجب لذاته واحد فكل ماسواه فهو منه ، والرحمة داخله فيما سواه . فثبت أنه لا رحمة إلا من الحق ، فثبت بهذا البرهان صحة هذا الحصر فثبت أنه لا غنى إلا هو . فثبت أنه لا رحيم إلا هو .

فان قال قائل : فكيف يمكننا إنكار رحمة الوالدين على الولد . والمولى على عبده . وكذلك سائر أنواع الرحمة ؟

فالجواب : أن كلها عند التحقيق من الله . ويدل عليه وجوه : الأول : لولا أنه تعالى ألقى في قلب هذا الرحيم داعية الرحمة ، لما أقدم على الرحمة ، فلما كان موجود تلك الداعية هو الله ، كان الرحيم هو الله . ألا ترى أن الانسان قد يكون شديد الغضب على إنسان قامى القلب عليه ، ثم ينقلب رؤفاً رحيماً عطوفاً فانقلابه من الحالة الأولى إلى الثانية ليس إلا بانقلاب تلك الدواعي . فثبت أن مقلب القلوب هو الله تعالى بالبرهان قطعاً للتسلسل . وبالقرآن وهو قوله (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) فثبت أنه لا رحمة إلا من الله . والثاني : هب أن ذلك الرحيم أعطى الطعام والثوب والذهب ، ولكن لا صحة للمزاج والتمكن من الانتفاع بتلك الأشياء ، وإلا فكيف الانتفاع ؟ فالذى أعطى صحة المزاج والقدرة والمكينة هو الرحيم في الحقيقة . والثالث : أن كل من أعطى غيره شيئاً فهو إنما يعطى لطلب عوض ، وهو إما الثناء في الدنيا ، أو الثواب في الآخرة ، أو دفع الرقة الجنسية عن القلب ، وهو تعالى يعطى لا لغرض أصلاً ، فكان تعالى هو الرحيم الكريم . فثبت بهذه البراهين اليقينية القطعية صحة قوله سبحانه وتعالى (وربك الغنى ذو الرحمة) بمعنى أنه لا غنى ولا رحيم إلا هو . فاذا ثبت أنه غنى عن الكل . ثبت أنه لا يستكمل بطاعات المطيعين ولا ينتقص بمعاصي المذنبين . وإذا ثبت أنه ذو الرحمة ؛ ثبت أنه مارتب العذاب على الذنوب ، ولا الثواب على الطاعات ، إلا لأجل الرحمة والفضل والكرم والجود والاحسان . كما قال في آية أخرى (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) فهذا البيان الاجمالي كاف في هذا الباب . وأما تفصيل تلك الحالة وشرحها على البيان التام ، فما لا يليق بهذا الموضوع .

﴿المسألة الثانية﴾ أما المعتزلة فقالوا : هذه الآية إشارة إلى الدليل الدال على كونه عادلاً منزهاً عن فعل القبيح ، وعلى كونه رحيماً محسناً بعباده . أما المطلوب الأول فقال : تقريره أنه تعالى عالم بقبح القبائح وعالم بكونه غنياً عنه ، وكل من كان كذلك فإنه يتعالى عن فعل القبيح . أما المقدمة الأولى ، فتقريرها إنما يتم بمجموع مقدمات ثلاثة . أولها : أن في الحوادث

ما يكون قبجها ، نحو : الظلم ، والسفه ، والكذب ، والغيبة : وهذه المقدمة غير مذكورة في الآية لغاية ظهورها . وثانيها : كونه تعالى عالما بالمعلومات . واليه الاشارة بقوله قبل هذه الآية (ومار بك بغافل عما يعملون) وثالثها : كونه تعالى غنياً عن الحاجات واليه الاشارة بقوله (وربك الغنى) وإذا ثبت مجموع هذه المقدمات الثلاثة ، ثبت أنه تعالى عالم بقبح القبائح وعالم بكونه غنياً عنها . فاذا ثبت هذا امتنع كونه فاعلاً لها . لأن المقدم على فعل القبيح إنما يقدم عليه إما لجهله بكونه قبيحاً ، وإما لاحتياجه ، فاذا كان عالماً بالكل امتنع كونه جاهلاً بقبح القبائح . وإذا كان غنياً عن الكل امتنع كونه محتاجاً إلى فعل القبائح ، وذلك يدل على أنه تعالى منزّه عن فعل القبائح متعال عنها ، فحينئذ يقطع بأنه لا يظلم أحداً . فلما كلف عبده الأفعال الشاقة وجب أن يثيهم عليها . ولما رتب العقاب والعذاب على فعل المعاصي ، وجب أن يكون عادلاً فيها . فبهذا الطريق ثبت كونه تعالى عادلاً في الكل .

فان قال قائل : هب أن بهذا الطريق اتفق الظلم عنه تعالى . فما الفائدة في التكليف ؟

فالجواب : أن التكليف إحسان ورحمة على ما هو مقرر في كتب الكلام فقوله (وربك الغنى) إشارة إلى المقام الأول وقوله (ذو الرحمة) إشارة إلى المقام الثاني . فهذا تقرير الدلائل التي استنبطها طوائف العقلاء من هذه الآية على صحة قولهم .

واعلم يا أخى أن الكل لا يحاولون إلا التقديس والتعظيم ، وسمعت الشيخ الامام الوالد ضياء الدين عمر بن الحسين رحمه الله قال : سمعت الشيخ أبا القاسم سليمان بن ناصر الأنصارى ، يقول : نظراً أهل السنة على تعظيم الله في جانب القدرة ونفاذ المشيئة . ونظر المعتزلة على تعظيم الله في جانب العدل والبراءة عن فعل ما لا ينبغي . فاذا تأملت علمت أن أحداً لم يصف الله إلا بالتعظيم والاجلال والتقديس والتنزيه . ولكن منهم من أخطأ ومنهم من أصاب . ورجاء الكل متعلق بهذه الكلمة وهي قوله (وربك الغنى ذو الرحمة)

ثم قال تعالى ﴿إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء﴾ والمعنى أنه تعالى لما وصف نفسه بأنه ذو الرحمة فقد كان يجوز أن يظن ظان أنه وإن كان ذا الرحمة إلا أن لرحمته معدنا مخصوصا وموضعا معيناً فبين تعالى أنه قادر على وضع الرحمة في هذا الخلق ، وقادر على أن يخلق قوماً آخرين ويضع رحمته فيهم وعلى هذا الوجه يكون الاستغناء عن العالمين أكمل وأتم والمقصود التنبيه على أن تخصيص الرحمة بهؤلاء ليس لأجل أنه لا يمكنه إظهار رحمته إلا بخلق هؤلاء . أما قوله (إن يشأ يذهبكم) فالأقرب أن المراد به الإهلاك ويحتمل الامانة أيضاً ويحتمل أن لا يبلغهم مبلغ التكليف

قُلْ يَا قَوْمِ اَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتَتِكُمْ اِنِّي اَعْمَلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ
لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ اِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ «١٣٥»

وأما قوله (ويستخلف من بعدكم) يعنى من بعد إذهابكم . لأن الاستخلاف لا يكون إلا على طريق البدل من فائت . وأما قوله (مايشاء) فالمراد منه خلق ثالث ورابع ، واختلفوا فقال بعضهم : خلقا آخر من أمثال الجن والانس يكونون أطوع ، وقال أبو مسلم : بل المراد أنه قادر على أن يخلق خلقا ثالثا مخالفا للجن والانس قال القاضي : وهذا الوجه أقرب لأن القوم يعلمون بالعادة أنه تعالى قادر على إنشاء أمثال هذا الخلق فتى حمل على خلق ثالث ورابع يكون أقوى فى دلالة القدرة ، فكانه تعالى نبه على أن قدرته ليست مقصورة على جنس دون جنس من الخلق الذين يصلحون لرحمته العظيمة التى هى الثواب ، فبين بهذا الطريق أنه تعالى لرحمته لهؤلاء القوم الحاضرين أبغاهم وأمهلمهم ولو شاء لاماتهم وأفناهم وأبدل بهم سواهم . ثم بين تعالى علة قدرته على ذلك فقال (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) لأن المرء العاقل إذا تفكر علم أنه تعالى خلق الانسان من نطفة ليس فيها من صورته قليل ولا كثير ، فوجب أن يكون ذلك بمحض القدرة والحكمة ، وإذا كان الأمر كذلك فكما قدر تعالى على تصوير هذه الأجسام بهذه الصورة الخاصة ، فكذلك يقدر على تصويرهم بصورة مخالفة لها . وقرأ القراء كلهم (ذرية) بضم الذال وقرأ زيد بن ثابت بكسر الذال . قال الكسائى : هما الغتان .

ثم قال تعالى ﴿إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لآتٍ﴾ قال الحسن : أى من مجئ الساعة ، لأنهم كانوا ينكرون القيامة ، وأقول فيه احتمال آخر : وهو أن الوعد مخصوص بالاخبار عن الثواب ، وأما الوعيد فهو مخصوص بالاخبار عن العقاب فقوله (إنما توعدون لآت) يعنى كل ما تعلق بالوعد بالثواب فهو آت لا محالة ، فتخصيص الوعد بهذا الجزم يدل على أن جانب الوعيد ليس كذلك ويقوى هذا الوجه آخر الآية ، وهو أنه قال (وما أتمم بمعجزين) يعنى لا تخرجون عن قدرتنا وحكمنا ، فالحاصل أنه لما ذكر الوعد جزم بكونه آتيا ، ولما ذكر الوعيد ، ما زاد على قوله (وما أتمم بمعجزين) وذلك يدل على أن جانب الرحمة والاحسان غالب .

قوله تعالى ﴿قل يا قوم اعملوا على مكاتبتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار
إنه لا يفلح الظالمون﴾

اعلم أنه لما بين بقوله (انما توعدون لآت) أمر رسوله من بعده أن يهدد من ينكر البعث عن الكفار ، فقال (قل يا قوم اعملوا على مكاتكم) وفيه مباحث :

(البحث الأول) قرأ أبو بكر عن عاصم (مكاناتكم) بالالف . على الجمع في كل القرآن . والباقون (مكاتكم) قال الواحدى : والوجه الافراد ، لأنه مصدر . والمصادر في أكثر الأمر مفردة ، وقد تجمع أيضا في بعض الأحوال ، إلا أن الغالب هو الأول .

(البحث الثانى) قال صاحب الكشاف : المكاة تكون مصدرا ، يقال : مكى مكاة إذا تمكن أبلغ التمكّن ، وبمعنى المكان ، يقال : مكان ومكاة ، ومقام ومقامة . فقوله (اعملوا على مكاتكم) يحتمل اعملوا على تمكّنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم . ويحتمل أيضا أن يراد اعملوا على حالتكم التى أتم عليها يقال للرجل إذا أمر أن يثبت على حالة : على مكاتك يا فلان . أى اثبت على ما أنت عليه لا تحرف عنه (إنى عامل) أى أنا عامل على مكاتى ، التى عليها ، والمعنى : اثبتوا على كفركم وعداوتكم ، فأتى ثابت على الاسلام ، وعلى مضارتكم (فسوف تعلمون) أيئله العاقبة المحمودة ، وطريقة هذا الأمر طريقة قوله (اعملوا ما شئتم) وهى تفويض الأمر اليهم على سبيل التهديد .

(البحث الثالث) من فى قوله (فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار) ذكر الفراء فى موضعه من الاعراب وجهين : الأول : أنه نصب لوقوع العلم عليه . الثانى : أن يكون رفعا على معنى : تعلمون أيئنا تكون له عاقبة الدار ، كقوله تعالى (لنعلم أى الحزبين)

(البحث الرابع) قوله (فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار) يوهم أن الكافر ليست له عاقبة الدار ، وذلك مشكل .

قلنا : العاقبة ، تكون على الكافر ولا تكون له . كما يقال له الكثرة ولحم الظفر ، وفى ضده يقال : عليكم الكثرة والظفر .

(البحث الخامس) قرأ حمزة والكسائى (من يكون) بالياء وفى القصر أيضا والباقون بالتاء فى السورتين . قال الواحدى : العاقبة مصدر كالعافية ، وتأنيته غير حقيقى ، فمن أنت ، فكقوله (فأخذتهم الصيحة) ومن ذكر فكقوله (وأخذ الذين ظلموا الصيحة) وقال (قد جاءكم موعظة من ربكم) وفى آية أخرى (فمن جاءه موعظة من ربه)

ثم قال تعالى (إنه لا يفلح الظالمون) والغرض منه بيان أن قوله (اعملوا على مكاتكم) تهديد وتخويف . لأنه أمر وطلب . ومعناه : أن هؤلاء الكفار لا يفلحون ولا يفوزون بمطالبهم البتة .

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ
وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى
شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ «١٣٦»

قوله تعالى «وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون» اعلم أنه تعالى لما بين قبح طريقته في إنكارهم البعث، والقيامة ذكر عقبيه أنواعاً من جهالاتهم وركايات أفعالهم تنبئها على ضعف عقولهم، وقلة محصولهم، وتنفيراً للعقلاء عن الالتفات إلى كلماتهم، فمن جملتها أنهم يجعلون لله من حروثهم، كالتمر والقمح، ومن أنعامهم كالضأن والمعز والابل والبقر، نصيباً، فقالوا (هذا لله بزعمهم) يريد بالكذب.

فان قيل: أليس أن جميع الأشياء لله فكيف نسبوا إلى الكذب في قولهم: هذا لله؟

قلنا: افرازهم النصيبين نصيباً لله: ونصيباً للشيطان هو الكذب. قال الزجاج: وتقدير الكلام جعلوا لله نصيباً وشركائهم نصيباً ودل على هذا المحذوف تفصيله القسامين فيما بعد، وهو قوله (هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا) وجعل الأوثان شركاءهم لأنهم جعلوا لها نصيباً من أموالهم ينفقونها عليها.

ثم قال تعالى ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾ وفي تفسيره وجوه: الأول: قال ابن عباس رضى الله عنهما: كان المشركون يجعلون لله من حروثهم وأنعامهم نصيباً، والأوثان نصيباً، فما كان للصنم أنفقوه عليه، وما كان لله أطعموه الصبيان والمساكين، ولا يأكلون منه البتة. ثم إن سقط مما جعلوه لله في نصيب الأوثان تركوه وقالوا إن الله غنى عن هذا، وإن سقط مما جعلوه للأوثان في نصيب الله أخذوه وردوه إلى نصيب الصنم، وقالوا: إنه فقير. الثانى: قال الحسن والسدى: كان إذا هلك ما للأوثانهم أخذوا بدله مما لله، ولا يفعلون مثل ذلك فيما لله عز وجل. الثالث: قال مجاهد: المعنى أنه إذا انفجر من سقى ما جعلوه للشيطان في نصيب الله سدوه، وإن كان على ضد ذلك تركوه. الرابع: قال قتادة: إذا أصابهم القحط استعانوا بما لله ووفروا ما جعلوه لشركائهم. الخامس: قال مقاتل: إن زكا ونما نصيب

وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءَهُمْ لِيَرُدُّوهُمْ
وَالْيَلْبَسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ «١٣٧»

الآلهة ولم يترك نصيب الله تركوا نصيب الآلهة لها ، وقالوا لو شاء زكى نصيب نفسه وان زكا نصيب الله ولم يترك نصيب الآلهة . قالوا لا بد لآلهتنا من نفقة . فأخذوا نصيب الله فأعطوه السدنة ، فذلك قوله (فما كان لشركائهم) يعنى من نماء الحرث والانعام (فلا يصل إلى الله) يعنى المساكين وإنما قال (إلى الله) لأنهم كانوا يفرزون له ويسمونونه نصيب الله . وما كان لله فهو يصل إليهم . ثم انه تعالى ذم هذا الفعل (فقال ساء ما يحكمون) وذكر العلماء فى كيفية هذه الاساءة وجوها كثيرة : الاول : أنهم رججوا جانب الأصنام فى الرعاية والحفظ على جانب الله تعالى . وهو سفه . الثانى ، أنهم جعلوا بعض النصيب لله وجعلوا بعضه لغيره مع أنه تعالى الخالق للجمع . وهذا أيضا سفه . الثالث : أن ذلك الحكم حكم أحدثوه من قبل أنفسهم . ولم يشهد بصحته عقل ولا شرع . فكان أيضا سفها . الرابع : أنه لو حسن إفراز نصيب الاصنام لحسن إفراز النصيب لكل حجر ومدبر الخامس : أنه لا تأثير للأصنام فى حصول الحرث والانعام . ولا قدرة لها أيضا على الانتفاع بذلك النصيب فكان افراز النصيب لها عبثا . فثبت بهذا الوجود أنه (ساء ما يحكمون) والمقصود من حكاية أمثال هذه المذاهب الفاسدة ، أن يعرف الناس قلة عقول القائلين بهذه المذاهب . وأن يصير ذلك سببا لتحقيرهم فى أعين العقلاء . وان لا يلتفت إلى كلامهم أحد البتة .

قوله تعالى ﴿وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون﴾
وفى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن هذا هو النوع الثانى من أحكامهم الفاسدة ، ومذاهبهم الباطلة . وقوله (وكذلك) عطف على قوله (وجعلوا لله نساء ذرأ من الحرث والانعام) أى كما فعلوا ذاك . فكذلك زين لكثير منهم شركاؤهم قتل الأولاد . والمعنى : أن جعلهم لله نصيبا . وللشركاء نصيبا . نهاية فى الجهل بمعرفة الخالق المنعم ، وإقدامهم على قتل أولاد أنفسهم نهاية فى الجهالة والضلالة ، وذلك يفيد التنبيه على أن أحكام هؤلاء وأحوالهم يشاكل بعضها بعضا فى الركاكة والخساسة .

﴿المسألة الثانية﴾ كان أهل الجاهلية يدفنون بناتهم أحياء خوفا من الفقر أو من التزويج .

وهو المراد من هذه الآية . واختلفوا في المراد بالشركاء ، فقال مجاهد : شركاؤهم شياطينهم وأمرهم بأن يئدوا أولادهم خشية العيلة ، وسميت الشياطين شركاء ، لأنهم أطاعوهم في معصية الله تعالى ، وأضيفت الشركاء اليهم ، لأنهم اتخذوها كقوله تعالى (أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون) وقال الكاظمي : كان لأهلهم سدنة وخدام ، وهم الذين كانوا يزينون للكفار قتل أولادهم ، وكان الرجل يقوم في الجاهلية فيحلف بالله لئن ولد له كذا وكذا غلاما لينحرن أحدهم كما حاف عبد المطلب على ابنه عبدالله . وعلى هذا القول : الشركاء هم السدنة ، سموا شركاء كما سميت الشياطين شركاء في قول مجاهد .

(المسألة الثالثة) قرأ ابن عامر وحمد (زين) بضم الزاء وكسر الياء ، وبضم اللام من (قتل) و (أولادهم) بنصب الدال (شركائهم) بالخفض والباقون (زين) بفتح الزاي والياء (قتل) بفتح اللام (أولادهم) بالجر (شركاؤهم) بالرفع . أما وجه قراءة ابن عامر فالتقدير : زين لكثير من المشركين قتل شركائهم أولادهم ، إلا أنه فصل بين المصاف ، والمضاف اليه بالمفعول به وهو الأولاد ، وهو مكرره في الشعر كما في قوله :

فزوججتها بمزجة زج القلوص أبي مزاده

وإذا كان مستكرها في الشعر فكيف في القرآن الذي هو معجز في الفصاحة . قالوا : والذي حمل ابن عامر على هذه القراءة أنه رأى في بعض المصاحف (شركائهم) مكتوبا بالياء ، ولو قرأ بجر الأولاد والشركاء ، لأجل أن الأولاد شركاؤهم في أموالهم لوجد في ذلك منسوخة عن هذا الارتكاب . وأما القراءة المشهورة : فليس فيها إلا تقديم المفعول على الفاعل ، ونظيره قوله (لا ينفع نفسا إيمانها) وقوله (وإذ ابتلى إبراهيم ربه) والسبب في تقديم المفعول هو أنهم يقدمون الأهم ، والذي هم بشأنه أعنى وموضع التعجب ههنا إقدامهم على قتل أولادهم ، فلهذا السبب حصل هذا التقدير .

ثم قال تعالى ﴿ليردوهم﴾ والارداء في اللغة الإهلاك ، وفي القرآن (إن كدت لتردين) قال ابن عباس : ليردوهم في النار ، واللام ههنا محمولة على لام العاقبة كما في قوله (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً . وليلبسوا عليهم دينهم) أي ليخطوا ، لأنهم كانوا على دين إسماعيل ، فهذا الذي أتاهم بهذه الأوضاع الفاسدة ، أراد أن يزيلهم عن ذلك الدين الحق .

ثم قال تعالى ﴿ولو شاء ربك ما فعلوه﴾ قال أصحابنا : انه يدل على أن كل ما فعله المشركون فهو بمشيئة الله تعالى . قالت المعتزلة : إنه محمول على مشيئة الاجاء ، وقد سبق ذكره مرارا (فذرهم

وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حَجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾

وما يفترون) وهذا على قانون قوله تعالى (اعملوا ما شئتم) وقوله (وما يفترون) يدل على أنهم كانوا يقولون: إن الله أمرهم بقتل أولادهم، فكانوا كاذبين في ذلك القول.

قوله تعالى ﴿وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون﴾

اعلم أن هذا نوع ثالث من أحكامهم الفاسدة، وهي أنهم قسموا أنعامهم أقساماً: فأولها: إن قالوا (هذه أنعام وحرث حجر) فقوله (حجر) فعل بمعنى مفعول، كالذبح والطحن، ويستوى في الوصف به المذكر والمؤنث والواحد والجمع، لأن حكمه حكم الأسماء غير الصفات، وأصل الحجر المنع، وسمى العقول حجراً المنع عن القبائح، وفلان في حجر القاضي: أي في منعه، وقرأ الحسن وقتادة (حجر) بضم الحاء وعن ابن عباس (حرج) وهو من الضيق، وكانوا إذا عينوا شيئاً من حرثهم وأنعامهم لأهلهم قالوا (لا يطعمها إلا من نشاء) يعنون خدام الأوثان، والرجال دون النساء.

﴿والقسم الثاني﴾ من أنعامهم الذي قالوا فيه (وأنعام حرمت ظهورها) وهي البحائر والسوائب والحوامى، وقد مر تفسيره في سورة المائدة.

﴿والقسم الثالث﴾ (أنعام لا يذكرون اسم الله عليها) في الذبح، وإنما يذكرون عليها أسماء الأضنام، وقيل لا يحجون عليها ولا يلبون على ظهورها.

ثم قال ﴿افتراء عليه﴾ فاتصابه على أنه مفعول له أو حال أو مصدر مؤكد، لأن قولهم ذلك في معنى الافتراء.

ثم قال تعالى ﴿سيجزىهم بما كانوا يفترون﴾ والمقصود منه الوعيد.

وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحْرَمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا
وَإِنْ يَكُنْ مِيتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفِهِمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾

قوله تعالى ﴿ وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن مية فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم ﴾
وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ هذا نوع رابع من أنواع قضاياهم الفاسدة . كانوا يقولون في أجنة البحار والسوائب ما ولد منها حيا فهو خالص للذكور لا تأكل منها الأنثى ، وما ولد ميتا اشترك فيه الذكور والآنثى . سيجزيهم وصفهم ، والمراد منه الوعيد (إنه حكيم عليم) ليكون الزجر واقعا على حد الحكمة . وبحسب الاستحقاق .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر ابن الأنباري في تأنيث (خالصة) ثلاثة أقوال : قولين للفراء وقولا للكسائي : أحدهما : أن الهاء ليست للتأنيث ، وإنما هي للبالغنة في الوصف كما قالوا : راوية ، وعلامة ، ونسابة ، والداهية ، والطاغية . كذلك يقول : هو خالصة لي ، وخالص لي . هذا قول الكسائي .

﴿ والقول الثاني ﴾ أن (ما في قوله (ما في بطون هذه الأنعام) عبارة عن الأجنة ، وإذا كان عبارة عن مؤنث جاز تأنيثه على المعنى ، وتذكيره على اللفظ . كما في هذه الآية ، فانه أنت خبره الذي هو (خالصة) لمعناه ، وذكر في قوله (ومحرم) على اللفظ . والثالث : أن يكون مصدرا والتقدير : ذو خالصة كقولهم : عطاؤك عافية ، والمطر رحمة ، والرخص نعمة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قرأ ابن عامر (وإن تكن) بالتاء و(ميتة) بالنصب وقرأ ابن كثير (يكن) بالياء (ميتة) بالرفع ، وقرأ أبو بكر عن عاصم (تكن) بالتاء (ميتة) بالنصب ، والباقون (يكن) بالياء (ميتة) بالنصب . أما قراءة ابن عامر ، فوجهها أنه ألحق الفعل علامة التأنيث لما كان الفاعل مؤنثا في اللفظ وأما قراءة ابن كثير فوجهها أن قوله (ميتة) اسم (يكن) وخبره مضمرة . والتقدير : وإن يكن لهم مية أو وإن يكن هناك مية . وذكر لأن المية في معنى الميت . قال أبو علي : لم يلحق الفعل علامة التأنيث لما كان الفاعل المسند إليه تأنيثه غير حقيقي ، ولا يحتاج الكون إلى خبر ، لأنه بمعنى حدث ووقع . وأما قراءة عاصم (تكن) بالتاء (ميتة) بالنصب فالتقدير وإن تكن المذكور ميته فأنث

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً

عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ «١٤٠»

الفعل لهذا السبب وأما قراءة الباقي (وإن يكن) بالياء (ميتة) بالنصب ، فتأويلها ، وإن يكن المذكور ميتة ذكروا الفعل لأنه مسند إلى ضمير ما تقدم في قوله (ما في بطون هذه الأنعام) وهو مذكور وانتصب قوله (ميتة) لما كان الفعل مسندا إلى الضمير .

قوله تعالى ﴿قد خسروا الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرّموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلّوا وما كانوا مهتدين﴾

في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ انه تعالى ذكر فيما تقدم قتلهم أولادهم وتحريمهم ما رزقهم الله . ثم انه تعالى جمع هذين الأمرين في هذه الآية وبين ما لزمهم على هذا الحكم ، وهو الخسران والسفاهة ، وعدم العلم ، وتحريم ما رزقهم الله ، والافتراء على الله ، والضلال وعدم الاهتمام ، فهذه أمور سبعة وكل واحد منها سبب تام في حصول الذم .

أما الأول : وهو الخسران ، وذلك لأن الولد نعمة عظيمة من الله على العبد ، فاذا سعى في إبطاله ، فقد خسروا عظيما لاسيما ويستحق على ذلك الإبطال الذم العظيم في الدنيا ، والعقاب العظيم في الآخرة . أما الذم في الدنيا فلأن الناس يقولون قتل ولده خوفا من أن يأكل طعامه ، وليس في الدنيا ذم أشد منه . وأما العقاب في الآخرة . فلأن قرابة الولادة أعظم موجبات المحبة فحصولها إذا أقدم على إلحاق أعظم المضار به كان ذلك أعظم أنواع الذنوب ، فكان موجبا لأعظم أنواع العقاب .

﴿والنوع الثاني﴾ السفاهة وهي عبارة عن الخفة المذمومة . وذلك لأن قتل الولد إنما يكون للخوف من الفقر ، والفقر وإن كان ضررا إلا أن القتل أعظم منه ضررا ، وأيضا فهذا القتل ناجز وذلك الفقر موهوم فالنزاهة على سبيل القطع حذرا من ضرر قليل موهوم ، لاشك أنه سفاهة .

﴿والنوع الثالث﴾ قوله (بغير علم) فالمقصود أن هذه السفاهة إنما تولدت من عدم العلم ولاشك أن الجهل أعظم المنكرات والقبائح .

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ
مُخْتَلَفًا آكَلَهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّمَانَ مَتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ
وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾

﴿النوع الرابع﴾ تحريم ما أحل الله لهم ، وهو أيضاً من أعظم أنواع الحماقة ، لأنه يمنع نفسه تلك المنافع والطيبات ، ويستوجب بسبب ذلك المنع أعظم أنواع العذاب والعقاب .
﴿النوع الخامس﴾ الافتراء على الله ، ومعلوم أن الجراءة على الله ، والافتراء عليه أعظم الذنوب وأكبر الكبائر .

﴿النوع السادس﴾ الضلال عن الرشد في مصالح الدين ومنافع الدنيا .

﴿النوع السابع﴾ أنهم ما كانوا مهتدين ، والفائدة فيه أنه قد يضل الانسان عن الحق إلا أن يعود إلى الاهتداء ، فبين تعالى أنهم قد ضلوا ولم يحصل لهم الاهتداء قط . فثبت أنه تعالى ذم الموصوفين بقتل الأولاد وتحريم ما أحله الله تعالى لهم بهذه الصفات السبعة الموجبة لأعظم أنواع الذم ، وذلك نهاية المبالغة .

قوله تعالى ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا آكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابهة كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾
في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنه تعالى جعل مدار هذا الكتاب الشريف على تقرير التوحيد والنبوة والمعاد وإثبات القضاء والقدر ، وأنه تعالى بالغ في تقرير هذه الأصول ، وانتهى الكلام الى شرح أحوال السعداء والاشقياء ، ثم انتقل منه الى تهجين طريقة من أنكر البعث والقيامة ، ثم أتبعه بحكاية أقوالهم الركيكة ، وكلماتهم الفاسدة في مسائل أربعة . والمقصود التنبيه على ضعف عقولهم ، وقلة محصلهم ، وتنفير الناس عن الالتفات إلى قولهم ، والاعتراض بشبهاتهم . فلما تم هذه الأشياء عاد بعدها إلى ماهو المقصود الأصلي ، وهو إقامة الدلائل على تقرير التوحيد فقال (وهو الذي أنشأ جنات معروشات)

واعلم أنه قد سبق ذكر هذا الدليل فى هذه السورة . وهو قوله (وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) فالآية المتقدمة ذكر تعالى فيها خمسة أنواع . وهى : الزرع والنخل ، وجنات من أعناب والزيتون والرمان ، وفى هذه الآية التى نحن فى تفسيرها ذكر هذه الخمسة بأعيانها لكن على خلاف ذلك الترتيب لأنه ذكر العنب . ثم النخل . ثم الزرع . ثم الزيتون ثم الرمان . وذكر فى الآية المتقدمة (مشتبها وغير متشابه) وفى هذه الآية (متشابهها وغير متشابه) ثم ذكر فى الآية المتقدمة (انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه) فأمر تعالى هناك بالنظر فى أحوالها والاستدلال بها على وجود الصانع الحكيم ، وذكر فى هذه الآية (كلاوا من ثمره إذا أثمر وآواحقه يوم حساده) فأذن فى الانتفاع بها . وأمر بصرف جزء منها إلى الفقراء ، فالذى حصل به الامتياز بين الآيتين أن هناك أمر بالاستدلال بها على الصانع الحكيم . وههنا أذن فى الانتفاع بها ، وذلك تنبيه على أن الأمر بالاستدلال بها على الصانع الحكيم مقدم على الاذن فى الانتفاع بها لأن الحاصل من الاستدلال بها سعادة روحانية أبدية . والحاصل من الانتفاع بهذه سعادة جسمانية سريعة الانقضاء . والأول أولى بالتقديم . فلهذا السبب قدم الله تعالى الأمر بالاستدلال بها على الاذن بالانتفاع بها .

﴿المسألة الثانية﴾ قوله (وهو الذى أنشأ) أى خلق ، يقال : نشأ الشىء ينشأ نشأة ونشأة إذا ظهر وارتفع والله ينشئه انشاء أى يظهره ويرفعه وقوله (جنات معروشات) يقال عرشت الكرم أعرشه عرشا وعرشته تعريشا . إذا عطفت العيدان التى يرسل عليها قضبان الكرم ، والواحد عرش . والجمع عروش ، ويقال : عريش وجمعه عرش ، واعترش العنب العريش اعتراشا إذا علاه .

إذا عرفت هذا فنقول : فى قوله (معروشات وغير معروشات) أقوال : الأول : أن المعروشات وغير المعروشات كلاهما الكرم . فإن بعض الاعناب يعرش وبعضها لا يعرش . بل يبقى على وجه الأرض منبسطا . والثانى : المعروشات العنب الذى يجعل لها عروش ، وغير المعروشات كل ما ينبت منبسطا على وجه الأرض مثل القرع والبطيخ . والثالث : المعروشات ما يحتاج إلى أن يتخذ له عريش يحمل عليه فيمسكه ، وهو الكرم وما يجرى مجراه . وغير المعروش هو القائم من الشجر المستغنى باستوائه وذهابه علوا لقوة ساقه عن التعريش . والرابع : المعروشات ما يحصل فى البساتين

والعمرانات مما يغرسه الناس واهتموا به فعرشوه (وغير معروشات) مما أنبته الله تعالى وحشيا في البرارى والجبال فهو غير معروش وقوله (والنخل والزرع) فسر ابن عباس (الزرع) ههنا بجميع الحبوب التي يقمات بها (مختلفا أكله) أى لكل شئ. منها طعم غير طعم الآخر (والأكل) كل ما أكل ، وههنا المراد ثمر النخل والزرع . ومضى القول فى (الأكل) عند قوله (فأنت أكلهاضعفين) وقوله (مختلفا) نصب على الحال . أى أنشأه فى حال اختلاف أكله ، وهو قد أنشأه من قبل ظهور أكله وأكل ثمره . الجواب : أنه تعالى أنشأها حال اختلاف ثمرها وصدق هذا لاينافى صدق انه تعالى أنشأها قبل ذلك أيضا . وأيضا نصب على الحال مع انه يؤكل بعد ذلك بزمان ، لأن اختلاف أكله مقدر كما تقول : مررت برجل معه صقر صائدا به غدا ، أى مقدر للصيد به غدا . وقرأ ابن كثير ونافع (أكله) بتخفيف الكاف والباقون (أكله) فى كل القرآن . وأما توحيد الضمير فى قوله (مختلفا أكله) فالسبب فيه : انه اكتفى بإعادة الذكر على أحدهما من إعادته عليهما جميعا كقوله تعالى (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها) والمعنى : اليهما وقوله (والله ورسوله أحق أن يرضوه) وأما قوله «متشابهها وغير متشابهه» فقد سبق تفسيره فى الآية المتقدمة .

ثم قال تعالى ﴿كلوا من ثمره إذا أثمر﴾ وفيه مباحث .

﴿البحث الأول﴾ انه تعالى لما ذكر كيفية خلقه لهذه الأشياء ذكر ماهو المقصود الأصلي من خلقها . وهو انتفاع المكلفين بها ، فقال (كلوا من ثمره) واختلقوا ماالفائدة منه ؟ فقال بعضهم : الإباحة . وقال آخرون : بل المقصود منه إباحة الأكل قبل إخراج الحق ، لأنه تعالى لما أوجب الحق فيه ، كان يجوز أن يحرم على المالك تناوله لمكان شركة المساكين فيه ، بل هذا هو الظاهر فأباح تعالى هذا الأكل ، وأخرج وجوب الحق فيه من أن يكون مانعا من هذا التصرف . وقال بعضهم : بل أباح تعالى ذلك ليبين أن المقصد بخالق هذه النعم . إما الأكل وإما التصدق . وإنما قدم ذكر الأكل على التصدق ، لأن رعاية النفس مقدمة على رعاية الغير . قال تعالى (ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك)

﴿البحث الثانى﴾ تمسك بعضهم بقوله (كلوا من ثمره إذا أثمر) بأن الأصل فى المنافع الإباحة والاطلاق . لأن قوله (كلوا) خطاب عام يتناول الكل ، فصار هذا جاريا مجرى قوله تعالى (خلق لكم ما فى الأرض جميعا) وأيضا يمكن التمسك به على أن الأصل عدم وجوب الصدقة ، وان من ادعى إيجابه كان هو المحتاج إلى الدليل ، فيتمسك به فى أن المجنون إذا أفاق فى اثناء الشهر ، لايلزمه قضاء دامضى ، وفى أن الشارع فى صوم النقل لايجب عليه الاتمام .

﴿البحث الثالث﴾ قوله (كلوا من ثمره) يدل على ان صيغة الأمر قد ترد في غير موضع الوجوب وفي غير موضع الندب ، وعند هذا قال بعضهم : الأصل في الاستعمال الحقيقة ، فوجب جعل هذه الصيغة مفيدة لرفع الحجر ، فلهاذا قالوا : الأمر مقتضاه الاباحة ، إلا أنا نقول : نعلم بالضرورة من لغة العرب أن هذه الصيغة تفيد ترجيح جانب الفعل ، وأن حملها على الاباحة لا يقصر اليه إلا بدليل منفصل .

أما قوله تعالى ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾ ففيه أبحاث :

﴿البحث الأول﴾ قرأ ابن عامر وأبو عمرو وعاصم (حصاده) بفتح الحاء والباقون بكسر الحاء قال الواحدى : قال جميع أهل اللغة يقال : حصاد وحصاد ، وجداد وجداد ، وقطاف وقطاف ، وجداذ وجداذ ، وقال سيويوه جاؤا بالمصادر حين أرادوا انتهاء الزمان على مثال فعال ، وربما قالوا فيه فعال .

﴿البحث الثانى﴾ فى تفسير قوله (وآتوا حقه) ثلاثة أقوال .

﴿القول الأول﴾ قال ابن عباس فى رواية عطاء يريد به العشر فيما سقت السماء ، ونصف العشر فيما سقى بالدواليب ، وهو قول سعيد بن المسيب والحسن وطاوس والضحاك .
فان قالوا : كيف يؤدى الزكاة يوم الحصاد والحب فى السنبلى ؟ وأيضاً هذه السورة مكية .
وإيجاب الزكاة مدنى .

قلنا : لما تعذر إجراء قوله (وآتوا حقه) على ظاهره بالدليل الذى ذكرتم . لاجرم حملناه على تعلق حق الزكاة به فى ذلك الوقت ، والمعنى : اعزموا على إيتاء الحق يوم الحصاد ولا تؤخروه عن أول وقت يمكن فيه الإيتاء .

والجواب عن السؤال الثانى : لانسلم أن الزكاة ما كانت واجبة فى مكة ، بل لانزاع أن الآية المدنية وردت بإيجابها ، إلا أن ذلك لا يمنع أنها كانت واجبة بمكة . وقيل أيضاً : هذه الآية مدنية ﴿والقول الثانى﴾ أن هذا حق فى المال سوى الزكاة . وقال مجاهد : إذا حصدت فحضرتم المساكين فاطرح لهم منه ، وإذا درسته وذريته فاطرح لهم منه ، وإذا كربلته فاطرح لهم منه ، وإذا عرفت كيله فاعزل زكاته .

﴿والقول الثالث﴾ أن هذا كان قبل وجوب الزكاة ، فلما فرضت الزكاة نسخ هذا . وهذا قول سعيد بن جبير ، والأصح هو القول الأول ، والدليل عليه أن قوله تعالى (وآتوا حقه) إنما يحسن ذكره لو كان ذلك الحق معلوماً قبل ورود هذه الآية لئلا تبقى هذه الآية مجملة . وقد قال عليه الصلاة

والسلام «ليس في المال حق سوى الزكاة» فوجب أن يكون المراد بهذا الحق حق الزكاة .
 ﴿البحث الثالث﴾ قوله تعالى (وآتوا حقه يوم حصاده) بعد ذكر الأنواع الخمسة ، وهو العنب
 والنخل ، والزيتون ، والرمان : يدل على وجوب الزكاة في الكل ، وهذا يقتضى وجوب الزكاة
 في الثمار ، كما كان يقوله أبو حنيفة رحمه الله .

فان قالوا : لفظ الحصاد مخصوص بالزرع . فنقول : لفظ الحصد في أصل اللغة غير مخصوص
 بالزرع ، والدليل عليه ، أن الحصد في اللغة عبارة عن القطع ، وذلك يتناول الكل وأيضاً الضمير
 في قوله حصاده يجب عوده إلى أقرب المذكورات وذلك هو الزيتون والرمان ، فوجب أن يكون
 الضمير عائداً اليه .

﴿البحث الرابع﴾ قال أبو حنيفة رحمه الله : العشر واجب في القليل والكثير . وقال الأكثرون
 إنه لا يجب إلا إذا بلغ خمسة أوسق . واحتج أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية ، فقال : قوله (وآتوا
 حقه يوم حصاده) يقتضى ثبوت حق في القليل والكثير ، فاذا كان ذلك الحق هو الزكاة وجب القول
 بوجوب الزكاة في القليل والكثير .

أما قوله تعالى ﴿ولا تسرفوا﴾ فاعلم أن لأهل اللغة في تفسير الاسراف قولين : الأول :
 قال ابن الاعرابي : السرف تجاوز ما حد لك . الثاني : قال شمر : سرف المال ، ما ذهب منه
 من غير منفعة .

إذا عرفت هذا فنقول : للمفسرين فيه أقوال : الأول : أن الانسان إذا أعطى كل ماله ولم
 يوصل الى عياله شيئاً فقد أسرف ، لأنه جاء في الخبر ، ابدأ بنفسك ثم بمن تعول . وروى أن ثابت
 ابن قيس بن شماس عمه إلى خمسمائة نخلة فجذها ، ثم قسمها في يوم واحد ولم يدخل منها إلى منزله
 شيئاً فأنزل الله تعالى قوله (وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا) أى ولا تعطوا كله . والثاني : قال
 سعيد بن المسيب (لا تسرفوا) أى لا تمنعوا الصدقة ، وهذا القولان يشتركان في أن المراد من
 الاسراف مجاوزة الحد . إلا أن الأول مجاوزة في الاعطاء . والثاني : مجاوزة في المنع . الثالث : قال
 مقاتل : معناه : لا تشركوا الأصنام في الحرث والأنعام ، وهذا أيضاً من باب المجاوزة ، لأن من
 أشرك الأصنام في الحرث والأنعام ، فقد جاوز ما حمله . الرابع : قال الزهري معناه : لا تنفقوا
 في معصية الله تعالى . قال مجاهد : لو كان أبو قبيس ذهباً ، فأنفقه رجل في طاعة الله تعالى لم يكن
 مسرفاً . ولو أنفق درهماً في معصية الله كان مسرفاً . وهذا المعنى أراد حاتم الطائي حين قيل له :
 لا خير في السرف . فقال لا سرف في الخير ، وهذا على القول الثاني في معنى السرف ، فان من أنفق

وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاتٌ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعزِ اثْنَيْنِ قُلِ الذَّكْرَيْنِ حَرَمٌ أَمِ الْإُنثَيَيْنِ أَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْأَبْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلِ الذَّكْرَيْنِ حَرَمٌ أَمِ الْإُنثَيَيْنِ أَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾

في معصية الله ، فقد أنفق فيما لانفع فيه .

ثم قال تعالى ﴿إنه لا يحب المسرفين﴾ والمقصود منه الزجر ، لأن كل مكلف لا يحبه الله تعالى فهو من أهل النار ، والدليل عليه قوله تعالى (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم) فدل هذا على أن كل من أحبه الله فليس هو من أهل النار . وذلك يفيد من بعض الوجوه أن من لم يحبه الله فهو من أهل النار .

قوله تعالى ﴿ومن الأنعام حمولة وفرشا﴾ كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل الذكركين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبتوني بعلم إن كنتم صادقين ومن الأبل اثنين ومن البقر اثنين قل الذكركين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افتري على الله كذبا ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴿

اعلم أنه تعالى لما ذكر كيفية إنعامه على عباده بالمنافع النباتية أتبعها بذكر إنعامه عليهم بالمنافع الحيوانية . فقال (ومن الأنعام حمولة وفرشا) وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ «الواو» في قوله (ومن الأنعام حمولة وفرشا) توجب العطف على ما تقدم

من قوله (وهو الذي أنشأ جنات معروشات) والتقدير: وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات، وأنشأ من الأنعام حمولة وفرشا وكثر أقوالهم في تفسير الحمولة والفرش وأقربها إلى التحصيل وجهان: الأول أن الحمولة ما تحمل الأثقال والفرش ما يفرش للذبح أو ينسج من وبره وصوفه وشعره للفرش. والثاني: الحمولة - الكبار التي تصلح للحمل، والفرش - الصغار كالفصلان والعجاجيل والغنم لأنها دانية من الأرض بسبب صغر اجراءها مثل الفرش المفروش عليها.

ثم قال تعالى ﴿كلوا مما رزقكم الله﴾ يريد ما أحلها لكم. قالت المعتزلة: إنه تعالى أمر، بأكل الرزق، ومنع من أكل الحرام، ينتج أن الرزق ليس بحرام.

ثم قال ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي في التحليل والتحریم من عند أنفسكم كما فعله أهل الجاهلية (خطوات) جمع خطوة. وهي ما بين القدمين. قال الزجاج: وفي (خطوات الشيطان) ثلاثة أوجه: بضم الطاء وفتحها وباسكانها، ومعناه: طرق الشيطان. أي لا تسلكوا الطريق الذي يسوله لكم الشيطان.

ثم قال تعالى ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ أي بين العداوة. أخرج آدم من الجنة، وهو القائل (لأحتسكن ذريته إلا قليلا)

ثم قال تعالى ﴿ثمانية أزواج﴾ وفيه بحثان:

﴿البحث الأول﴾ في انتصاب قوله (ثمانية) وجهان: الأول: قال الفراء: انتصب ثمانية بالبدل من قوله (حمولة وفرشا) والثاني: أن يكون التقدير: كلوا مما رزقكم الله ثمانية أزواج.

﴿البحث الثاني﴾ الواحد إذا كان وحده فهو فرد، فإذا كان معه غيره من جنسه سمي زوجا، وهما زوجان بدليل قوله (خلق الزوجين الذكر والأنثى) وبدليل قوله (ثمانية أزواج) ثم فسرها بقوله (من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين)

ثم قال ﴿ومن الضأن اثنين﴾ يعني الذكر والأنثى، والضأن ذوات الصوف من الغنم. قال الزجاج: وهي جمع ضائن وضائنة مثل تاجر وتاجرة. ويجمع الضأن أيضا على الضئين بكسر الضاد وفتحها وقوله (ومن المعز اثنين) قرىء (ومن المعز) بفتح العين، والمعز ذوات الشعر من الغنم. ويقال للواحد: معز. وللجمع: معزى. فمن قرأ (المعز) بفتح العين فهو جمع معز، مثل خادم وخدم وطالب وطلب، وحارس وحرس. ومن قرأ بسكون العين فهو أيضا جمع معز كصاحب وصحب، وتاجر وتجر، وراكب وركب. وأما انتصاب اثنين فلان تقدير الآية أنشأ ثمانية أزواج أنشأ من الضأن اثنين ومن المعز اثنين وقوله (قل آلذكرين حرم أم الأنثيين) نصب الذكرين بقوله

(حرم) والاستفهام يعمل فيه ما بعده ولا يعمل فيه ما قبله . قال المفسرون : ان المشركين من أهل الجاهلية كانوا يحرمون بعض الانعام ، فاحتج الله تعالى على ابطال قولهم بأن ذكر الضأن والمعز والابل والبقر وذكر من كل واحد من هذه الأربعة زوجين ، ذكرا وأنثى .

ثم قال ان كان حرم منها الذكر وجب أن يكون كل ذكورها حراما وان كان حرم الأنثى ، وجب أن يكون كل اناتها حراما ، وقوله (أما اشتملت عليه أرحام الاثنيين) تقديره : ان كان حرم ما اشتملت عليه أرحام الاثنيين وجب تحريم الأولاد كلها لأن الأرحام تشتمل على الذكور والاناث ، هذا ما أطبق عليه المفسرون في تفسير هذه الآية . وهو عندى بعيد جدا . لأن لقائل أن يقول : هب أن هذه الانواع الأربعة . أعنى : الضأن ، والمعز ، والابل ، والبقر . محصورة في الذكور والاناث ، إلا أنه لا يجب أن تكون علة تحريم ما حكموا بتحريمه محصورة في الذكور والاناث ، بل علة تحريمها كونها بحيرة أو سائبة أو وصيلة أو حاملا أو سائر الاعتبارات ، كما أنا إذا قلنا : انه تعالى حرم ذبح بعض الحيوانات لأجل الأكل . فاذا قيل : ان ذلك الحيوان ان كان قد حرم لكونه ذكرا وجب أن يحرم كل حيوان ذكر ، وان كان قد حرم لكونه أنثى وجب أن يحرم كل حيوان أنثى ، ولما لم يكن هذا الكلام لازما علينا . فكذا هذا الوجه الذى ذكره المفسرون في تفسير هذه الآية ، ويجب على العاقل أن يذكر في تفسير كلام الله تعالى وجهها صحيحا فاما تفسيره بالوجه الفاسد فلا يجوز والاقرب عندى فيه وجهان : أحدهما : أن يقال : إن هذا الكلام ماورد على سبيل الاستدلال على بطلان قولهم ، بل هو استفهام على سبيل الانكار يعنى أنكم لا تقرون بنبوته نبي ، ولا تعرفون شريعة شارع . فكيف تحكمون بأن هذا يحل وأن ذلك يحرم ؟ وثانيهما : أن حكمهم بالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام مخصوص بالابل . فالله تعالى بين أن النعم عبارة عن هذه الانواع الأربعة . فلما لم تحكموا بهذه الاحكام في الاقسام الثلاثة . وهى : الضأن والمعز والبقر . فكيف خصصتم الابل بهذا الحكم على التعمين ؟ فهذا ما عندى في هذه الآية والله أعلم بمراده .

ثم قال تعالى «أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا» والمراد هل شاهدتم الله حرم هذا ان كنتم لاتؤمنون برسول ؟ وحاصل الكلام من هذه الآية : أنكم لا تعترفون بنبوته أحد من الأنبياء ، فكيف تثبتون هذه الاحكام المختلفة ؟ ولما بين ذلك قال (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم) قال ابن عباس : يريد عمرو بن لحي ، لأنه هو الذى غير شريعة اسمعيل ، والاقرب أن يكون هذا محمولا على كل من فعل ذلك ، لأن اللفظ عام والعلة الموجبة لهذا الحكم عامة .

قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحْرَمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِيتَةً
 أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ
 اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَانْ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ «١٤٥» وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا
 كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا
 أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزِينَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ «١٤٦» فَانْ
 كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ «١٤٧»

فالتخصيص تحكم محض . قال المحققون : إذا ثبت أن من افترى على الله الكذب في تحريم مباح
 استحق هذا الوعيد الشديد ، فمن افترى على الله الكذب في مسائل التوحيد ومعرفة الذات
 والصفات والنبوات والملائكة ومباحث المعاد كان وعيده أشد وأشق . قال القاضي : ودل ذلك على
 أن الاضلال عن الدين مذموم ، لا يليق بالله ، لأنه تعالى إذا ذم الاضلال الذي ليس فيه إلتحريم
 المباح ، فالذي هو أعظم منه أولى بالذم .

وجوابه : أنه ليس كل ما كان مذموما منا كان مذموما من الله تعالى . ألا ترى أن الجمع بين
 العيب والاماء وتسليط الشهوة عليهم وتمكينهم من أسباب الفجور مذموم منا وغير مذموم من
 الله تعالى فكذا ههنا .

ثم قال (ان الله لا يهدي القوم الظالمين) قال القاضي : لا يهديهم إلى ثوابه وإلى زيادات الهدى
 التي يختص المهتدى بها . وقال أصحابنا : المراد منه الاخبار بأنه تعالى لا يهدي أولئك المشركين ،
 أي لا ينقلهم من ظلمات الكفر إلى نور الايمان ، والكلام في ترجيح أحد القولين على الآخر معلوم
 قوله تعالى «قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا
 أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان ربك غفور
 رحيم وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت
 ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون . فان كذبوك فقل
 ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين»

اعلم انه تعالى لما بين فساد طريقة أهل الجاهلية فيما يحل ويحرم من المطعومات أتبعه بالبيان الصحيح في هذا الباب ، فقال (قل لأجد فيما أوحى إلى) وفي الآية مسائل :

(المسألة الأولى) قرأ ابن كثير وجمزة (إلا أن تكون) بالتاء (ميتة) بالنصب على تقدير : إلا أن تكون العين أو النفس أو الجثة ميتة . وقرأ ابن عامر إلا أن تكون بالتاء (ميتة) بالرفع على معنى إلا أن تقع ميتة أو تحدث ميتة والباقون (إلا أن يكون ميتة) أى إلا أن يكون المأكول ميتة ، أو إلا أن يكون الموجود ميتة .

(المسألة الثانية) لما بين الله تعالى أن التحريم والتحليل لا يثبت إلا بالوحي . قال (قل لأجد فيما أوحى إلا محرما على طاعم يطعمه) أى على آكل يأكله . وذكر هذا ليظهر أن المراد منه هو بيان ما يحل ويحرم من المأكولات . ثم ذكر أموراً أربعة . أولها : الميتة . وثانيها : الدم المسفوح . وثالثها : لحم الخنزير فإنه رجس ، ورابعها : الفسق وهو الذى أهل به لغير الله . فقوله تعالى (قل لأجد فيما أوحى إلى محرما) إلهذه الأربعة مبالغة فى بيان أنه لا يحرم إلا هذه الأربعة وذلك لأنه لما ثبت أنه لا طريق إلى معرفة المحرمات والمحللات إلا بالوحي ، وثبت أنه لا وحي من الله تعالى إلا إلى محمد عليه الصلاة والسلام ، وثبت أنه تعالى يأمره أن يقول : إنى لأجد فيما أوحى إلى محرما من المحرمات إلا هذه الأربعة كان هذا مبالغة فى بيان أنه لا يحرم إلا هذه الأربعة .

واعلم أن هذه السورة مكية . فبين تعالى فى هذه السورة المكية أنه لا يحرم إلا هذه الأربعة ثم أكد ذلك بأن قال فى سورة النحل (إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم) وكلمة (إنما) تفيد الحصر فقد حصلت لنا آيتان مكيتان يدلان على حصر المحرمات فى هذه الأربعة . فبين فى سورة البقرة وهى مدنية أيضا أنه لا يحرم إلا هذه الأربعة فقال (إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله) وكلمة (إنما) تفيد الحصر فصارت هذه الآية المدنية مطابقة لتلك الآية المكية لأن كلمة (إنما) تفيد الحصر ، فكلمة (إنما) فى الآية المدنية مطابقة لقوله (قل لأجد فيما أوحى إلى محرما) الا كذا وكذا فى الآية المكية ، ثم ذكر تعالى فى سورة المائدة قوله تعالى (أحللت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم) وأجمع المفسرون على أن المراد بقوله (إلا ما يتلى عليكم) هو ما ذكره بعد هذه الآية بلقيل ، وهو قوله (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع . إلا ما ذكركم) وكل هذه الأشياء أقسام الميتة وأنه تعالى إنما أعادها بالذكر لأنهم كانوا يحكمون عليها بالتحليل ، فثبت أن الشريعة من أولها إلى آخرها

كانت مستقرة على هذا الحكم وعلى هذا الحصر .

فان قال قائل : فيلزمكم في التزام هذا الحصر تحليل النجاسات والمستقذرات ، ويلزم عليه أيضا تحليل الخمر ، وأيضا فيلزمكم تحليل المنخقة والموقوذة والمتردية والنطحية مع أن الله تعالى حكم بتحريمها

قلنا : هذا لا يلزمنا من وجوه : الأول : أنه تعالى قال في هذه الآية (أولحم خنزيرفانه رجس) ومعناه أنه تعالى انما حرم لحم الخنزير لكونه نجسا ، فهذا يقتضى أن النجاسة علة لتحريم الأكل . فوجب أن يكون كل نجس يحرم أكله ، واذ كان هذا مذكورا في الآية كان السؤال ساقطا . والثاني : أنه تعالى قال في آية أخرى (ويحرم عليهم الخبائث) وذلك يقتضى تحريم كل الخبائث ، والنجاسات خبائث ، فوجب القول بتحريمها . الثالث : أن الآية مجمعة على حرمة تناول النجاسات ، فهب أنا التزمنا تخصيص هذه السورة بدلالة النقل المتواتر من دين محمد في باب النجاسات . فوجب أن يبقى ما سواها على وفق الأصل تمسكا بعموم كتاب الله في الآية المكية والآية المدنية ، فهذا أصل مقرر كامل في باب ما يحل وما يحرم من المطعومات ، وأما الخمر فالجواب عنه : أنها نجسة فيكون من الرجس فيدخل تحت قوله (رجس) وتحت قوله (ويحرم عليهم الخبائث) وأيضا ثبت تخصيصه بالنقل المتواتر من دين محمد صلى الله عليه وسلم في تحريمه ، وبقوله تعالى (فاجتنبوه) وبقوله (وإثمهما أكبر من نفعهما) والعام المخصوص حجة في غير محل التخصيص ، فتبقى هذه الآية فيما عداها حجة . وأما قوله ويلزم تحليل الموقوذة والمتردية والنطحية

فالجواب عنه من وجوه : أولها : أنها ميات . فكانت داخلة تحت هذه الآية . وثانيها : أننا نخص عموم هذه الآية بتلك الآية ، وثالثها : أن نقول إنها ان كانت ميتة دخلت تحت هذه الآية ، وان لم تكن ميتة فنخصصها بتلك الآية

فان قال قائل : المحرمات من المطعومات أكثر مما ذكر في هذه الآية فما وجهها ؟

أجابوا عنه من وجوه : أحدها : أن المعنى لا أجد محرما مما كان أهل الجاهلية يحرمه من البحائر والسوائب وغيرها إلا ما ذكر في هذه الآية ، وثانيها : أن المراد أن وقت نزول هذه الآية لم يكن تحريم غير ما نص عليه في هذه الآية ثم وجدت محرمات أخرى بعد ذلك . وثالثها : هب أن اللفظ عام إلا أن تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد جائز فنحن نخصص هذا العموم بأخبار الأحاد . ورابعها : أن مقتضى هذه الآية أن نقول انه لا يجد في القرآن ، ويجوز أن يحرم الله تعالى ما سوى هذه الأربعة على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام . ولقائل أن يقول : هذه الأجوبة ضعيفة .

أما الجواب الأول : فضعيف لوجوده : أحدها : لا يجوز أن يكون المراد من قوله (قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما ما كان يحرمه أهل الجاهلية من السوائب والبخائر وغيرها إذ لو كان المراد ذلك لما كانت الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح على النصب داخلة تحته . ولو لم تكن هذه الأشياء داخلة تحت قوله (قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما) لما حسن استثنائها . ولما رأينا أن هذه الأشياء مستثناة عن تلك الكلمة ، علمنا أنه ليس المراد من تلك الكلمة ما ذكره . وثانيتها : أنه تعالى حكم بفساد قولهم في تحريم تلك الأشياء . ثم انه تعالى في هذه الآية خصص المحرمات في هذه الأربعة وتحليل تلك الأشياء التي حرمها أهل الجاهلية لا يمنع من تحليل غيرها . فوجب ابقاء هذه الآية على عمومها لأن تخصيصها يوجب ترك العمل بعمومها من غير دليل . وثالثها : أنه تعالى قال في سورة البقرة (إنما حرم عليكم) وذكر هذه الأشياء الأربعة . وكلمة (إنما) تفيد الحصر وهذه الآية في سورة البقرة غير مسبوقه بحكاية أقوال أهل الجاهلية في تحريم البخائر والسوائب فسقط هذا العذر .

وأما جوابهم الثاني : وهو أن المراد أن وقت نزول هذه الآية لم يكن محرما إلا هذه الأربعة فجوابه من وجوه : أولها : أن قوله تعالى في سورة البقرة (إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله) آية مدنية نزلت بعد استقرار الشريعة . وكلمة (إنما) تفيد الحصر فدل هاتان الآيتان على أن الحكم الثابت في شريعة محمد عليه الصلاة والسلام من أولها إلى آخرها ليس إلا حصر المحرمات في هذه الأشياء . وثانيتها : أنه لما ثبت بمقتضى هاتين الآيتين حصر المحرمات في هذه الأربعة كان هذا اعترافا بكل ما سواها ، فالقول بتحريم شيء خامس يكون نسخا . ولا شك أن مدار الشريعة على أن الأصل عدم النسخ . لأنه لو كان احتمال طريان النسخ معادلا لاحتمال بقاء الحكم على ما كان . فحينئذ لا يمكن التمسك بشيء من النصوص في إثبات شيء من الأحكام لاحتمال أن يقال : إنه وإن كان ثابتا إلا أنه زال . ولما اتفق الكل على أن الأصل عدم النسخ . وأن القائل به والذاهب اليه هو المحتاج إلى الدليل علمنا فساد هذا السؤال .

وأما جوابهم الثالث : وهو أننا نخصص عموم القرآن بخبر الواحد . فنقول : ليس هذا من باب التخصيص ، بل هو صريح النسخ . لأن قوله تعالى (قل لا أجد فيما أوحى إلى رما على طاعم يطعمه) مبالغة في أنه لا يحرم سوى هذه الأربعة ، وقوله في سورة البقرة (إنما حرم عليكم الميتة) وكذا وكذا ، تصريح بحصر المحرمات في هذه الأربعة . لأن كلمة (إنما) تفيد الحصر . فالقول بأنه ليس الأمر كذلك يكون دفعا لهذا الذي ثبت بمقتضى هاتين الآيتين أنه كان ثابتا في أول الشريعة بمكة .

وفي آخرها بالمدينة . ونسخ القرآن بجزء الواحد لا يجوز .

وأما جوابهم الرابع : فضعيف أيضا ، لأن قوله تعالى (قل لأجد فيما أوحى إلى) يتناول كل ما كان وحيا ، سواء كان ذلك الوحي قرآنا أو غيره ، وأيضا فقوله في سورة البقرة (إنما حرم عليكم الميتة) يزيل هذا الاحتمال . فثبت بالتقرير الذي ذكرنا قوة هذا الكلام ، وصحة هذا المذهب ، وهو الذي كان يقول به مالك بن أنس رحمه الله ، ومن السؤالات الضعيفة أن كثيرا من الفقهاء خصصوا عموم هذه الآية بما نقل أنه عليه الصلاة والسلام قال «ما استخبثه العرب فهو حرام» وقد علم أن الذي يستخبثه العرب فهو غير مضبوط ، فسيد العرب بل سيد العالمين محمد صلوات الله عليه ، لما رأيهم يأكلون الضب قال «يعافه طبعي» ثم إن هذا الاستقذار ما صار سببا لتحريم الضب . وأما سائر العرب فمنهم من لا يستقدر شيئا ، وقد يختلفون في بعض الأشياء ، فيستقدرها قوم ويستطيها آخرون ، فعلينا أن أمر الاستقذار غير مضبوط ، بل هو مختلف باختلاف الأشخاص والأحوال ، فكيف يجوز نسخ هذا النص القاطع بذلك الأمر الذي ليس له ضابط معين ولا قانون معلوم ؟

المسألة الثالثة اعلم أننا قد ذكرنا المسائل المتعلقة بهذه الأشياء الأربعة في سورة البقرة على سبيل الاستقصاء . فلا فائدة في الإعادة . فأولها : الميتة ، ودخلها التخصيص في قوله عليه الصلاة والسلام «أحلت لنا ميتتان السمك والجراد» وثانيها : الدم المسفوح ، والسفح الصب . يقال : سفح الدم سفحا ، وسفح هو سفوحا إذا سال . وأنشد أبو عبيدة لكثير :

أقول ودمعي واكف عند رسمها عليك سلام الله والدمع يسفح

قال ابن عباس : يريد ما خرج من الأنعام وهي أحياء ، وما يخرج من الأوداج عند الذبح ، وعلى هذا التقدير : فلا يدخل فيه الكبد والطحال لجودهما ، ولا ما يختلط باللحم من الدم فإنه غير سائل ، وسئل أبو مجلز عما يتلخ من اللحم بالدم . وعن القدرى : يرى فيها حمرة الدم ، فقال لا بأس به ، إنما نهى عن الدم المسفوح . وثالثها : لحم الخنزير فإنه رجس : ورابعها : قوله (أو فسقا أهل لغير الله به) وهو منسوق على قوله (إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا) فسمى ما أهل لغير الله به فسقا - لتوغله في باب الفسق كما يقال : فلان كرم وجود إذا كان كاملا فيهما ، ومنه قوله تعالى (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق)

وأما قوله تعالى (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان ربك غفور رحيم) فالمعنى أنه لما بين في هذه الأربعة أنها محرمة ، بين أن عند الاضطرار يزول ذلك التحريم ، وهذه الآية قد استقصينا تفسيرها في سورة البقرة . وقوله عقيب ذلك (فان ربك غفور رحيم) يدل على حصول الرخصة ،

ثم بين تعالى انه حرم على اليهود أشياء أخرى سوى هذه الأربعة ، وهى نوعان : الأول : انه تعالى حرم عليهم كل ذى ظفر . وفيه مباحث .

(البحث الأول) قال الواحدى : فى الظفر لغات ظفر بضم الفاء . وهو أعلاهما وظفر بسكون الفاء ، وظفر بكسر الظاء وسكون الفاء ، وهى قراءة الحسن وظفر بكسرهما وهى قراءة أبى السمال (البحث الثانى) قال الواحدى : اختلفوا فى كل ذى ظفر الذى حرمه الله تعالى على اليهود روى عن ابن عباس : أنه الابل فقط . وفى رواية أخرى عن ابن عباس : أنه الابل والنعمامة . وهو قول مجاهد . وقال عبدالله بن مسلم : انه كل ذى مخلب من الطير وكل ذى حافر من الدواب . ثم قال (كذلك) قال المفسرون . وقال : وسمى الحافر ظفرا على الاستعارة . وأقول اما حمل الظفر على الحافر فبعيد من وجهين : الأول : ان الحافر لا يكاد يسمى ظفرا . والثانى : انه لو كان الأمر كذلك لوجب أن يقال إنه تعالى حرم عليهم كل حيوان له حافر . وذلك باطل لأن الآية تدل على ان الغنم والبقر مباحان لهم من حصول الحافر لهما .

وإذا ثبت هذا فنقول : وجب حمل الظفر على المخالب والبرائن لأن المخالب آلات الجوارح فى الاصطيد والبرائن آلات السباع فى الاصطيد . وعلى هذا التقدير : يدخل فيه أنواع السباع والكلاب والسنائير ، ويدخل فيه الطيور التى تصطاد لأن هذه الصفة تعم هذه الأجناس إذا ثبت هذا فنقول : قوله تعالى (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر) يفيد تخصيص هذه الحرمة بهم من وجهين : الأول : ان قوله (وعلى الذين هادوا حرمنا) كذا وكذا يفيد الحصر فى اللغة . والثانى : انه لو كانت هذه الحرمة ثابتة فى حق الكل لم يبق لقوله ، وعلى الذين هادوا حرمنا فائدة . فثبت أن تحريم السباع وذوى المخلب من الطير مختص باليهود . فوجب ان لا تكون محرمة على المسلمين ، فصارت هذه الآية دالة على هذه الحيوانات على المسلمين . وعند هذا نقول : ماروى انه صلى الله عليه وسلم حرم كل ذى ناب من السباع وذى مخلب من الطيور ضعيف لأنه خبر واحد على خلاف كتاب الله تعالى ، فوجب أن لا يكون مقبولا ، وعلى هذا التقدير : يقوى قول مالك فى هذه المسألة .

(النوع الثانى) من الأشياء التى حرمها الله تعالى على اليهود خاصة . قرله تعالى (ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما) فبين تعالى انه حرم على اليهود شحوم البقر والغنم ، ثم فى الآية قولان الأول : انه تعالى استثنى عن هذا التحريم ثلاثة أنواع : أولها : قوله (إلا ما حملت ظهورهما) قال ابن عباس : إلا ما علق بالظهر من الشحم ، فأنى لم أحرمه . وقال قتادة إلا ما علق بالظهر والجنب

من داخل بطونها ، وأقول ليس على الظهر والجنب شحم إلا اللحم الأبيض السمين الملتصق باللحم الأحمر على هذا التقدير : فذلك اللحم السمين الملتصق مسمم بالشحم . وبهذا التقدير : لو حلف لا يأكل الشحم ، وجب أن يحنث بأكل ذلك اللحم السمين .

﴿والاستثناء الثاني﴾ قوله تعالى (أو الحوايا) قال الواحدي : وهي المباعر والمصارين . واحدها حاوية وحاوية . قال ابن الأعرابي : هي الحاوية أو الحاوية ، وهي الدوارة التي في بطن الشاة . وقال ابن السكيت : يقال حاوية وحاويا ، مثل رواية وروايا .

إذا عرفت هذا : فالمراد أن الشحوم الملتصقة بالمباعر والمصارين غير محرمة .

﴿والاستثناء الثالث﴾ قوله (وما اختلط بعظم) قالوا : إنه شحم الالية . في قول جميع المفسرين وقال ابن جريح : كل شحم في القائم والجنب والرأس . وفي العينين والأذنين . يقول : إنه اختلط بعظم فهو حلال لهم . وعلى هذا التقدير : فالشحم الذي حرمه الله عليهم هو الثرب وشحم الكلية . ﴿القول الثاني﴾ في الآية أن قوله (أو الحوايا) غير معطوف على المستثنى ، بل على المستثنى منه والتقدير : حرمت عليهم شحومهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم إلا ما حلت ظهورهما فإنه غير محرم قالوا : ودخلت كلمة «أو» كدخولها في قوله تعالى (ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً) والمعنى كل هؤلاء أهل أن يعصى ، فاعص هذا واعص هذا ، فكذا ههنا المعنى حرمتنا عليهم هذا وهذا .

ثم قال تعالى ﴿ذلك جزيناهم ببغيهم﴾ والمعنى : أنا إنما خصصناهم بهذا التحريم جزاء على بغيهم ، وهو قتلهم الأنبياء ، وأخذهم الربا ، وأكلهم أموال الناس بالباطل ، ونظيره قوله تعالى (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم)

ثم قال تعالى ﴿وإننا لصادقون﴾ أي في الاخبار عن عن بغيهم وفي الاخبار عن تخصيصهم بهذا التحريم بسبب بغيهم . قال القاضي : نفس التحريم لا يجوز أن يكون عقوبة على جرم صدر عنهم ، لأن التكليف تعريض للثواب ، والتعريض للثواب إحسان . فلم يجز أن يكون التكليف جزاء على الجرم المتقدم .

فالجواب : أن المنع من الانتفاع يمكن أن يكون لمزيد استحقاق الثواب ، ويمكن أيضاً أن يكون للجرم المتقدم ، وكل واحد منهما غير مستبعد .

ثم قال تعالى ﴿فان كذبوك﴾ يعني إن كذبوك في ادعاء النبوة والرسالة ، وكذبوك في تبليغ هذه الأحكام (فقل ربكم ذورحمة واسعة) فلذلك لا يعجل عليكم بالعقوبة (ولا يرد بأسه) أي عذابه إذا جاء الوقت (عن القوم المجرمين) يعني الذين كذبوك فيما تقول . والله أعلم .

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ «١٤٨» قُلْ فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ «١٤٩»

قوله تعالى ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آبائنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون قل لله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾
 اعلم أنه تعالى لما حكى عن أهل الجاهلية إقدامهم على الحكم في دين الله بغير حجة ولا دليل ، حكى عنهم عذرهم في كل ما يقدمون عليه من الكفريات ، فيقولون : لو شاء الله منا أن لا نكفر لمنعنا عن هذا الكفر ، وحيث لم يمنعنا عنه . ثبت أنه مرید لذلك فاذا أراد الله ذلك منا امتنع منا تركه فكنا معذورين فيه ، وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن المعتزلة زعموا أن هذه الآية تدل على قولهم في مسألة إرادة الكائنات من سبعة أوجه :

﴿فالوجه الأول﴾ أنه تعالى حكى عن الكفار صريح قول المجبرة وهو قولهم : لو شاء الله منا أن لا نشرك لم نشرك ، وإنما حكى عنهم هذا القول في معرض الذم والتقييح . فوجب كون هذا المذهب مذموماً باطلاً .

﴿والوجه الثاني﴾ أنه تعالى قال (كذب) وفيه قرأتان بالتخفيف وبالتثقيف . أما القراءة بالتخفيف فهي تصريح بأنهم قد كذبوا في ذلك القول . وذلك يدل على أن الذي تقوله المجبرة في هذه المسألة كذب . وأما القراءة بالتشديد ، فلا يمكن حملها على أن القوم استوجبوا الذم بسبب أنهم كذبوا أهل المذاهب ، لأننا لو حملنا الآية عليه لكان هذا المعنى ضداً للمعنى الذي يدل عليه قراءة (كذب) بالتخفيف ، وحينئذ تصير إحدى القراءتين ضداً للقراءة الأخرى ، وذلك يوجب دخول التناقض في كلام الله تعالى . وإذا بطل ذلك وجب حمله على أن المراد منه أن كل من كذب نبياً من الأنبياء في الزمان المتقدم ، فانه كذبه بهذا الطريق . لأنه يقول الكل بمشيئة الله تعالى . فهذا الذي

أنا عليه من الكفر ، إنما حصل بمشيئته الله تعالى ، فلم يمنعني منه ، فهذا طريق متعين لكل الكفار المتقدمين والمتأخرين في تكذيب الأنبياء ، وفي دفع دعوتهم عن أنفسهم . فاذا حملنا الآية على هذا الوجه صارت القراءة بالشديد مؤكدة للقراءة بالتخفيف ويصير مجموع القراءتين دالا على إبطال قول المجبرة .

﴿الوجه الثالث﴾ في دلالة الآية على قولنا قوله تعالى (حتى ذاقوا بأسنا) وذلك يدل على أنهم استوجبوا الوعيد من الله تعالى في ذهابهم إلى هذا المذهب .

﴿الوجه الرابع﴾ قوله تعالى (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا) ولاشك أنه استفهام على سبيل الإنكار ، وذلك يدل على أن القائلين بهذا القول ليس لهم به علم ولا حجة ، وهذا يدل على فساد هذا المذهب ، لأن كل ما كان حقاً كان القول به علماً .

﴿الوجه الخامس﴾ قوله تعالى (إن يتبعون إلا الظن) مع أنه تعالى قال في سائر الآيات (إن الظن لا يغني من الحق شيئاً)

﴿والوجه السادس﴾ قوله تعالى (وإن هم إلا يخراصون) والخرص أقبح أنواع الكذب ، وأيضاً قال تعالى (قتل الخراصون)

﴿والوجه السابع﴾ قوله تعالى (قل فله الحجة البالغة) وتقريره : أنهم احتجوا في دفع دعوة الأنبياء والرسول على أنفسهم بأن قالوا : كل ما حصل فهو بمشيئة الله تعالى ، وإذا شاء الله منا ذلك ، فكيف يمكننا تركه ؟ وإذا كنا عاجزين عن تركه ، فكيف يأمرنا بتركه ؟ وهل في وسعنا وطاقتنا أن نأتي بفعل على خلاف مشيئة الله تعالى ؟ فهذا هو حجة الكفار على الأنبياء ، فقال تعالى (قل فله الحجة البالغة) وذلك من وجهين :

﴿الوجه الأول﴾ أنه تعالى أعطاكم عقولا كاملة ، وأفهاماً وافية ، وآذاناً سامعة ، وعيوناً باصرة ، وأقدركم على الخير والشر ، وأزال الأعدار والموانع بالسكينة عنكم ، فإن شئتم ذهبتم إلى عمل الخيرات . وإن شئتم إلى عمل المعاصي والمنكرات ، وهذه القدرة والممكنة معلومة الثبوت بالضرورة ، وزوال الموانع والعوائق معلوم الثبوت أيضاً بالضرورة ، وإذا كان الأمر كذلك كان ادعائكم أنكم عاجزون عن الإيمان والطاعة دعوى باطلة ثبت بما ذكرنا أنه ليس لكم على الله حجة بالغة ! بل لله الحجة البالغة عليكم .

﴿والوجه الثاني﴾ أنكم تقولون : لو كانت أفعالنا واقعة على خلاف مشيئة الله تعالى ، لكنا قد غلبنا الله وقهرناه ، وأتينا بالفعل على مضادته ومخالفته ، وذلك يوجب كونه عاجزاً ضعيفاً ، وذلك يقدر في كونه إلهاً .

فأجاب تعالى عنه : بأن العجز والضعف إنما يلزم إذا لم أكن قادرا على حملهم على الايمان والطاعة على سبيل القهر والألجاء ، وأنا قادر على ذلك وهو المراد من قوله (ولو شاء لهداكم أجمعين) إلا أنى لا أحملكم على الايمان والطاعة على سبيل القهر والالجاء . لأن ذلك يبطل الحكمة المطلوبة من التكليف ، فثبت بهذا البيان أن الذى يقولونه من أنا لو أتينا بعمل على خلاف مشيئة الله . فانه يلزم منه كونه تعالى عاجزا ضعيفا ، كلام باطل . فهذا أقصى ما يمكن أن يذكر فى تمسك المعتزلة بهذه الآية .

والجواب المعتمد فى هذا الباب ، أن نقول : انا بينا أن هذه السورة من أولها إلى آخرها تدل على صحة قولنا ومذهبنا ، ونقائنا فى كل آية ما يذكرونه من التأويلات . وأجبنا عنها بأجوبة واضحة قوية مؤكدة بالدلائل العقلية القاطعة .

وإذا ثبت هذا ، فلو كان المراد من هذه الآية ما ذكرتم ، لوقع التناقض الصريح فى كتاب الله تعالى فانه يوجب أعظم أنواع الطعن فيه .

إذا ثبت هذا فنقول : انه تعالى حكى عن القوم أنهم قالوا (لو شاء الله ما أشركنا) ثم ذكر عقبيه (كذلك كذب الذين من قبلهم) فهذا يدل على أن القوم قالوا لما كان الكل بمشيئة الله تعالى وتقديره ، كان التكليف عبثا ، فكانت دعوى الأنبياء باطلة ، ونبوتهم ورسالتهم باطلة . ثم انه تعالى بين أن التمسك بهذا الطريق فى إبطال النبوة باطل ، وذلك لأنه إله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، ولا اعتراض عليه لأحد فى فعله ، فهو تعالى يشاء الكفر من الكافر . ومع هذا فيبعث إليه الأنبياء ويأمره بالايمان ، وورود الأمر على خلاف الإرادة غير ممتنع .

فالخاص : أنه تعالى حكى عن الكفار أنهم يتمسكون بمشيئة الله تعالى فى إبطال نبوة الأنبياء ، ثم انه تعال بين أن هذا الاستدلال فاسد باطل ، فانه لا يلزم من ثبوت المشيئة لله فى كل الأمور دفع دعوة الأنبياء ، وعلى هذا الطريق فقط سقط هذا الاستدلال بالكلية . وجميع الوجوه التى ذكرتموها فى التقييح والتهجين عائد إلى تمسككم بثبوت المشيئة لله على دفع دعوة الأنبياء . فيكون الحاصل : أن هذا الاستدلال باطل ، وليس فيه البتة ما يدل على أن القول بالمشيئة باطل .

فان قالوا : هذا العذر إنما يستقيم إذا قرأنا قوله تعالى (كذلك كذب) بالتسديد . وأما إذا قرأناه بالتخفيف ، فانه يسقط هذا العذر بالكلية فنقول فيه وجهان . الأول : انا نمنع صحة هذه القراءة ، والدليل عليه انا بينا أن هذه السورة من أولها إلى آخرها تدل على قولنا : فلو كانت هذه الآية دالة على قولهم ، لوقع التناقض ، ولخرج القرآن عن كونه كلاما لله تعالى . ويندفع هذا التناقض

بأن لا تقبل هذه القراءة ، فوجب المصير اليه . الثاني : سلمنا صحة هذه القراءة لكننا نحملها على أن القوم كذبوا في أنه يلزم من ثبوت مشيئة الله تعالى في كل أفعال العباد سقوط نبوة الأنبياء وبطلان دعوتهم ، وإذا حملناه على هذا الوجه لم يبق للمعتزلة بهذه الآية تمسك البتة ، والحمد لله الذي أعاننا على الخروج من هذه العهدة القوية ، ومما يقوى ما ذكرناه ما روى أن ابن عباس قيل له بعد ذهاب بصره ما تقول فيمن يقول : لا قدر ، فقال إن كان في البيت أحد منهم أتيت عليه ويله أما يقرأ (إنما كل شيء خلقناه بقدر . إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم) وقال ابن عباس : أول ما خلق الله القلم ، قال له اكتب القدر . فخرى بما يكون إلى قيام الساعة ، وقال صلوات الله عليه «المكذبون بالقدر مجوس هذه الأمة»

﴿المسألة الثانية﴾ زعم سيديويه أن عطف الظاهر على المضمرة المرفوعة في الفعل قبيح ، فلا يجوز أن يقال : قمت وزيد ، وذلك لأن المعطوف عليه أصل ، والمعطوف فرع ، والمضمرة ضعيف ، والمظهر قوى ، وجعل القوي فرعاً للضعيف ، لا يجوز .

إذا عرفت هذا الأصل فنقول : إن جاء الكلام في جانب الإثبات ، وجب تأكيد الضمير فنقول : قمت أنا وزيد ، وإن جاء في جانب النفي قلت ما قمت ولا زيد .

إذا ثبت هذا فنقول قوله (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا) فعطف قوله (ولا آباؤنا) على الضمير في قوله (ما أشركنا) إلا أنه تخلل بينهما كلمة لا فلا يجرم حسن هذا العطف . قال في جامع الأصفهاني : إن حرف العطف يجب أن يكون متأخراً عن اللفظة المؤكدة للضمير حتى يحسن العطف ويندفع المحذور المذكور من عطف القوي على الضعيف ، وهذا المقصود إنما يحصل إذا قلنا (ما أشركنا نحن ولا آباؤنا) حتى تكون كلمة (لا) مقدمة على حرف العطف . أما ههنا حرف العطف مقدم على كلمة (لا) وحينئذ يعود المحذور المذكور .

فالجواب : أن كلمة (لا) لما أدخلت على قوله (آباؤنا) كان ذلك موجبا إضمار فعل هناك ، لأن صرف النفي إلى ذوات الآباء محال ، بل يجب صرف هذا النفي إلى فعل يصدر منهم ، وذلك هو الإشراك ، فكان التقدير : ما أشركنا ولا أشرك آباؤنا ، وعلى هذا التقدير فلا إشكال زائل

﴿المسألة الثالثة﴾ احتج أصحابنا على قولهم الكل بمشيئة الله تعالى بقوله (فلو شاء لهدأكم أجمعين) فكلمة «لو» في اللغة تفيد انتفاء الشيء لا انتفاء غيره ، فدل هذا على أنه تعالى ما شاء أن يهديهم ، وما هدأهم أيضا . وتقريره بحسب الدليل العقلي ، أن قدرة الكافر على الكفر ان لم تكن قدرة على الإيمان . فالتعالى على هذا التقدير ما أقدره على الإيمان ، ولو شاء الإيمان منه ، فقد شاء الفعل

من غير قدرة على الفعل ، وذلك محال ومشبهة المحال محال . وإن كانت القدرة على الكفر قدرة على الإيمان توقف رجحان أحد الطرفين على حصول الداعية المرجحة .

فإن قلنا : أنه تعالى خاق تلك الداعية فقد حصلت الداعية المرجحة مع القدرة . ومجموعهما موجب للفعل ، فحيث لم يحصل الفعل علمنا أن تلك الداعية لم تحصل . وإذا لم تحصل امتنع منه فعل الإيمان ، وإذا امتنع ذلك منه . امتنع أن يريد الله منه . لأن إرادة المحال محال تمتنع . فثبت أن ظاهر القرآن دل على أنه تعالى ما أراد الإيمان من الكافر . والبرهان العقلي الذي قررناه يدل عليه أيضا ، فبطل قولهم من كل الوجود . وأما قوله : تحمل هذه الآية على مشيئة الاجاء فنقول : هذا التأويل إنما يحسن المصير إليه لو ثبت بالبرهان العقلي امتناع الحمل على ظاهر هذا الكلام . أما الوقام البرهان العقلي على أن الحق ليس إلا ما دل عليه هذا الظاهر ، فكيف يصار إليه ؟ ثم نقول : هذا الدليل باطل من وجوه : الأول : أن هذا الكلام لا بد فيه من إضمار . فنحن نقول : التقدير : لو شاء الهداية لهداكم . وأنتم تقولون التقدير : لو شاء الهداية على سبيل الاجاء لهداكم . فإضماركم أكثر فكان قولكم مرجوحا . الثاني . أنه تعالى يريد من الكافر الإيمان الاختياري . والإيمان الحاصل بالاجاء غير الإيمان الحاصل بالاختيار ، وعلى هذا التقدير يلزم كونه تعالى عاجزا عن تحصيل مراده . لأن مراده هو الإيمان الاختياري ، وأنه لا يقدر البتة على تحصيله . فكان القول بالعجز لازما . الثالث : أن هذا الكلام موقوف على الفرق بين الإيمان الحاصل بالاختيار . وبين الإيمان الحاصل بالاجاء . أما الإيمان الحاصل بالاختيار ، فإنه يمتنع حصوله إلا عند حصول داعية جازمة . وإرادة لازمة . فإن الداعية التي يترتب عليها حصول الفعل . إما أن تكون بحيث يجب ترتب الفعل عليها أو لا يجب ، فإن وجب فهي الداعية الضرورية ، وحينئذ لا يبقى بينها وبين الداعية الحاصلة بالاجاء فرق . وإن لم يجب ترتب الفعل عليها . فحينئذ يمكن تخلف الفعل عنها ، فلنفرض تارة ذلك الفعل متخلفا عنها ، وتارة غير متخلف . فامتياز أحد الوقتين عن الآخر لا بد وأن يكون لمرجح زائد . فالحاصل قبل ذلك ما كان تمام الداعية . وقد فرضناه كذلك . وهذا خلف . ثم عند انضمام هذا القيد الزائد إن وجب الفعل لم يبق بينه وبين الضرورية فرق . وإن لم يجب افتقر إلى قيد زائد ولزم التسلسل . وهو محال . فثبت أن الفرق الذي ذكرناه بين الداعية الاختيارية وبين الداعية الضرورية وإن كان في الظاهر معتبرا ، إلا أنه عند التحقيق والبحث لا يبقى له محصول .

قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَاِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ
مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ
بِرَبِّهِمْ يُعَدُّونَ «١٥٠»

قوله تعالى ﴿قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا فان شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون﴾
اعلم أنه تعالى لما أبطل على الكفار جميع أنواع حججهم بين أنه ليس لهم على قولهم شهود البتة ،
وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى (هلم) كلمة دعوة إلى الشيء ، والمعنى : هاتوا شهداءكم ، وفيه قولان : الأول :
أنه يستوى فيه الواحد والاثان والجمع ، والذكر والأنثى . قال تعالى (قل هلم شهداءكم الذين
يشهدون) وقال (والقائمين لاخوانهم هلم إلينا) واللغة الثانية يقال للثنتين : هلمنا ، وللجمع : هلموا ،
وللمرأة : هلمى ، وللثلاثين : هلمنا ، وللجمع : هلمن . والأول أفصح .

المسألة الثانية في أصل هذه الكلمة قولان : قال الخليل وسيبويه انها «ها» ضمت اليها «لم»
أى جمع ، ونكون بمعنى : أذن . يقال : لفلان لمة ، أى دنو ، ثم جعلنا كالكلمة الواحدة ، والفائدة
في قولنا «ها» استعطاف المسامور واستدعاء إقباله على الأمر . إلا أنه لما كثر استعماله حذف عنه
الألف على سبيل التخفيف ، كقولك : لم أبل ، ولم أر ، ولم تك ، وقال الفراء : أصلها «هل» أم
أرادوا «بهل» حرف الاستفهام ، وبقولنا «أم» أى أقصد ؟ والتقدير : هل قصد ؟ والمقصود
من هذا الاستفهام الأمر بالقصد ، كأنك تقول : أقصد ، وفيه وجه آخر ، وهو أن يقال : كان
الأصل ان قالوا : هل لك في الطعام ، أم أى قصد ؟ ثم شاع في الكل كما أن كلمة «تعالى» كانت
مخصوصة بصورة معينة . ثم عمت .

المسألة الثالثة أنه تعالى نبه باستدعاء إقادة الشهداء من الكافرين ليظهر أن لا شاهد لهم على
تحريم ما حرموه . ومعنى (هلم) أحضروا شهداءكم .

ثم قال ﴿فان شهدوا فلا تشهد معهم﴾ تنبيها على كونهم كاذبين ، ثم بين تعالى أنه إن وقعت
منهم تلك الشهادة فعن اتباع الهوى ، فأمر نبيه أن لا يتبع أهواءهم ، ثم زاد في تقييح ذلك بأنهم
لا يؤمنون بالآخرة ، وكانوا ممن ينكرون البعث والنشور ، وزاد في تقييحهم بأنهم يعدلون بربهم

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ إِنَّهُنَّ إِمْلَاقٌ مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ «١٥١»

فيجعلون له شركاء . والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تفرحوا بالفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلکم وصاکم به لعلکم تعقلون ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين فساد ما يقوله الكفار أن الله حرم علينا كذا وكذا . أردفه تعالى ببيان الأشياء التي حرمها عليهم ، وهي الأشياء المذكورة في هذه الآية ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف « تعال » من الخاص الذي صار عاماً ، وأصله أن يقول من كان في مكان عال لمن هو أسفل منه . ثم كثر وعم . وما في قوله (ما حرم ربكم عليكم) منصوب ، وفي ناصبه وجهان : الأول : أنه منصوب بقوله (أتل) والتقدير : أتل الذي حرره عليكم ، والثاني : أنه منصوب بجرم . والتقدير : أتل الأشياء التي حرم عليكم .

فان قيل : قوله (أن لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً) كالتفصيل لما أجمد في قوله (ما حرم ربكم عليكم) وهذا باطل ، لأن ترك الشرك والاحسان بالوالدين واجب . لا محرم .

والجواب من وجوه : الأول : أن المراد من التحريم أن يجعل له حريماً معيناً . وذلك بأن بينه بياناً مضبوطاً معيناً ، فقوله (أتل ما حرم ربكم عليكم) معناه : أتل عليكم ما بينه بياناً شافياً بحيث يجعل له حريماً معيناً ، وعلى هذا التقرير فالسؤال زائل ، والثاني : أن الكلام تم وانقطع عند قوله (أتل ما حرم ربكم) ثم ابتداء فقال (عليكم أن لا تشركوا) كما يقال : عليكم السلام . أو أن الكلام تم وانقطع عند قوله (أتل ما حرم ربكم عليكم) ثم ابتداء فقال (ألا تشركوا به شيئاً) بمعنى لئلا تشركوا ، والتقدير : أتل ما حرم ربكم عليكم لئلا تشركوا به شيئاً . الثالث : أن تكون « أن »

في قوله (أن لا تشر كوا) مفسرة بمعنى: أى ، وتقدير الآية: أتل ما حرم ربكم عليكم ، أى لا تشر كوا ، أى ذلك التحريم هو قوله (لا تشر كوا به شيئاً)

فان قيل : فقوله (وبالوالدين إحسانا) معطوف على قوله (أن لا تشر كوا به شيئاً) فوجب أن يكون قوله (وبالوالدين إحسانا) مفسراً لقوله (أتل ما حرم ربكم عليكم) فيلزم أن يكون الاحسان بالوالدين حراماً ، وهو باطل .

قلنا : لما أوجب الاحسان اليهما ، فقد حرم الاساءة اليهما .

﴿المسألة الثانية﴾ أنه تعالى أوجب في هذه الآية أموراً خمسة : أولها : قوله (أن لا تشر كوا به شيئاً) واعلم أنه تعالى قد شرح فرق المشركين في هذه السورة على أحسن الوجوه ، وذلك لأن طائفة من المشركين يجعلون الأصنام شركاء لله تعالى ، وإليه الإشارة بقوله حكاية عن إبراهيم (وإذ قال إبراهيم لأبيه أزر أتتخذ أصناماً آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين)

﴿والطائفة الثانية﴾ من المشركين عبدة الكواكب ، وهم الذين حكى الله عنهم ، أن إبراهيم عليه السلام أبطل قولهم بقوله (لأحب الآفلين)

﴿والطائفة الثالثة﴾ الذين حكى الله تعالى عنهم (أنهم جعلوا لله شركاء الجن) وهم القائلون

ببزدان وأهر من .

﴿والطائفة الرابعة﴾ الذين جعلوا لله بنين وبنات ، وأقام الدلائل على فساد أقوال هؤلاء

الطوائف والفرق ، فلما بين بالدليل فساد قول هؤلاء الطوائف . قال ههنا (ألا تشر كوا به شيئاً)

﴿النوع الثانى﴾ من الأشياء التى أوجبها ههنا قوله (وبالوالدين إحسانا) وإنما ثنى بهذا

التكليف ، لأن أعظم أنواع النعم على الانسان نعمة الله تعالى ، ويتلوها نعمة الوالدين ، لأن المؤثر

الحقيقى فى وجود الانسان هو الله سبحانه وفى الظاهر هو الأبوان ، ثم نعمهما على الانسان عظيمة

وهى نعمة التربية والشفقة والحفظ عن الضياع والمهلك فى وقت الصغر .

﴿النوع الثالث﴾ قوله (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم) فأوجب بعد رعاية

حقوق الأبوين رعاية حقوق الأولاد وقوله (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق) أى من خوف الفقر

وقد صرح بذكر الخوف فى قوله (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق) والمراد منه النهى عن الوأد ،

إذ كانوا يدفنون البنات أحياء ، بعضهم للغيرة ، وبعضهم خوف الفقر ، وهو السبب الغالب ، فبين

تعالى فساد هذه العلة بقوله (نحن نرزقكم وإياهم) لأنه تعالى إذا كان متكفلاً برزق الوالد والولد ،

فكما وجب على الوالدين تبقية النفس والاتكال فى رزقها على الله ، فكذلك القول فى حال الولد .

قال شمر : أملق ، لازم ومتعد . يقال : أملق الرجل . فهو مملق ، إذا افتقر . فهذا لازم ، وأملق

وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ
وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَفُّ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا

الدهر ما عنده . إذا أفسده . والاملاق الفساد .

﴿والنوع الرابع﴾ قوله (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) قال ابن عباس : كانوا يكرهون الزنا علانية ، ويفعلون ذلك سرا ، فنهاهم الله عن الزنا علانية وسرا ، والأولى أن لا يخصص هذا النهي بنوع معين ، بل يجري على عمومته في جميع الفواحش ظاهرها وباطنها لأن اللفظ عام . والمعنى الموجب لهذا النهي وهو كونه فاحشة عام أيضا ومع عموم اللفظ والمعنى يكون التخصيص على خلاف الدليل ، وفي قوله (ما ظهر منها وما بطن) دقيقة ، وهي : أن الانسان إذا احترز عن المعصية في الظاهر ولم يحترز عنها في الباطن دل ذلك على أن احترازه عنها ليس لأجل عبودية الله وطاعته ، ولكن لأجل الخوف من مذمة الناس . وذلك باطل . لأن من كان مذمة الناس عنده أعظم وقعا من عقاب الله ونحوه فإنه يخشى عليه من الكفر ، ومن ترك المعصية ظاهرا وباطنا ، دل ذلك على انه إنما تركها تعظيما لأمر الله تعالى وخوفا من عذابه ورغبة في عبادته .

﴿والنوع الخامس﴾ قوله (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق)

واعلم أن هذا داخل في جملة الفواحش إلا انه تعالى أفرد بالذکر لفائدتين : إحداهما : أن الافراد بالذکر يدل على التعظيم والتفخيم . كقوله (وملائكته وجبريل وميكال) والثانية : انه تعالى أراد أن يستثنى منه ، ولا يتأتى هذا الاستثناء في جملة الفواحش .

إذا عرفت هذا فقول : قوله (إلا بالحق) أي قتل النفس المحرمة قد يكون حقا لجرم يصدر منها . والحديث أيضا موافق له وهو قوله عليه السلام «لا يخل دم امرئ مسلم إلا باحدى ثلاث كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، وقتل نفس بغير حق» والقرآن دل على سبب رابع ، وهو قوله تعالى (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا) والحاصل : أن الاصل في قتل النفس هو الحرمة وحده لا يثبت الا بدليل منفصل . ثم انه تعالى لما بين أحوال هذه الاقسام الخمسة أتبعه باللفظ الذي يقرب الى القلب القبول ، فقال (ذلكم وصاكم به) لما في هذه اللفظة من اللطف والرافة . وكل ذلك ليكون المكلف أقرب الى القبول . ثم أتبعه بقوله (لعلكم تعقلون) أي لكي تعقلوا فوائد هذه التكاليف . ومنافعها في الدين والدنيا .

قوله تعالى ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان

قُرْبِي وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾

بالقسط لانكف نفسا لاوسعها وإذا قلمت فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴿

اعلم انه تعالى ذكر في الآية الأولى خمسة أنواع من التكليف ، وهي أمور ظاهرة جليلة لاحاجة فيها إلى الفكر والاجتهاد ، ثم ذكر تعالى في هذه الآية أربعة أنواع من التكليف ، وهي أمور خفية يحتاج المرء العاقل في معرفته بمقدارها إلى التفكير ، والتأمل والاجتهاد .

﴿ فالنوع الأول ﴾ من التكليف المذكورة في هذه الآية قوله (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده)

واعلم أنه تعالى قال في سورة البقرة (ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير) والمعنى : ولا تقربوا مال اليتيم إلا بأن يسعى في تنميته وتحصيل الربح به ورعاية وجوه الغبطة له ، ثم إن كان القيم فقيرا محتاجا أخذ بالمعروف ، وإن كان غنيا فاحترز عنه كان أولى فقوله (إلا بالتي هي أحسن) معناه كمعنى قوله (ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف) .

وأما قوله ﴿ حتى يبلغ أشده ﴾ فالمعنى ا حفظوا ماله حتى يبلغ أشده ، فإذا بلغ أشده فادفعوا إليه ماله . وأما معنى الأشد وتفسيره : قال الليث : الأشد . مبلغ الرجل الحكمة والمعرفة . قال الفراء : الأشد . واحدها شد في القياس ، ولم أسمع لها بواحد . وقال أبو الهيثم : واحدة الأشد شدة كما أن واحدة الأنعم نعمة ، والشدة : القوة والجلادة ، والشديد الرجل القوى ، وفسروا بلوغ الأشد في هذه الآية بالاحتلام بشرط أن يؤنس منه الرشد ، وقد استقصينا في هذا الفصل في أول سورة النساء .

﴿ والنوع الثاني ﴾ قوله تعالى (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط)

اعلم أن كل شيء بلغ تمام الكمال ، فقد وفى وتم . يقال : درهم واف ، وكيل واف ، وأوفيته حقه ، ووفيته إذا أتمته . وأوفى الكيل إذا أتمه ولم ينقص منه شيئا وقوله (والميزان) أى الوزن بالميزان وقوله (بالقسط) أى بالعدل لا بخص ولا نقصان .

فإن قيل : إيفاء الكيل والميزان ، هو عين القسط ، فما الفائدة في هذا التكرير ؟

قلنا : أمر الله المعطى بإيفاء ذى الحق حقه من غير نقصان ، وأمر صاحب الحق بأخذ حقه من غير طلب الزيادة .

واعلم انه لما كان يجوز أن يتوهم الانسان أنه يجب على التحقيق وذلك صعب شديد في العدل وأتبعه الله تعالى بما يزيل هذا التشديد فقال (لانكلف نفسا إلا وسعها) أى الواجب فى ايفاء الكيل والوزن هذا القدر الممكن فى ايفاء الكيل والوزن . أما التحقيق فغير واجب . قال القاضى : إذا كان تعالى قد خفف على المكلف هذا التخفيف مع أن ما هو التضيق مقدور له . فكيف يتوهم أنه تعالى يكلف الكافر الايمان مع أنه لاقدرة له عليه ؟ بل قالوا : يخلق الكافر فيه . ويريده منه . ويحكم به عليه ، ويخلق فيه القدرة الموجبة لذلك الكفر . والداعية الموجبة له . ثم ينهأ عنه فهو تعالى لما لم يجوز ذلك القدر من التشديد والتضيق على العبد ، وهو ايفاء الكيل والوزن على سبيل التحقيق ، فكيف يجوز أن يضيق على العبد مثل هذا التضيق والتشديد ؟
واعلم أنا نعارض القاضى وشيوخه فى هذا الموضوع بمسألة العلم ومسألة الداعى . وحينئذ ينقطع ولايبقى لهذا الكلام رواء ولارونق .

﴿النوع الثالث﴾ من التكليف المذكورة فى هذه الآية ، قوله تعالى (وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى) واعلم أن هذا أيضاً من الأمور الخفية التى أوجب الله تعالى فيها أداء الأمانة . والمفسرون حملوه على أداء الشهادة فقط ، والأمر والنهى فقط . قال القاضى وليس الأمر كذلك بل يدخل فيه كل ما يتصل بالقول ، فيدخل فيه مايقول المرء فى الدعوة إلى الدين وتقرير الدلائل عليه بأن يذكر الدليل ملخصاً عن الحشو والزيادة بألفاظ مفهومة معتادة . قريبة من الأفهام . ويدخل فيه أن يكون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واقعاً على وجه العدل من غير زيادة فى الايذاء والايحاش . ونقصان عن القدر الواجب ، ويدخل فيه الحكايات التى يذكرها الرجل حتى لايزيد فيها ولاينقص عنها ، ومن جعلتها تبليغ الرسالات عن الناس ، فانه يجب أن يؤديها من غير زيادة ولانقصان ، ويدخل فيه حكم الحاكم بالقول ، ثم إنه تعالى بين أنه يجب أن يسوى فيه بين القريب والبعيد ، لأنه لما كان المقصود منه طلب رضوان الله تعالى لم يختلف ذلك بالقريب والبعيد .
﴿والنوع الرابع﴾ من هذه التكليف قوله تعالى (وبعهدالله أوفوا) وهذا من خفيات الأمور لأن الرجل قد يحلف مع نفسه ، فيكون ذلك الحلف خفياً . ويكون بره وحثه أيضاً خفياً . ولما ذكر تعالى هذه الأقسام قال (ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون)

فان قيل : فما السبب فى أن جعل خاتمة الآية الأولى بقوله (لعلكم تعقلون) وخاتمة هذه الآية بقوله (لعلكم تذكرون)

قلنا : لأن التكاليف الخمسة المذكورة في الأولى أمور ظاهرة جليلة . فوجب تعقلها وتفهمها وأما التكاليف الأربعة المذكورة في هذه الآية فأمور خفية غامضة ، لا بد فيها من الاجتهاد والفكر حتى يقف على موضع الاعتدال . فلهذا السبب ، قال (لعلكم تذكرون) قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم (تذكرون) بالتخفيف والباقون (تذكرون) بتشديد الذال في كل القرآن وهما بمعنى واحد .

تم الجزء الثالث عشر ، ويليه إن شاء الله تعالى الجزء الرابع عشر ، وأوله قوله تعالى
 ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ من سورة الأنعام . أعان الله على إكماله

فهرست

الجزء الثالث عشر

من

التفسير الكبير

للإمام

الشيخ الفخر الرازي

صفحة	صفحة
٣١	٢
قوله تعالى «وهو الذى خلق السموات والارض بالحق» الآية	قوله تعالى «وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا» الآية
» ٣٤	» ٦
» «وإذ قال إبراهيم لأبيه أزر»	» «وكذلك نفصل الآيات
» «وكذلك نرى إبراهيم	» ولتستبين سبيل المجرمين» الآية
» «فلما جن عليه الليل رأى كوكبا»	» «قل لو أن عندى ما تستعجلون
» «فلما رأى القمر بازغا قال	به» الآية
» هذا ربى» الآية	» ٩
» «إنى وجهت وجهى للذى فطر	» «وعنده مفاتيح الغيب» الآية
» «السموات والارض» الآية	» «وهو الذى يتوفاكم بالليل
» «وحاجه قومه قال اتحاجونى فى	» ويعلم ما جر حتم بالنهار» الآية
» الله وقد هدان» الآية	» «وهو القاهر فوق عباده
» «وكيف أخاف ما أشركتم»	» ويرسل عليكم حفظة» الآية
» «وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم	» «ثم ردوا إلى الله وولاهم الحق»
» على قومه» الآية	» «قل من ينجيكم من ظلمات
» «ووهبنا له اسحق ويعقوب	البر والبحر» الآية
» كلا هدينا» الآية	» «قل هو القادر على أن يبعث
» «ومن آباؤهم وذرياتهم	عليكم عذابا» الآية
» «واخوانهم» الآية	» «وكذب به قومك وهو الحق»
» «أولئك الذين آتيناهم الكتاب	» «وإذا رأيت الذين يخوضون
» والحكم والنبوة» الآية	فى آياتنا» الآية
» «أولئك الذين هدى الله فبهداهم	» «وما على الذين ينفقون من
» اقتده» الآية	حسابهم من شىء» الآية
» «وما قدروا الله حق قدره»	» «وذروا دينهم اتخذوا دينهم
» «وهذا كتاب أنزلناه مبارك	لعبا ولهوا» الآية
» ومصداق الذى بين يديه» الآية	» «قل اندعوا من دون الله مالا
	ينفعنا ولا يضرنا» الآية

صفحة	صفحة
١٣٩	٨٣
قوله تعالى «ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله» الآية	قوله تعالى «ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا» الآية
١٤٢	٨٦
«وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها»	«لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة»
١٤٦	٨٩
«ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة» الآية	«ان الله فائق الحب والنوى»
١٤٩	٩٤
«ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلهم الموتى» الآية	«فائق الاصبح وجعل الليل سكنا» الآية
١٥٢	١٠٠
«وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن»	«وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها» الآية
١٥٦	١٠٢
«ولتصغى اليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة» الآية	«وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة» الآية
١٥٨	١٠٥
«أفغير الله ابغى حكما» الآية	«وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخر جنابه» الآية
١٦٠	١١٢
«وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا»	«وجعلوا لله شركاء الجن»
١٦٢	١١٧
«وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله» الآية	«بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد» الآية
١٦٤	١٢٠
«فكلموا بما اذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين»	«ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء» الآية
١٦٥	١٢٤
«وما لكم ألا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه»	«لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار» الآية
١٦٧	١٣٣
«وذروا ظاهرا لا تشموا باطنه»	«قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه» الآية
١٦٨	١٣٤
«ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه»	«وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست» الآية
١٧٠	١٣٧
«أو من كان ميتا فأحييناه ووجدنا له نورا» الآية	«اتبع ما أوحى إليك من ربك»

صفحة	صفحة
٢٠٧	١٧٣
قوله تعالى «وقالوا هذه أنعام وحرث حجر» الآية	قوله تعالى «وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها» الآية
٢٠٨	١٧٥
«وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا» الآية	«وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتى رسل الله»
٢٠٩	١٧٧
«قد خسروا الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم» الآية	«فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام» الآية
٢١٠	١٨٧
«وهو الذي انشأ جنات معروشات» الآية	«وهذا صراط ربك مستقيماً»
٢١٥	١٨٨
«ومن الأنعام حمولة وفرشا»	«ولهم دار السلام عند ربهم»
٢١٦	١٩٠
«ثمانية أزواج من الضأن اثني» الآية	«ويوم يحشرهم جميعاً يامعشر الجن» الآية
٢١٨	١٩٣
«قل لا أجد فيما أوحى إلي محرماً»	«وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون»
٢٢٣	١٩٤
«وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر» الآية	«يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم» الآية
٢٢٤	١٩٦
«فان كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة» الآية	«ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى»
٢٢٥	١٩٧
«سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا» الآية	«ولكل درجات مما عملوا»
٢٣٠	١٩٨
«قل لهم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا»	«وربك الغنى ذو الرحمة» الآية
٢٣١	٢٠٢
«قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم» الآية	«قل يا قوم اعملوا على مكانتكم»
٢٣٣	٢٠٤
«ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن» الآية	«إني عامل» الآية
	٢٠٤
	«وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً» الآية
	٢٠٥
	«وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم» الآية